مرکز القائمیة اصبهان للبحوث والتحریات الکمبیوتریة

السلام علیک یا صاحب الزمان

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

نفحات القرآن

أسلوب جديد في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم

الجزء السابع

النبوة العامة

سماحة آية الله العظمى الشيخ ناصر مكارم الشيرازي
بمساعدة مجموعة من الفضلاء

بسم الله الرحمن الرحیم

نفحات القرآن:اسلوب جديد فى التفسير الموضوعى للقرآن الكريم

كاتب:

ناصرمكارم شيرازى

نشرت فى الطباعة:

موسسه ابى صالح النشر و الثقافه

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

الفهرس ----- ۵

نفحات القرآن المجلد ۷ ----- ۱۲

اشارة ----- ۱۲

فلسفة بعثة الأنبياء علیهم السلام فی التصور القرآنی ----- ۱۲

اشارة ----- ۱۲

القرآن الکریم والهدف من إرسال الرسل علیهم السلام ----- ۱۲

تمهید: ----- ۱۲

جمع الآیات و تفسیرها ----- ۱۳

أهداف وفلسفة بعثة الأنبیاء: ----- ۱۳

۱ و ۲- التربیة والتعلیم ----- ۱۳

۳- إقامة القسط والعدل ----- ۱۶

۴- حریّة الإنسان ----- ۱۷

۵- النجاة من الظلمات ----- ۱۸

۶- البشری والإنذار ----- ۱۹

۷- إتمام الحجّة ----- ۱۹

۸- رفع الاختلاف ----- ۲۰

۹- التذکیر (بالنسبة للبدیهیات والمستقلات العقلیّة) ----- ۲۱

۱۰- الدعوة إلی الحیاة الإنسانیة الطیبة ----- ۲۳

ثمرة البحث: ----- ۲۳

توضیحات ----- ۲۴

۱- فلسفة بعثة الأنبیاء والرسل فی الروایات الإسلامیة ----- ۲۴

۲- الغایة من إرسال الرسل فی التصور العقلی ----- ۲۵

أ) عجز الإنسان عن التقنین الدقیق ----- ۲۵

ب) التنسیق بین التکوین والتشریع ---- ۲۷
ج) التربیة العلمیة ---- ۲۸
۳- اسلوب المخالفین ---- ۲۹
الخصائص العامّة للأنبیاء علیهم السلام ---- ۳۱
اشارة ---- ۳۱
جمع الآیات و تفسیرها ---- ۳۲
۱- صدق الحدیث ---- ۳۲
۲- الالتزام بالعهود والمواثیق ---- ۳۲
۳- الأمانة ---- ۳۳
۴- الرغبة والشفقة الفائقتان ---- ۳۴
۵- الإخلاص والإیثار الکامل ---- ۳۴
۶- البرّ والإحسان ---- ۳۵
۷- عدم الخشیة من غیر اللّه تعالی ---- ۳۶
۸- التوکّل المطلق علی اللّه تعالی ---- ۳۷
۹- الإخلاص المنقطع النظیر ---- ۳۷
۱۰- اللین والمحبّة وحسن الخُلق ---- ۳۸
۱۱- الفوز فی المحن الشاقّة ---- ۳۹
ثمرة البحث: ---- ۴۰
شروط الرسالة ---- ۴۰
اشارة ---- ۴۰
التقوی والعصمة ---- ۴۰
تمهید: ---- ۴۰
جمع الآیات وتفسیرها ---- ۴۱
کیف یکون المذنبون دعاةً للتقوی؟ ---- ۴۱

من هم أهل البيت؟ ----- ۴۶

ثمرة البحث: ----- ۵۱

تنزیه الأنبیاء علیهم السلام ----- ۵۱

اشارة ----- ۵۱

تنزیه الأنبیاء ----- ۵۱

اشارة ----- ۵۲

۱- آدم علیه السلام ----- ۵۲

ثمرة البحث: ----- ۵۴

۲- نوح علیه السلام ----- ۵۴

۳- إبراهیم علیه السلام ----- ۵۵

۴- یوسف علیه السلام ----- ۵۹

۵- موسی علیه السلام ----- ۶۰

۶- داود علیه السلام ----- ۶۵

۷- سلیمان علیه السلام ----- ۶۶

۸- یونس علیه السلام ----- ۶۹

۹- نبی الإسلام صلی الله علیه و آله ----- ۷۱

۱۰- الأنبیاء السابقون بشکل عامّ ----- ۷۸

اسطورتا الآیات الشیطانیة والغرانیق: ----- ۷۸

نقد الروایات المرتبطة بأسطورة الغرانیق: ----- ۸۰

ثمرة البحث: ----- ۸۳

أقوال وآراء حول عصمة الأنبیاء علیهم السلام ----- ۸۳

اشارة ----- ۸۳

یقول فی بحث عصمة الأنبیاء علیهم السلام: ----- ۸۳

الأدلّة العقلیّة علی عصمة الأنبیاء علیهم السلام: ----- ۸۶

اشارة ----- ۸۶
۱- العوامل الداخلية- النفسية- ----- ۸۶
۲- دليل الإعتماد ----- ۸۸
۳- مخالفة الغاية وعدم تحقق أهداف البعثة ----- ۸۹
۴- لا يمكن الإغراء بالجهل والتشجيع على الخطأ ----- ۸۹
۵- عدم أهلية غير المعصوم لتلقّى الوحى ----- ۹۰
۶- أدلّة اخرى ----- ۹۱
أسئلة متعدّدة: ----- ۹۲
اشارة ----- ۹۲
۱- هل لعصمة الأنبياء صفة «جبريّة»؟ ----- ۹۲
۲- هل تنسجم العصمة مع التقيّة؟ ----- ۹۳
المنزلة العلمية للأنبياء عليهم السلام ----- ۹۵
اشارة ----- ۹۵
ما هو علم الأسماء؟ ----- ۹۵
توضيحان ----- ۹۸
۱- حدود علم الأنبياء عليهم السلام ----- ۹۸
۲- القرآن والعلوم الأخرى للأنبياء عليهم السلام ----- ۹۸
مصادر علم الأنبياء عليهم السلام ----- ۱۰۲
الأنبياء عليهم السلام وعلم الغيب ----- ۱۰۵
اشارة ----- ۱۰۵
تمهيد: ----- ۱۰۵
جمع الآيات و تفسيرها ----- ۱۰۶
النتيجة: ----- ۱۰۷
جمع الآيات وتفسيرها ----- ۱۰۸

الثمرة من مجموع آیات علم الغیب: ----- ۱۱۲
روایات علم الغیب: ----- ۱۱۳
حدود علم الغیب وکیفیته: ----- ۱۱۶
إثبات علم القادة الإلهیین عن طریق العقل ----- ۱۱۸
اشارة ----- ۱۱۸
العلوم الأخری للأنبیاء فی القرآن المجید: ----- ۱۱۹
اشارة ----- ۱۱۹
۱- تعلّم موسی من الخضر ----- ۱۱۹
۲- اطّلاع داود علی إعداد وسیلة دفاعیة ----- ۱۲۰
۳- معرفة یوسف بتفسیر الاحلام ----- ۱۲۱
۴- العلم بمنطق الطیر ----- ۱۲۱
طرق معرفة سفراء اللّه ----- ۱۲۲
اشارة ----- ۱۲۲
تمهید: ----- ۱۲۳
اشارة ----- ۱۲۳
۱- الاعجاز ----- ۱۲۴
اشارة ----- ۱۲۴
جمع الآیات وتفسیرها ----- ۱۲۴
الإعجاز، أوّل دلیل علی النبوّة: ----- ۱۲۴
ثمرة البحث: ----- ۱۲۸
توضیحات ----- ۱۲۸
۱- ما هی حقیقة الإعجاز ----- ۱۲۸
۲- العلاقة بین الإعجاز والنبوّة ----- ۱۳۱
۳- الاختلاف بین معجزات الأنبیاء علیهم السلام ----- ۱۳۲

۴- السحر لا يضاهی المعجزة ---- ۱۳۳
۵- منطق منكری الإعجاز ---- ۱۳۵
۲- التحقيق فی مضمون دعوة الأنبياء عليهم السلام ---- ۱۳۸
۳- جمع القرائن ---- ۱۳۹
اشارة ---- ۱۳۹
روحية المتّهم وسوابقه: ---- ۱۴۰
إرشادات القرآن حول هذين الدليلين: ---- ۱۴۰
۴- شهادة الأنبياء السابقين ---- ۱۴۲
مسألة الوحی ---- ۱۴۴
اشارة ---- ۱۴۴
«كيفية الإرتباط بعالم الغيب» ---- ۱۴۴
تمهيد: ---- ۱۴۴
جمع الآيات وتفسيرها ---- ۱۴۴
طرق الإرتباط بعالم الغيب: ---- ۱۴۵
توضيحان ---- ۱۴۷
۱- أقسام الوحی وكيفيته فی الروايات الإسلامية ---- ۱۴۷
۲- الوحی فی كلمات الفلاسفة المتقدّمين والمتأخّرين ---- ۱۴۸
إنتقادات ---- ۱۴۸
نقد وتحليل: ---- ۱۴۹
الاصول العامّة لدعوة الأنبياء عليهم السلام ---- ۱۵۰
اشارة ---- ۱۵۰
الاصول العامّة لدعوة الأنبياء ---- ۱۵۰
تمهيد: ---- ۱۵۰
جمع الآيات وتفسيرها ---- ۱۵۲

وحدة المسير لدى الأنبياء جميعاً: ----- ۱۵۲

ثمرة البحث: ----- ۱۵۸

الأنبياء عليهم السلام فى القرآن المجيد ----- ۱۵۸

اشارة ----- ۱۵۸

الأنبياء فى القرآن المجيد ----- ۱۵۸

تمهيد: ----- ۱۵۸

اشارة ----- ۱۵۸

۱- عدد الأنبياء فى القرآن: ----- ۱۵۹

۲- الأنبياء اولوا العزم فى القرآن ----- ۱۶۱

۳- الكتب السماوية للأنبياء ----- ۱۶۳

۴- الفرق بين الرسول والنبى ----- ۱۶۳

۵- لماذا ظهر الأنبياء الكبار من منطقة خاصّة؟ ----- ۱۶۵

۶- تكامل الأديان ----- ۱۶۶

مقدمة: تاريخ الانبياء جزء من تاريخ الاديان ----- ۱۶۶

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية ----- ۱۶۸

نفحات القرآن المجلد ۷

اشارة

سرشناسه : مكارم شيرازى ناصر، - ۱۳۰۵

عنوان و نام پديدآور : نفحات القرآن اسلوب جديد فى التفسير الموضوعى للقرآن الكريم ناصر مكارم شيرازى بمساعده مجموعه من الفضلا

مشخصات نشر : موسسه ابى‌صالح النشر و الثقافه [۱۳۷۷؟].

مشخصات ظاهرى : ج ۶

وضعيت فهرست نويسى : فهرستنويسى قبلى يادداشت : عربى مندرجات : ج ۱. العلم و المعرفه فى القران .-- ج ۲. معرفه الله فى القرآن .-- ج ۳. .-- ج ۴. معرفه صفات و جلال‌الله .-- ج ۵، ۶. المعاد فى القرآن موضوع : تفاسير شيعه -- قرن ۱۴

رده بندى كنگره : BP۹۸/م۷ن۷ ۱۳۷۷

رده بندى ديويى : ۲۹۷/۱۷۹

شماره كتابشناسى ملى : م۷۷-۱۳۷۱۱

فلسفة بعثة الأنبياء عليهم السلام فى التصور القرآنى

اشارة

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۷

القرآن الكريم والهدف من إرسال الرسل عليهم السلام

تمهيد:

إنّ إرسال الرسل وإنزال الكتب، وبعبارة اخرى بعثة أنبياء اللّه عليهم السلام ونزول الكتب السماوية، لها علاقة مباشرة بالنظرة الكونية للقرآن الكريم.

حينما يقول القرآن الكريم: «وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونَ». (الذاريات/ ۵۶)

وقال تعالى: «يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ». (الانشقاق/ ۶)

إنّنا نستطيع أن نفهم أنّ الإنسان فى طريقه الطويل المملوء بالمخاطر والمحفوف بالمخاوف، والذى يهدف من خلاله الوصول إلى الكمال المطلق، يعنى السير للوصول إلى الذات الإلهيّة المقدّسة، فإنّه لا يستطيع أن يجتاز هذا الطريق دون الحاجة إلى القادة والموجهين الربانيين.

إنّ من مستلزمات تجاوز هذه المرحلة مرافقة الخضر، وما عدا ذلك تكون النتيجة الولوج فى الظلمات والابتلاء بالتيه والحيرة والظلالة.

ومن هنا يعتبر الأنبياء عليهم السلام قادة الامم والكتب السماوية بمثابة «القوانين»، التى تأخذ بيد الإنسان لتوصله إلى غايته وتخرجه من الظلمات إلى النور.

وبعبارة اخرى، لا يمكن تصوّر الحياة الاجتماعية للإنسان مجرّدة عن هداية عالم الغيب والذات المقدّسة، لا فى التقنين والتنفيذ، ولا فى مجال ضمان العدالة الاجتماعية، فالأنبياء عليهم السلام فى الواقع يمثّلون همزة الوصل بين عالمى الإنسانية والغيب.

بعد هذه الإشارة العابرة نعود إلى القرآن الكريم ولنتأمل خاشعين فى الآيات الواردة فى هذا المجال:

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۸

۱- «هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِى ضَلَالٍ مُبِينٍ» «۱». (الجمعة/ ۲)

۲- «رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ». (البقرة/ ۱۲۹)

۳- «كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ». (البقرة/ ۱۵۱)

۴- «لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ». (الحديد/ ۲۵)

۵- «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِىَّ الْأُمِّىَّ الَّذِى يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِى التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ... أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ». (الأعراف/ ۱۵۷)

۶- «كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ». «۲» (إبراهيم/ ۱)

۷- «وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ». «۳» (الأنعام/ ۴۸)

۸- «رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ». «۴» (النساء/ ۱۶۵)

۹- «كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ

---

(۱) قريب من هذا المعنى جاء فى سورة آل عمران، ۱۶۴.

(۲) قريب من هذا المعنى جاء أيضاً فى الحديد، ۵۷؛ والطلاق، ۱۱؛ وإبراهيم، ۵.

(۳) قريب من هذا المعنى بخصوص جميع الأنبياء عليهم السلام جاء فى البقرة، ۲۱۳ والأنعام، ۴۸ والكهف، ۵۶ وآيات اخرى.

(۴) قريب من هذا المعنى جاء فى طه، ۱۳۴؛ والقصص، ۴۷.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۹

بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ». (البقرة/ ۲۱۳)

۱۰- «هَذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ». (ابراهيم/ ۵۲)

۱۱- «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ». (الانفال/ ۲۴)

جمع الآيات و تفسيرها

أهداف وفلسفة بعثة الأنبياء:

۱ و ۲- التربية والتعليم

ورد فى هذه الآيات عشر غايات لبعثة الأنبياء عليهم السلام:

ففى الآيتين الاولى والثانية إشارة إلى هدفين رئيسيين من أهداف البعثة وفلسفة إرسال الرسل عليهم السلام، ألا وهما «التربية والتعليم».

يقول تعالى فى الآيـة الاولى «هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ»، ونظراً إلى كون التلاوة لآيات الحقّ تعالى بمثابة المقدّمـة بالنسبـة للتزكيـة وتعليم الكتـاب والحكمـة ومحو آثـار الضـلالة والشـرك، يضـيف تعـالى قائلًا: «وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِى ضَلَالٍ مُبِينٍ».

صحيـح أنّ الغايـة الرئيسـية من تلاوة الآيـات وتعليم الكتـاب والحكمـة هـو تزكيـة وتطهير الروح والبـدن والفرد والمجتمع، وأن تعلم الكتاب والحكمة له دور الطريقية، وبمثابة مقدّمة بالنسبة إلى التزكية، لكنّها مع ذلك تقدّمت عليهما نظراً لأهميّتها.

فى حين أنّنـا نجـد الآيـة الثانيـة من آيات بحثنا التى تتعرّض لـدعاء إبراهيم عليه السـلام فى حقّ الامّـة الإسـلامية، تقوم بتقـديم «تعليم الكتـاب والحكمـة» على «التزكيـة»، وتضع كلًا فى مكانه الطبيعى له، حيث تقول: «رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ

الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ».

أجل، هذا هو طلب إبراهيم عليه السلام من اللَّه تعالى للُامّة الإسلامية واتّباع محمّد صلى الله عليه و آله، حيث أبان الهدف من بعثة هذا النبى العظيم (وسائر الأنبياء) بكلّ وضوح.

إنّ التأمّل فى هاتين الآيتين يكشف عن نكات جديرة بالاعتبار:

أوّلًا: العبارة الواردة فى الآية الاولى دليل على معرفة اللَّه تعالى من جهة، وعلى النبوّة الخاصّة لنبى الإسلام صلى الله عليه و آله من جهة اخرى، حيث تؤكّـد الآيـة أنّ اللَّه تعالى هو الـذى بعث نبيّاً بهـذه الخصوصـيات وهذا لا يتمّ إلّاعن طريق القدرة الإلهيّة فقط: «هُوَ الَّذِى بَعَثَ ...».

وكـذلك تقول: إنّ النبى هو ذلـك الشـخص الـذى ظهر من بين جماعـة اميّين، لكنّه على الرغم من ذلـك فقـد أصـبح معلّماً للمئات والآلاف، وأفـاض على أتباعه العلم والحكمـة حتّى ظهر من بينهم بعـد فترة قصـيرة أكابر العلماء الـذين قاموا بتأسـيس حضارة عظيمة مشرقة.

ثانياً: دار الحديث فى كلتا الآيتين عن أربعة مواضيع وهى «تلاوة آيات اللَّه تعالى» و «تعليم الكتاب» و «تعليم الحكمة» وأخيراً «التزكية والتطهير والتربية».

إنّ الحالة الطبيعية لهذه المواضيع الأربعة، هى كما اشير إليها، بأنّه يجب ابتداءً أن يتعرف ويستأنس سمع الإنسان بكلمات الحقّ تعالى ليدرك بعد ذلك مضمون الكتاب من أعماق هذه الكلمات، ثمّ يتعرّف بعد ذلك على الحكمة أى الأسرار الكامنة فيها، وأخيراً يُطهر وينقى الروح والجسم.

هذا الترتيب الطبيعى يُلاحظ فى الآية المرتبطة بدعاء إبراهيم عليه السلام: لكن «التزكية» قد تقدّمت على «تعليم الكتاب والحكمة» كما جاء فى قوله تعالى «لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِى ضَلَالٍ مُبِينٍ». (الجمعة/ ۲) (آل عمران/ ۱۶۴)

وذلـك لكى تتبيّن هـذه الحقيقـة التى ترى أنّ الهـدف الرئيس من كـلّ هـذه المقـدّمات فى تلـك الآيـات هو الطهارة والتقوى وتربية الإنسان ونمو المثل والقيم الأخلاقية والإنسانية.

ثالثاً: نظراً لتقدّم «التزكية» على «التعليم» فى آيتين من القرآن الكريم وتأخّرها عنه فى

آية واحدة، يرد هذا السؤال وهو: أى منهما يكون الأصل حقيقة والآخر فرع؟

الجواب عن هذا السؤال ليس بتلك الصعوبة كما تقدّمت الإشارة إلى ذلك لأنّ «العلم» له حيثية الطريقية المقدّمية، والهدف الرئيسى هو تربية الإنسان وتزكية النفس وتكامل الروح، وبعبارة اخرى إنّ تلاوة آيات القرآن الكريم وتعليم العلم والحكمة كلّها تهدف إلى هذا الهدف الأسمى، وبناءً على ذلك تعدّ كلّ هذه مقدّمة بالنسبة للتزكية التى تعتبر ذى المقدّمة، وما السبب وراء ذكر «التزكية» قبل «تعليم الكتاب والحكمة» فى آيتين اخريين إلّاليان دورها الخطير هذا.

فضلًا عن ذلك، فإنّ كلّ واحد من هذين الأمرين يترك أثره على صاحبه، أى إنّ الإنسان لا يسعى وراء العلم ما لم تتحقّق مرحلة تزكية النفس، وما لم يتحقّق العلم فسوف لن تحصل المراحل العالية من التزكية، وبناءً على هذا ف «التعليم» و «التزكية» لهما أثران متقابلان، كما يحتمل أن يكون الغرض من تنوّع الآيات حول هذا الموضوع هو إلفات النظر إلى هذا الأمر.

وينبغى ألّا يخفى أنّ البعض من العلوم كالعلوم المرتبطة بالمعرفة بصورة عامّةٍ ومعرفة اللَّه تعالى ونظائرها لها حيثية ذاتية وعينية، أو بعبارة اخرى فهى مطلوبة بالذات، فى حين أنّ العلوم الاخرى ليس لها حيثية مقدمية، ولهذا يمكن أن يكون تنوّع الآيات الآنفة الذكر إشارة إلى هذه الملاحظة أيضاً.

رابعاً: حول الاختلاف المحتمل بين «الكتاب» و «الحكمة» يعتقد البعض بأنّ الكتاب إشارة إلى القرآن الكريم، والحكمة إلى الأحاديث والسنّة النبويّة الشريفة، أو أنّ «الكتاب» إشارة إلى مجموعة الأحكام والأوامر الإلهيّة و «الحكمة» إشارة إلى أسرار تلك الأحكام وفلسفتها، لأنّ الإحاطة بتلك الأسرار تزيد من عزم الإنسان على تنفيذها، كما أنّ هناك احتمالًا آخر وجيهاً أيضاً وهو إنّ ذكرهما معاً «الكتاب والحكمة» إشارة إلى مصدرى المعرفة الرئيسيين أى «الوحى» و «العقل».

خامساً: لفظة «الامّيين» على حدّ قول الكثير من المفسّرين، إشارة إلى اولئك الذين لا يعرفون القراءة والكتابة ويجهلون العلم والمعرفة على الإطلاق، أى كأنّما ظلّوا كما ولدتهم امّهاتهم بالضبط لم يتغيّروا قيد أنملة أبداً.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۲

وظهور النبى الأكرم صلى الله عليه و آله بين قوم كهؤلاء هو دليل على عظمته وصدق دعوته.

لكن البعض من المفسّرين اعتبر لفظة «الامّيين» إشارة إلى أهل مكّة التى كانت تسمّى ب «امّ القرى»، وربّما قيل: إنّ المراد من «الامّيين» هم العرب وذلك لجهلهم بالقراءة والكتابة أيضاً.

لكن المعنى الأوّل أكثر تناسباً من تلك المعانى.

سادساً: إنّ التعبير ب «ضلال مبين» هو أفضل تعبير يعكس حالة عرب الجاهلية، فهم كانوا فى ضلال، وأى ضلال، إنّه ضلال مبين ظاهر بجميع أبعاده، ألم يكن وأد البنات وعبادة الأوثان والتعصّبات القبلية المقيتة والحروب الدائمة والإفتخار بالإغارة على الآخرين وأمثالها ضلالًا مبيناً؟

والآية الثالثة تشير أيضاً إلى مسألة التربية والتعليم التى حصلت عند المسلمين على يدى نبى الإسلام صلى الله عليه و آله مع هذا الفارق وهو التأكيد بصورة خاصّة على العلوم والمعارف التى يستحيل كسبها بدون بعثة النبى صلى الله عليه و آله، حيث تقول: «كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ».

وتفسير هذه الآية كسابقاتها، مع فارق وجود جملة فى ذيلها تشير إلى أنّ نبى الإسلام صلى الله عليه و آله قد علّم الناس علوماً يستحيل الحصول عليها من دون الوحى، وهنا ينبغى ألّا يفوتنا التفاوت الواضح بين جملة «لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ» النافية لإمكانية التعلّم و «لَمْ تَعْلَمُوا» النافية للعلم.

قال فى «روح المعانى» بعد الإلتفات إلى الجملة الأخيرة التى تشير إلى العلوم التى لا يمكن اكتسابها إلّاعن طريق الوحى: على هذا فالجملة المشار إليها هى من قبيل ذكر الخاص بعد العام «۱».

(۱) تفسير روح المعانى، ج ۲، ص ۱۷.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۳

لكن المرحوم الشيخ الطوسى فى «التبيان» والشيخ الطبرسى فى «مجمع البيان» سبقاه فى التوجّه إلى هذه الملاحظة وأشارا إليها بعبارة مختصرة واضحة.

إنّ كتابنا السماوى القرآن الكريم يحتوى فى الحقيقة على قسمين من العلوم، فالقسم الأوّل هو من المعارف التى يمكن أن تكتسب عن طريق الاستدلال العقلى، وإن كان القرآن قد عرض هذا القسم بشكل أكمل وأكثر اطمئناناً من الاستدلال العقلى.

والقسم الآخر يستحيل اكتسابه بغير الوحى كما تقدّم، وهو الذى تمّ الاستناد إليه فى الجملة الأخيرة (كالكثير من الحقائق المرتبطة بعالم ما بعد الموت والقيامة)، أو التواريخ المعتبرة للأقوام والأنبياء عليهم السلام السابقين والتى ضاعت على مرّ الزمن، وكذلك العلوم والمعارف التى حجبت عن أنظار المفكّرين فى ذلك الزمان على أقلّ تقدير.

۳- إقامة القسط والعدل

تمّت الإشارة فى الآية الرابعة بشكل عامّ إلى أحد الأغراض الرئيسية من بعثة الأنبياء عليهم السلام ألا وهو إقامة العدالة الاجتماعية، وأنّ نزول الكتاب والميزان بمثابة المقدّمة لذلك، يقول تعالى: «لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ».

لقد اشير فى هذه الآية إلى ثلاثة امور باعتبارها مقدّمة لإقامة العدل، وهى «البيّنات» التى تعنى الأدلّة كما لا يخفى، والمشتملة على المعاجز والأدلّة العقليّة على أحقّية دعوة الأنبياء عليهم السلام وأخبار السابقين منهم، و «الكتاب» الذى يشير إلى الكتب السماوية التى تحتوى على بيان المعارف والعقائد والأحكام والأخلاق، و «الميزان» الذى يعنى القوانين المميّزة للخير من الشرّ والفضائل من الرذائل والحقّ من الباطل.

تمتّع أنبياء اللَّه عليهم السلام بهذه القوى الثلاث التى تمكّنهم من دفع البشريّة نحو إقرار العدالة، والملفت للنظر هنا هو عدم نسبة إقامة العدالة إلى الأنبياء، بل التصريح بأنّ المجتمعات

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۴

البشرية تنشأ على نوع من التربية يدفعها بالنتيجة إلى إقامة العدالة بنفسها! والمهمّ أيضاً هو ظهور هذه المسألة فى المجتمع بصورة إراديّة لا قهرية.

والتعبير ب «الميزان» عن القوانين الإلهيّة إنّما هو لدورها المهمّ فى المسائل الحقوقية المشابهة لدور الميزان فى بيان وزن كلّ شىء كما هو عليه، وإنهاء حالة الخلاف والنزاع القائمة، ونظراً لكون القوانين البشرية الوضعية صادرة من علم الإنسان الناقص فلا يمكن الإعتماد عليها ولا يمكنها أبداً تحقيق العدالة، بل ينحصر تحقّق هذا الأمر فى القوانين الإلهيّة النابعة من علم اللَّه تعالى اللانهائى الذى لا يخالطه الخطأ والإشتباه، ذلك العلم الذى تنسجم معه النفس المؤمنة وتركن إليه.

ويوجد أيضاً فريق لا يبالى بأىّ من هذه الامور، بل نراه يضع كلّ شىء تحت قدميه حفاظاً على مصالحه الشخصية، فلابدّ من مقاومة هؤلاء بقوّة السلاح، وما جملة «وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد» المتمّمة لهذه الآية إلّاإشارة إلى هذا الفريق الذى لا يعرف سوى لغة السيف.

ومع أنّ البعض قد ذهب إلى أنّ التعبير ب «أنزلنا» يعنى مجىء الحديد (الصخور الحديديّة) إلى كرتنا الأرضية من الكواكب الاخرى لكن تعبير أنزلنا يأتى أحياناً فى غير الحديد أيضاً فمثلًا فى أنواع الحيوانات كما ورد قوله تعالى «وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ

...». (الزمر/ ۶)

وجاءت أيضاً للألبسة التى تغطّى بدن الإنسان حيث قال تعالى «يَا بَنِى آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِى سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ». (الاعراف/ ۲۶)

تبيّن هذه الآية أنّ المراد منه هو الخلقة والإبداع الإلهى فى نفس الأرض، ونزول هذه الموهبة الإلهيّة من مقام الربوبية الشامخ إلى مقام الإنسان الدانى، يعبر عنها بأنزلنا وبعثنا.

كما يُشاهد هذا التعبير أيضاً فى المحاورات اليومية، فحينما تصدر أوامر أو تبعث هديّة من رئيس دولة مثلًا إلى مادونه يقال: إنّ هذه الأوامر أو الهديّة قد جاءت من المراتب العليا!

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۵

۴- حريّة الإنسان

واشير فى الآية الخامسة إلى بُعد آخر من أبعاد فلسفة بعثة الأنبياء عليهم السلام، ألا وهو نجاة الإنسان من مخالب الأسر والاستبداد، يقول تعالى: «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِى يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِى التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ».

إنّ القرآن الكريم يقيم عدّة أدلّة على أحقيّة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله بذكره لهذه الأوصاف:

الأوّل: كونه اميّاً، فهل يمكن عرض كتاب كهذا أو علوم كهذه من قبل شخص لم يحضر حلقات الدرس.

والثانى: هو شهادة الأنبياء عليهم السلام السابقين على حقانية نبوته.

والثالث: إنسجام تعليماته مع أوامر العقل والوجدان (إذ يستحيل إيجاد مذهب ورسالة لها مثل هذا الإنسجام مع حكم العقل والوجدان، والدعوة إلى الإحسان والنهى عن السيّئات والتوجّه نحو الفضائل وترك الرذائل فى محيط ملىء بالخرافات والجهل والجاهلية والفظاظة).

والدليل الرابع: بيان حريّة الإنسان والسعى لإنقاذه من مخالب الأسر فطالما كبّل الحكّام الماديّون الإنسان بالأغلال والقيود لتقوية مكانتهم، وأجازوا أنواع العذاب فى حقّه، بل قد سلبوا حرّيته باسم الحرية، ولم تكن هناك مدرسة تنادى بخلاص الإنسان من ظلم الطواغيت وتحريره سوى مدرسة الأنبياء عليهم السلام.

والجدير بالذكر هو أنّ كلمة «إصر» على وزن (مِصْر) التى تعنى عقد الشىء وحبسه وقهره على حدّ قول الراغب فى مفرداته وقد فسّرها البعض بالحبس المؤكّد أيضاً، ثمّ استعملت فى لوازم هذا المعنى «۱» (مثل العهد والميثاق وثقل الذنوب والحبل الذى تربط به الخيام وأمثال ذلك) وجاءت هنا كناية عن أنواع القيود التى تُثقل كاهل الإنسان.

---

(۱) مفردات الراغب؛ ومقاييس اللغة؛ والتحقيق فى كلمات القرآن الكريم.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۶

و «الأغلال» جمع «غل» وهى مشتقّة فى الأصل من مادّة «غَلَلْ» المأخوذة من النفوذ التدريجى للأشياء كنفوذ الماء الجارى وسط الأشجار، ونظراً لكون «الغل» هى تلك الحلقة التى تحيط بالرقبة أو بها مع اليد والرجل مجتمعة فقد سمّيت «غلًا» وأحياناً يطلق عليها «الجامعة» لنفس ذلك الغرض أيضاً.

وأكثر ما استعمل القرآن الكريم هذه المفردة للتعبير عن «طوق العنق» ولذا قالوا: هى الأغلال التى فى أعناق الكفّار.

على أيّة حال، فقد وردت هنا كناية عن أغلال الأسر، والغريب إنّ الكثير من المفسّرين قد اعتبر «الإصر» و «الأغلال» إشارة إلى التكاليف الشاقّة التى فرضها اللّه تعالى على اليهود، وإنّ نبى الإسلام صلى الله عليه و آله قد رفعها بشريعته السهلة السمحاء فى حين أنّه لا يوجد أى دليل على هذا التقييد والتخصيص، إذ إنّ للآية مفهوم أوسع حيث شملت كافة أنواع الاثقال المعنوية وقيود الأسر:

قيود عبادة الأوثان والخرافات والعادات والتقاليد الخاطئة.

قيود الجهل والضياع.

قيود أنواع التفرقة والحياة الطبقية.

قيود القوانين الخاطئة.

وقيود الأسر والاستبداد فى مخالب الطواغيت.

لقد أعاد نبى الإسلام صلى الله عليه و آله وسائر الأنبياء عليهم السلام الحرية الحقيقية إلى الإنسان وذلك برفعهم لهذه الأثقال وفكّهم لتلك القيود والأغلال عنه، فقد منحوه حريّة التفكير والتعبير عن الرأى والتأمّل والتحرّر من عبودية أهواء النفس، التحرّر من قبضة الحكّام الظالمين والتحرر من شباك الشياطين والطواغيت والتحرّر من سيطرة الخرافات والأوهام وعبادة غير اللّه تعالى.

ومن المسلّم أنّ عدم ارتياح الطواغيت لتحرّر الآخرين هو لرغبتهم فى تسخيرهم لتحقيق أغراضهم الشخصية، ولا زالت- فى عصرنا الحاضر الذى ينطلق فيه شعار حريّة

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۷

الإنسان فى أقصى نقاط المعمورة- تفرض على الإنسان تلك القيود والأغلال والأثقال المضنية التى تعود إلى العصر الجاهلى وبعناوين ومصطلحات جديدة، فالقوى العظمى تسعى دائماً وبصورة علنية للسيطرة على الشعوب واسترقاقها وتسخيرها مستخدمة كافّة الوسائل العسكرية أو الإعلامية أو بنشر ألوان ونهب ثرواتها الفساد الأخلاقى، وقد بلغ ظهور هذا الأمر اليوم حدّاً يستحيل إنكاره بل لا يكاد يخلو منه التاريخ المعاصر فى كافّة أرجاء المعمورة، وهى تسعى للقضاء على شعارات الحرية الجميلة.

أجل، فإنّ أحد الأهداف الرئيسية من بعثة الأنبياء عليهم السلام هو إنقاذ الإنسان وتخليصه من أسر وقيود العبودية المقيتة.

۵- النجاة من الظلمات

وذكر فى الآية السادسة الهدف وراء البعثة ونزول القرآن المجيد وهو إخراج الناس من الظلمات إلى النور، يقول تعالى: «كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِراطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ».

و «الظلمات» نظراً لورودها بصيغة الجمع فانّها تمثل مفهوماً واسعاً وشاملًا لكلّ أنواع الظلمات: ظلمة الشرك والظلم والجهل وهوى النفس، وأنواع الحجب التى تسدل على قلب الإنسان وكذلك الظلمات التى تخيّم على المجتمعات.

فالهدف من نزول الكتب السماوية هو إنقاذ الإنسان من كلّ هذه الظلمات والأخذ بيده نحو نور التوحيد والتقوى والعدل والإنصاف والاخوّة و ...

والملفت للنظر هنا مجىء «الظلمات» بصيغة الجمع و «النور» بصيغة المفرد، وذلك لأنّ طريق التوحيد والحقّ واحد لا يوجد طريق سواه، وهو ذلك الطريق المستقيم الذى يربط بين المبدأ والمعاد فهو يختلف عن طرق الضلال المتشعّبة، فنور الإيمان والتقوى هو أساس الوحدة والإتّحاد، أمّا ظلمات الشرك واتّباع الهوى والطغيان فهى السبب الأساس فى الاختلاف والحيرة والضياع.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۸

وحَصْرُ بعض المفسّرين «الظلمات» ب «الشرك»، و «النور» ب «التوحيد» فقط لا يستند إلى دليل، إذ ليس ما ذهبوا إليه إلّاأحد

المصاديق الواسعة للآية.

وبناءً على هذا فأحد أهداف البعثة هو نجاة الإنسان من الظلمات الفكرية والعقائدية والأخلاقية والعملية، وهدايته نحو النور والحياة الواقعية.

ويمكن أيضاً إيراد هذا الهدف فى أهداف التربية والتعليم وإقامة العدل والحرّية، أو العكس، ولكن نظراً لورود كلّ هدف على حدة فى القرآن الكريم، فقد راعينا عرضها بصورة مستقلّة أيضاً.

والنور والهداية لا يختصّان بالقرآن الكريم فحسب بل قد ورد تعبير «النور» فى حقّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أيضاً فى الآية «وَدَاعِياً إِلَى اللّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً». (الأحزاب/ ۴۶)

والتعبير ب «الناس» بحسب ما ذهب إليه تفسير الميزان، هو لبيان أنّ الهدف من بعثة نبى الإسلام صلى الله عليه و آله هو لهداية عامّة الناس (فى كلّ زمان ومكان ما دامت السماوات والأرضون) والتعبير ب «بإذن ربّهم» هو لبيان أنّ هداية الأنبياء عليهم السلام هى فى الواقع جزء من «ربوبية البارى جلّت قدرته» وفى مساره الذى يرتضيه هو، انسجام الربوبية فى عالم التشريع مع ربوبيته فى عالم التكوين.

۶- البشرى والإنذار

مع أنّ الترغيب بأنواع الهبات والمكافئات الماديّة والمعنوية الإلهيّة والترهيب والانذار من العقاب الشديد النفسى والبدنى هما الطريق إلى التربية والتعليم، والعامل المساعد للاخراج من الظلمات إلى النور، لكن نظراً لتركيز القرآن الكريم عليهما كثيراً يمكن اعتبارهما أحد أهداف بعثة الأنبياء عليهم السلام.

وفى الآية السابعة من آيات البحث تمّت الإشارة إلى هذا الأمر إذ قال تعالى: «وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ».

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۹

هذه الآية ونظائرها التى تعتبر «بشارة» و «إنذاراً» هى بمثابة برنامج رئيسى للأنبياء عليهم السلام، وتعدّ أيضاً ردّاً على اولئك الذين يعتبرون الأنبياء عليهم السلام آلهة ويرجون منهم إظهار كلّ أنواع القدرة الإلهيّة، وعلى اولئك الذين انكروا دعوتهم وخالفوهم فى مسيرتهم إذ يؤكّد اللّه تعالى أنّ وظيفة الأنبياء عليهم السلام هى البشرى والإنذار فقط، أمّا باقى الامور فهى موكولة إليه تعالى وأنّ الهداية مرتبطة بالناس أنفسهم كما فى الآية: «فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» «وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ» ففى الواقع يمكن حصر كلّ الدوافع الإنسانية فى هاتين الجملتين المعروفتين: «جلب المنفعة» و «دفع الضرر»، (الأعمّ من المادية والمعنوية)، وقد ركّزت «البشارة» و «الإنذار» عليهما، كما أنّهما بمثابة الأساس الذى تعتمد عليه كلّ تربية إلهيّة وبشرية مادية ومعنوية.

البشارة لا تكفى لوحدها وكذلك الإنذار، بل لابدّ من حاكميتهما معاً على حياة الإنسان وفى كلّ مراحل التربية منذ نعومة أظفاره حتّى الرمق الأخير، والذى يلتزم بإحداهما دون الاخرى سيفشل فى برامجه، إذ كما أنّ التشويق يعدّ عاملًا محرّكاً، فكذلك التهديد يعدّ رادعاً قويّاً بالنسبة للمعاندين.

۷- إتمام الحجّة

من الطبيعى إنّ فريقاً من الأنانيين والمتغطرسين المعاندين الذين يرون دعوة الأنبياء عليهم السلام مخالفة لأغراضهم الشخصيّة يمتنعون عن قبولها ويقفون منها موقفاً سلبياً، ولو أنّ اللّه سبحانه وتعالى لم يبعث نبياً فمن الممكن أن يدعى هؤلاء ادّعاءات وحجج واهية، من

بينها، أنّ اللَّه سبحانه وتعالى لو بعث نبياً لاستقبلناه بصدور رحبة ولآمنا برسالته وبما يقول، إلى غير ذلك من الادعاءات الكاذبة.

وعلى هذا الأساس فإنّ أحد أهداف بعثة الأنبياء هو إلقاء الحجة على هذه المجموعة على كافة المعاندين، وأنّ إلقاء الحجّة هذا، يمثل أولًا: العدل الإلهى بالشكل الواضح والدقيق.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۰

وثانياً: يقطع على أهل الكذب الطريق ويحول دون تقديمهم الحجج والادّعاءات الجوفاء، أو بتعبير علمى أدقّ فإنّ مسألة استحقاق الجزاء بالنسبة لهذه المجموعة تخرج من إطار «الاستعداد والقوة» إلى حَيّز «الفعلية».

ولذا قال تعالى: «رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ»، كما ورد نظير هذا المعنى فى آيتين أخريين يتّحد مضمونهما فى قوله تعالى:

«وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى . (طه/ ۱۳۴)

وورد قريب من هذا المعنى فى قوله تعالى: «وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ». (القصص/ ۴۷)

۸- رفع الاختلاف

المجتمعات البشرية كانت ولا تزال تعانى الأمرّين من الاختلاف وتحترق بناره، وتضيّع المزيد من القدرات والإمكانات الهائلة بسببه، تلك الإمكانات التى لو وضعت فى مكانها المناسب لغدت الدنيا جنّة الفردوس.

ومن جهة اخرى فإنّه من المُسلّم أنّ الناس لا يستطيعون تسوية الاختلافات التى تقع بينهم، وذلك بسبب قصور ومحدودية علمهم بكل جوانب الحياة، بالإضافة إلى الأنانية والتكبر الذى يمنعهم من الاذعان والركون إلى بعضهم البعض.

أمّا الأنبياء عليهم السلام الذين ينبع علمهم من بحر علم اللَّه تعالى اللامتناهى والذى لا يُقارَن بمستوى علم البشر، فإنّهم يتمكّنون من أداء دور فعّال فى حلّ تلك الاختلافات وإزالتها.

صحيح أنّ عالم المادّيات هو عالم الحجب، إذ لا يمكن رفع الاختلافات كليّاً بين الناس بأىّ طريقة، ولكنّه من المؤكّد إمكان إزالتها نسبيّاً فى ظلّ تعاليم الأنبياء عليهم السلام.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۱

ولذا أشارت الآية التاسعة من البحث إلى هذا الهدف، قال تعالى: «كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ».

و «الامّة»: فى الأصل على ما ذهب إليه الراغب فى مفرداته تطلق على كلّ جماعة يجمعهم أمرٌ ما، إمّا أن يكون دين واحد أو زمان واحد أو مكان واحد، سواء كان ذلك الأمر الجامع قسريّاً أو اختياريّاً، وجمعها امم.

لكنّ هذه اللفظة وردت بمعنى العقيدة أيضاً: «بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ* وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ». (الزخرف/ ۲۲- ۲۳)

وأحياناً جاءت بمعنى نفس الزمان قوله تعالى «وَقَالَ الَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ». (يوسف/ ۴۵)

وكذلك قوله تعالى «وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ». (هود/ ۸)

وفى الآية مورد البحث يبدو أنّ «الامّة» جاءت بمعنى الجماعة الواحدة.

لكن ما هى هذه الامّة الواحدة التى عاشت فى بداية الخلقة يا ترى؟ وما هى عقيدتها؟ يوجد بين المفسّرين حديث طويل وعريض حول هذا الموضوع، ولهم احتمالات عديدة فى تفسير لفظ «الامّة» ومصيرها، وأهمّها ثلاثة احتمالات:

الأوّل: أنّها كانت امّة مهتدية، وكانت هدايتها نابعة من الفطرة الإلهيّة المودعة لديها، ثمّ اختلفت ذلك الاختلاف الناشىء من علمها المحدود، وذلك لعجز أحكام الفطرة والمستقلات العقلية عن الأخذ بزمام الامور لوحدها، ومن هنا بعث اللَّه تعالى الأنبياء عليهم السلام إلى البشرية لتخليصها من مشكلة الاختلافات الناشئة من الجهل ومحدودية معرفتها.

فبعث اللَّه الأنبياء عليهم السلام ووضعوا حدّاً لهذه الاختلافات وبيّنوا الحقائق، لكنّه ظهر بعد ذلك اختلاف آخر نشأ من البخل والظلم والفساد، وهنا أيضاً شملت الألطاف الإلهيّة

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۲

المؤمنين المخلصين، فسلكوا الطريق إلى الحقّ مهتدين بنور إيمانهم وتقواهم إلى أن بلغوا الصراط المستقيم، بينما بقى الآخرون غارقين فى ظلمات الاختلاف.

وطبقاً لهذا التفسير، فالامّة الواحدة التى ظهرت أوّلًا كانت على الحقّ، لكنّ محدودية إدراك العقل البشرى كانت سبباً فى الاختلافات، ثمّ أعلن الأنبياء عليهم السلام عن خاتمة هذه الاختلافات عن طريق الوحى المعصوم من الخطأ، لكنّ هوى النفس والميول والتكبر والعجب كان السبب وراء بروز اختلافات جديدة، ولم ينج من هذه الاختلافات سوى المؤمنين الصالحين.

والدليل على هذا التفسير هو مضمون الآية التى تذكر نوعين من الاختلاف فى الامّة، الاختلاف الذى كان السبب فى بعثة الأنبياء عليهم السلام وذلك لرفعه، والاختلاف الذى ظهر بعد نزول الكتب السماوية والبيّنات، أمّا إصرار بعض المفسّرين على كون هذه الامّة الواحدة ضالّة منحرفة بمجموعها منذ البداية، لا ينسجم مع لحن الآية وفطرةِ الإنسان التوحيدية التى يصرّح بها القرآن (خصوصاً تلك الفطرة الملموسة عند الناس السذّج فى أوّل الخلقة الذين لم تكن الميول والرغبات النفسانية قد هيمنت عليهم بشكل خطير بعد).

أمّا فيما يتعلّق بالعصر الذى استوعب المجتمع البشرى الأوّل الذى عبّر عنه القرآن ب «الامّة الواحدة»، فقد ذهب البعض إلى أنّه إشارة إلى الفترة ما قبل بعثة نوح عليه السلام وبعد هبوط آدم عليه السلام وبناءً على هذا ف «الامّة الواحدة» هى نفس تلك الامّه التى ظهرت منذ زمن تناسل ذرّية آدم عليه السلام، والتى كان الإيمان والتوحيد حاكمين عليها إلى أن اتّسعت فيها آثار الشرك يوماً بعد آخر، بسبب الجهل وقلّة المعرفة، ممّا هيّأ الأرضية المناسبة لرسالة نوح عليه السلام.

ومن الطبيعى أنّ استثناءً من قبيل وجود «قابيل» بين أولاد آدم عليه السلام لا يحول دون إطلاق كلمة «الامّة الواحدة» على مجموعة أولاده، وهناك احتمالات اخرى حول هذا الموضوع لا تفى بالغرض بحسب الظاهر.

على أيّة حال يستفاد من مجموع ما جاء حول تفسير الآية أعلاه أنّ أحد أهداف بعثة الأنبياء عليهم السلام هو رفع الاختلافات الناشئة من جهل الناس، ولا يخفى أيضاً أنّ الاختلافات

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۳

الناشئة من هوى النفس والعجب والتكبّر ستبقى ما بقى الإنسان بالرغم من أنّ الأنبياء عليهم السلام قد خففوا من نسبتها بتعليماتهم القيّمة.

۹- التذكير (بالنسبة للبديهيات والمستقلات العقليّة)

تمّت الإشارة فى نفس هذه الآية إلى أنّ أحكام الأنبياء عليهم السلام وتعليماتهم تؤيّد أحكام العقل وتدعمها، وهذه بنفسها أحد أهداف بعثتهم.

وتوضيح ذلك: إنّ الإنسان يدرك الكثير من «حقائق» الكون وكذلك «ما ينبغى» و «ما لا ينبغى» بواسطة عقله، لكنّ هناك وساوس مزمنة كامنة فى هذه الإدراكات العقلية، خصوصاً إشكالات السوفسطائيين أو الطوائف المنكرة للحسن والقبح العقليين وأمثالها التى تؤدّى إلى إضعاف العقل وبالتالى النظر إلى هذه الإدراكات والمستقلّات العقلية نظرة سلبية.

وهنا يستوجب اللطف الإلهى إرسال الأنبياء عليهم السلام ليؤكّدوا ضمن دعوتهم إلى اللّه تعالى صحّة الإدراكات العقليّة وعلى أنّ الفتن الواقعية إنّما هى من فعل العقل البشرى، وذلك من خلال بياناتهم الصادرة من الوحى السماوى، ويقطعوا الطريق أمام الوساوس التى تعترض هذه الإدراكات.

هذا هو الذى عبّر عنه القرآن ب «التذكّر»، يقول تعالى فى الآية مورد البحث: «هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ» والتعبير ب «الذكر» كثير جدّاً فى القرآن، ومجموع ما ذكر إثنتان وخمسون مرّة فى مختلف الآيات والتى تشير أغلبها إلى القرآن الكريم.

أمّا التعبير ب «ذكّر» (مخاطبة النبى بصيغة الأمر) فقد جاء فى ستّة موارد، وتعبير «يتذكّر» فى ثمانية موارد، و «تذكّرون» فى سبعة عشر مورداً، و «يتذكّرون» فى سبعة موارد، وما أكثر مشتقّات هذه المادّة فى القرآن الكريم والتى تبيّن بمجموعها أنّ قسماً عظيماً من تعليمات الأنبياء عليهم السلام لها صبغة تذكّرية وإعادة المنسيّات إلى الأذهان على أقلّ تقدير.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۴

يستفاد من كلمات بعض أرباب اللغة أنّ «الذكر» لا يعنى العلم والمعرفة، بل يعنى «إعادة الإطّلاع على الشىء»، يقول الراغب فى مفرداته بعد مقارنته بين «الذكر» و «الحفظ»: «التفاوت بينهما هو أنّ الحفظ يقال اعتباراً بالإحراز، والذكر يقال اعتباراً بالإستحضار»، ثمّ يضيف قائلًا: الذكر ضربان: ذكر عن نسيان وذكر لا عن نسيان بل عن إدامة الحفظ.

وهذا التعبير يبيّن أنّ الذكر هو فى كلّ الأحوال نوع من الإلتفات المستأنف للشىء الذى كان ساكناً فى الذهن سابقاً، سواء كان بعد النسيان أم لا، وقد ورد «الذِكر» بمعنيين أيضاً فى «مقاييس اللغة»: الأوّل إشارة إلى الجنس المذكّر فى قبال الجنس المؤنث، والثانى ما يقابل النسيان.

إنّ هذه التعابير القرآنية يمكنها أن تكون إشارة إلى ما ذكر أعلاه، وهو أنّ الإنسان يدرك سلسلة من الحقائق عن طريق العقل، كما ويحصل على القسم الأعظم من (ما ينبغى) و (ما لا ينبغى) الذى يعدّ من المستقلّات العقلية كحسن أنواع الإحسان وقبح أنواع الظلم والفساد، لكنّ الشكّ والترديد يراود هذه البديهيات أحياناً بسبب وساوس الشياطين.

وهنا يأتى دور الأنبياء عليهم السلام لمساعدة الناس وتأييد هذه الإدراكات العقلية، إذ يبطلون مفعول هذه الوساوس، أو بعبارة اخرى يعيدون هذه الامور إلى الأذهان.

بعض الفلاسفة كأفلاطون وأتباعه يعتبرون العلوم الإنسانية ضرباً من الذكريات، ويعتقدون بأنّ الروح الإنسانية قبل نزولها إلى هذا العالم كانت تدرك كلّ هذه الحقائق ولكن حجب عالم المادّة تسبّبت فى نسيانها (۱) وبناءً على هذا فالتعلّم والتعليم سواء أكان عن طريق الأنبياء والرسل عليهم السلام أم عن طريق التجربة وشرح الاستاذ لا تخرج عن كونها ضرباً من التذكّر والتذكير ليس إلّا.

ومن البديهى عدم وجود دليل واضح يدعم هذا الإدّعاء بهذه السعة، بل الصحيح هو ما تقدّم أعلاه من أنّ قسماً من معلومات الإنسان تحصل عن طريق الفطرة أو العقل، وأحياناً

---

(۱) لمزيد من الإطّلاع راجع «سير حكمت در اروپا» ج ۱ ص ۲۳، مبحث فلسفة أفلاطون (بالفارسية).

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۵

تودع فى زاوية النسيان والإهمال، أو تجد الوساوس طريقها إليها، فمهمة الأنبياء عليهم السلام حينئذ بالإضافة إلى تعليم الناس مسائل

جديدة، من شأنها تقوية بنية مثل هذه الأحكام الواقعية و تنقيتها من الوساوس التى تخالطها.

كما يستفاد من الآية الآنفة الذكر أنّ دور الأنبياء عليهم السلام يكمن فى أربعة أمور، الأوّل: إبلاغ الدعوة الإلهيّة للبشرية جمعاء، والثانى: إتمام الحجّة، والثالث: الإنذار (والتبشير)، وأخيراً التعليم والتذكير وقد تمّت الإشارة إليها فى الآيات السابقة أيضاً.

۱۰- الدعوة إلى الحياة الإنسانية الطيبة

لقد أشارت الآية الحادية عشرة من آيات بحثنا هذا إلى نقطة اتفقت عليها الاهداف التى سبقت الاشارة إليها من بعثة الأنبياء، وهى أنّ الأنبياء عليهم السلام دعوا أفراد البشر لكى يحيون حياة طيبة حقيقية وشاملة لكل متطلبات العيش.

قال تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ».

وهذا التعبير هو أقصر وفى نفس الوقت أشمل تعبير ورد بحقّ دعوة نبى الإسلام صلى الله عليه و آله (ودعوة كافّة الأنبياء عليهم السلام) والذى يؤكّد على أنّ هدف البعثة هو الحياة فى كافّة أبعادها:

الماديّة والمعنوية والثقافية والاقتصادية والسياسيّة والأخلاقية والاجتماعية.

مع أنّ الحياة فى آيات القرآن قد وردت بمعنى الحياة النباتية فى قوله تعالى «اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ». (الحديد/ ۱۷)

وأحياناً الحياة الحيوانية فى قوله تعالى «وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِى أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ». (فصلت/ ۳۹)

لكنّها وردت هنا بمعنى الحياة الإنسانية، قال تعالى (فى بعض المؤمنين الذين آمنوا):

«أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ ...». (الأنعام/ ۱۲۲)

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۶

وبناءً على هذا فلو رأينا البعض يعتبر الآية المعنية ناظرة إلى «الجهاد» لوحده باعتباره العامل الاساسى فى حياة الامم، أو «الإيمان باللَّه» أو العلم والمعرفة أو الحياة الاخروية، فهم فى الواقع إنّما يحدّدونها فى بعض مصاديقها فحسب، وإلّا فمفهومها أوسع وأشمل من هذه كلّها.

والملفت للنظر أنّ الحياة فى هذه الآية قد فسّرت فى الروايات «۱» بمعنى ولاية على بن أبى طالب عليه السلام، وهى فى الحقيقة أحد مصاديقها الهامّة وذلك لأنّ ولايته عليه السلام هى السبب للدعوة إلى الإسلام فى كافّة المجالات، فولايته دعوة إلى العلم والزهد والتقوى والإيثار والإخلاص.

ثمرة البحث:

بالإمكان إدغام واختصار الأهداف العشرة من بعثة الأنبياء والمذكورة سابقاً فى ستة اهداف، وهى: «التعليم، تهذيب النفوس، اقامة القسط والعدل، الحرية، اقامة الحجة ورفع الاختلافات»، ولكن بالنظر لأهميّة الموضوع فإنّ القرآن الكريم تناول كل واحدة منها على حدة، ونتيجة لذلك فإنّه يبدو واضحاً أنّه لولا الأنبياء واديانهم السماوية والتعاليم المقدسة التى جاءوا بها، ومنذ اليوم الأول لنشأة المجتمع الانسانى، فأى مصير مظلم سوف ينتظر الانسانية؟

و فى عصرنا الحاضر، أىّ عالم رهيب ومخوف سوف يصبح فيه عالم اليوم لو تنكر الانسان لتعاليم الأنبياء والتزم بالقيم الجوفاء البعيدة عن الرحمة والنورانية وجعلها بديلًا للقيم الإلهيّة التى جاء بها الأنبياء فى دعواتهم وتعاليمهم، وكما هو متعارف اليوم فى بعض دول

العالم؟!

کما یمکن الإستنتاج من الشرح أعلاه أنّ الدین والمذهب علی خلاف ما یراه الکثیر من

---

(۱) تفسیر نور الثقلین، ج ۲، ص ۱۴۱، ح ۵۰ و ۵۲.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۷

البسطاء وذوی النظر الضیق، أنّه لم یعد مسألة شخصیة خاصّة، بل حقیقة لها وجودها ودورها الفاعل فی کافّة أبعاد حیاة الإنسان، وأنّها تضیف علی کافّة شؤون الحیاة صبغة إلهیّة وإنسانیّة.

إنّ الشعار الذی ترفعه الیوم کلّ القوی العظمی فی العالم أی الدول التی یصطلح علیها بالمتطوّرة، هو الحفاظ علی منافعها الخاصّة، فکل خطوة تخطوها تعلن بکلّ صراحة أنّها إنّما تخطوها لأجل المنافع المادیّة للدولة، ولیس من الغریب أن یکون عالم کهذا بؤرة للأزمات ومرکزاً للصراعات وأنواع الظلم والإعتداء، ونقض العهود والإستعمار واستغلال المستضعفین، وذلک لأنّ هدفهم الرئیسی هو حفظ المصالح الشخصیّة والوطنیة لا حفظ المثل والقیم کالعدالة الاجتماعیة وإقامة القسط والحرّیة والأخلاق الإنسانیة، إذ إنّ مثل هذه القیم لا توجد إلّابمعیّة دعوة الأنبیاء علیهم السلام ولا غیر.

توضیحات

۱- فلسفة بعثة الأنبیاء والرسل فی الروایات الإسلامیة

ما تقدّم فی الآیات المذکورة حول اهداف بعثة الأنبیاء علیهم السلام وعللها، قد تمّ ذکره فی الروایات الإسلامیة أیضاً وبتعابیر اخری لا تخلو بنفسها من فائدة قصوی، وکنموذج علی ذلک یمکن التأمّل فی البعض من الروایات أدناه والتی تنظر کلّ واحدة منها إلی هدف واحد أو أکثر:

۱- ورد فی الحدیث: عندما أعلن النبی الأکرم صلی الله علیه و آله عن دعوته، جاء أشراف قریش إلی أبی طالب وقالوا له: یاأبا طالب، إنّ ابن أخیک یتّهمنا بالسفه ویطعن فی آلهتنا ویفسد شبابنا ویحدث التفرقة بیننا لو کان یبغی مالًا لجعلناه أغنی رجال قریش أو جاهاً لأمّرناه علینا! فذهب أبو طالب إلی النبی الأکرم صلی الله علیه و آله وأخبره بذلک، فقال صلی الله علیه و آله: «لو وضعوا الشمس فی یمینی، والقمر فی یساری ما أردته، ولکن کلمة یعطونیها یملکون بها العرب

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۸

وتدین بها العجم ویکونون ملوکاً فی الجنّة.

فقال لهم أبو طالب ذلک، فقالوا: نعم، وعشر کلمات، فقال لهم رسول اللَّه: تشهدون أن لا إله إلّااللَّه وأنّی رسول اللَّه» «۱».

هذا الحدیث یکشف بکلّ وضوح أنّ قبول دعوة الأنبیاء علیهم السلام یعدّ فی الحقیقة نصراً فی الدارین وعزّاً وحرّیة وحیاة راضیة مرضیّة.

۲- وفی حدیث آخر عن هشام بن الحکم عن الإمام الصادق علیه السلام روی أنّه علیه السلام وفی معرض الردّ علی سؤال أحد الکفّار والزنادقة حول الغرض من بعثة الأنبیاء علیهم السلام قال: «إنّا لمّا أثبتنا أنّ لنا خالقاً صانعاً متعالیاً عنّا وعن جمیع ما خلق، وکان ذلک الصانع حکیماً متعالیاً لم یجز أن یشاهده خلقه، ولا یلامسوه، فیباشرهم ویباشروه، ویحاجّهم ویحاجّوه ثبت أنّ له سفراء فی خلقه یعبّرون عنه إلی خلقه وعباده ویدلّونهم علی مصالحهم ومنافعهم وما به بقاؤهم وفی ترکه فناؤهم» «۲».

۳- ورد فی نهج البلاغة بیان جذّاب لأمیرالمؤمنین علیه السلام حول فلسفة بعثة الأنبیاء علیهم السلام حیث یقول: «فبعث فیهم رسله،

وواتر إليهم أنبياءه، ليستأدوهم ميثاق فطرته، ويذكروهم منسىّ نعمته ويحتجّوا عليهم بالتبليغ، ويثيروا لهم دفائن العقول» «۳».

۴- وفى حديث آخر جاء عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال: «إنّما بعثت لُاتمّم صالح الأخلاق» «۴»، وقريب من هذا المعنى ورد فى حديث آخر عنه صلى الله عليه و آله أنّه قال: «بعثت لُاتمّم مكارم الأخلاق» «۵».

۵- جاء عن الإمام على عليه السلام فى كتاب فروع الكافى أنّه خطب ذات مرّة فقال فيما قال: «أمّا بعد فإنّ اللَّه تبارك وتعالى بعث محمّداً صلى الله عليه و آله بالحقّ ليخرج عباده من عبادة عباده

---

(۱) تفسير نور الثقلين، ج ۴، ص، ۴۴۲، ح ۷؛ وفى ترجمة على بن إبراهيم ج ۲ ص ۲۲۸.

(۲) اصول الكافى، ج ۱ ص ۱۶۸، كتاب الحجّة باب الاضطرار إلى حجّة، ح ۱.

(۳) نهج البلاغة، الخطبة ۱.

(۴) طبقات ابن سعد، ج ۱، ص ۱۹۲ (ط. بيروت).

(۵) كنز العمّال، ج ۱۱، ص ۴۲۰، ح ۳۱۹۶۹.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۹

إلى عبادته ومن عهود عباده إلى عهوده، ومن طاعة عباده إلى طاعته، ومن ولاية عباده إلى ولايته، بشيراً ونذيراً وداعياً إلى اللَّه بإذنه وسراجاً منيراً» «۱».

۲- الغاية من إرسال الرسل فى التصور العقلى

أ) عجز الإنسان عن التقنين الدقيق

هناك علاقة وثيقة وواضحة جدّاً بين بعثة الأنبياء عليهم السلام والهدف من خلق الإنسان، ولا يمكن لأحد الجمع بين الإيمان باللَّه وبين إنكار حكمته فى كلّ الكون، خصوصاً خلقة الإنسان، بناءً على هذا فلابدّ من وجود هدف وراء خلق الإنسان، وليس هذا الهدف سوى تربية مخلوق كامل يشعّ منه نور من صفات جمال الحقّ وجلاله، ويليق بنيل القرب الإلهى.

ومن البديهى أنّ تربية موجود كهذا بدون تخطيط دقيق ومسبق فى كافّة أبعاد الحياة غير ممكن، هذا من جهة، ومن جهة اخرى فهذه البرامج ليست بتلك السهولة التى يمكن للإنسان الإحاطة بجميع أبعادها مستعيناً بعقله الناقص ولعدم تمكّن الجميع من التعامل مع الوحى الإلهى بصورة مباشرة.

ويُفهم من هذه المقدّمات التى اشير إلى كلّ منها بصورة مختصرة، بداهة أن يختار اللَّه تعالى نوّاباً من قبله ليحملوا مشعل الهداية الإلهيّة إلى المجتمع البشرى ليخرجوه من الظلمات إلى النور، ومن النقص إلى الكمال، ومن الجهل إلى العلم، ومن الإنحراف إلى التقوى ومكارم الأخلاق، ولا يخفى أنّ عدم تحقّق بعثة الأنبياء يؤدّى إلى عبثية خلق الإنسان وانتفاء الغاية والهدف.

وحيث إنّ الإنسان مدنى بالطبع يستأنس بالحياة الاجتماعية، فقد أودع اللَّه تعالى حبّ مثل هذه الحياة فى باطنه ليقوده عن طريقها نحو الهدف الأسمى، إذ إنّ محدودية القوّة البدنية والفكرية للإنسان المنزوى لا يمكن إنكارها، فلو عاش لوحده بعيداً عن أفراد نوعه لما وجدت هناك حضارة ولا اختراع واكتشاف ولا علوم ومعارف، إذ إنّ اجتماع

---

(۱) فروع الكافى، ج ۸ ص ۳۸۶، ح ۵۸۶.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۳۰

وتلاقح عقول وأفكار وتجارب بنى الإنسان هى السبب وراء ظهور قوّة عظيمة وتوفير الأرضيّة المناسبة للحركة التكاملية فى تمام الجوانب الماديّة والمعنوية وبسرعة خاطفة.

فلو عاش الإنسان على انفراد لبقى لحدّ الآن فى العصر الحجرى، ولما تعلّم القراءة والكتابة على أكبر الظنّ، فضلًا عن كلّ هذه العلوم والإختراعات والإكتشافات، وخلاصة القول هى أنّ أكبر إنجازين للإنسان هما حريّة التفكير، والتمتّع بالإبتكار والابداع والاختراع، فضلًا عن الرغبة فى حياة اجتماعية فى المرحلة المتقدّمة.

لكنّ من الواضح جدّاً أنّ الحياة الجماعية مع كلّ ما تحمله من بركات هى السبب من جهة اخرى وراء خلق المشاكل والمصادمات والازمات وتعارض الأهواء الشخصية، وإنّ طىّ المسير التكاملى إنّما يتسنّى لذلك المجتمع الذى تشخّص فيه واجبات كلّ فرد وحقوقه، ومن هنا تظهر الحاجة إلى سنّ القوانين الاجتماعية وتنظيم حقوق أفراد المجتمع، فالقانون هو الذى يعيّن واجبات كلّ فرد بالضبط كما يعيّن حقوقه، وأخيراً يقدّم خطّة القضاء على المشاكل وحلّ الخصومات ويبيّن كيفيّة مواجهة التخلّفات والانحرافات.

وبناءً على هذا فالحياة الجماعية بدون القانون السليم والنظام الصحيح هى أسوأ من الحياة الفردية بعدّة مراتب، وذلك لزوال منافع المجتمع وبسبب التناقضات.

ولبّ الكلام يكمن فى السؤال عن الطرف الذى يسنّ هذه القوانين، فهل هو الإنسان أم الخالق؟

ويمكن الإجابة عن هذا السؤال بتحليل مختصر: وهو أنّ المقنن الكامل يجب أن يتمتّع بالشروط أدناه ليتمكّن من سنّ أفضل قانون:

۱- يجب قبل كلّ شىء أن يكون المقنّن خبيراً بالإنسان عالماً بكلّ أسرار جسمه ونفسه وعواطفه وغرائزه وميوله وأهوائه وأمانيه وفطرته وإدراكاته العقليّة، وكذلك محيطاً بكلّ الاصول الحاكمة على الروابط التى تجمع الناس مع بعضهم البعض ليتمكّن على ضوئها من وضع قوانين تنسجم معها.

۲- يجب أن يكون له علم تامّ بالماضى والمستقبل البعيدين، ليقف على جذور مسائل

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۳۱

اليوم المعقّدة من خلال الماضى، ويتمكّن من تقييم آثار قوانين اليوم على مستقبل الحياة البشرية، نظراً لاستحالة إمكانية حلّ مشاكل اليوم مع الجهل بجذورها الماضية، كما هو الحال تماماً فى استحالة فائدة قوانين اليوم مع عدم الأخذ بنظر الإعتبار مضاعفاتها فى الغد (تأمّل جيّداً).

۳- المقنّن المناسب يجب أن يتمتّع ب «علم كامل» ليتمكّن عن طريق قوانينه من إخراج كلّ القابليات والإمكانات والاستعدادات الكامنة فى داخل أفراد المجتمع إلى حيّز الوجود، ويُضفى الفعلية على ما هو كامن فى طبيعة الإنسان بالإمكان والقوّة، ويغذّى المجتمع بأكبر قدر ممكن من الإنجازات وبأقلّ ثمن يكلّف طبيعة الحياة الجماعية.

۴- يجب أن تكون القوانين ذات جنبة واقعية لا خيالية، وتتمتع بضمان تنفيذها بشكل وافٍ من قبل مؤيّديها، وبعيدة عن التعقيد ليسهل على الجميع إدراكها.

۵- المقنّن الحقيقى هو الذى لا يرتكب ذنباً وخطأً وسهواً، فضلًا عن ضرورة كونه رحيماً باولئك الذين تُسنّ لهم القوانين، وحازماً قوى الإرادة وشجاعاً فى نفس الوقت.

۶- المقنّن اللائق من ليست له مصلحة شخصية فى ذلك المجتمع، لأنّها إنّما تشغل فكر المقنّن وتجلبه نحوها، إذ إنّه لو تمكّن على سبيل المثال من اجتناب آثارها الظاهرة للعيان لعجز عن الوقوف على آثارها المخفية بالتأكيد، وإنّ أكبر معضلة لعالم اليوم، والتى تسبّبت فى خلق المواجهات والمشاحنات الدامية هى هذه القوانين التى تسنّ من قبل ما يصطلح عليهم بمفكّرى كلّ مجتمع على حده، إذ كلّ واحد منهم لا يأخذ بنظر الاعتبار سوى منافعه الشخصية أو منافع أتباعه ووطنه، وبديهى أنّ مثل هذا التكبر والأنانية وضيق النظر

لا يحمل معه سوى زيادة فى حدّة الصراعات والمواجهات.

وهل تتوفّر ياترى هذه الحيثيّات الستّ المتقدّمة فى غير ذات البارى جلّت قدرته؟

الذى لا نهاية لعلمه بالماضى والمستقبل المحيط بجذور وأسرار كلّ شىء وكلّ موضوع ونتائجه والذى لا يجد الخطأ والسهو والإشتباه طريقاً إلى ذاته المقدّسة.

وأخيراً هو الذى لا يحتاج لشىء ولا لأحد لضمان منافعه.

نفحات القرآن، ج٧، ص: ٣٢

ومن هنا نستدلّ على نقص وعدم جدوى كلّ قانون غير قانون اللَّه تعالى، بل كلّ حكم دون حكمه تعالى زائل لا محالة ولا يمكن الاعتماد عليه، وحينما ندقّق النظر القويم نجد أنّ كلّ مشاكل الإنسان ومعضلاته نابعة من رغبته فى سنّ قانون لنفسه اعتماداً على علمه المحدود، وبدوافع هوى النفس! وهذا هو أحد الأدلّة العقليّة على لزوم بعثة الأنبياء عليهم السلام.

ب) التنسيق بين التكوين والتشريع

يمكن توضيح مسألة ضرورة بعثة الأنبياء عليهم السلام عن طريق منطق وبيان آخر وهو أنّ إلقاء نظرة واحدة على عالم الخلقة كافية لإدراك حقيقة أنّ خالق الكون ومن أجل إيصال كلّ موجود إلى كماله النسبى، قد وضع تحت تصرّفه كلّ ما يحتاجه وأزال عن طريقه كلّ الموانع، ولم يقتصر على اللوازم الضرورية لطى هذا الطريق، وإنّما منحه ما يحتمل كونه عاملًا مساعداً لبلوغ هذا الهدف وإن لم يكن ضرورياً، فالطائر الذى خلق ليطير مثلًا، نراه يتمتّع بهيكل يسهّل عمليه طيرانه من كافّة الجهات فضلًا عن أجنحته القويّة التى تكسبه قدرة عظيمة على التحليق عالياً.

وعندما منح الإنسان عينين لمشاهدة المناظر المختلفة، فلم يكتف بالأعضاء الضرورية التى تستحيل الرؤية بدونها، بل وضع تحت اختياره الكثير من الأعضاء التكميليّة إذ زوّد العين ب «الأهداب» للحؤول دون دخول ذرّات الغبار، ووضع فى سقف الأجفان «غدداً دهنية» لتبقى رطبة دائماً وجهّز العيون ب «غدد دمعية» ليبقى سطح العين رطباً دائماً لئلّا تحدث حركة الأجفان أدنى جرح فيها، وأوجد «الحاجبين» كالسدّ فوق العينين لإكمال عملهما ولكى تمنع نزول العرق من الجبين عليهما، وزوّد كرة العين ب «عضلات» تمكّنها من الحركة إلى الجهات الستّ بحريّة.

كما أنّ بالإمكان الوقوف على الكثير من هذه النماذج فى عالم الخليقة كلّه.

وهنا يرد هذا السؤال وهو أنّه هل يمكن للخالق الذى وضع كلّ هذه الوسائل المتطوّرة

نفحات القرآن، ج٧، ص: ٣٣

تحت تصرّف الموجودات فى عالم التكوين (الخلقة) أنّ يغضّ النظر عن إرسال الأنبياء عليهم السلام والدور المهمّ لهذه البعثة فى طريق تكامل النوع البشرى وتحقيق الهدف من حياته فى كافّة أبعادها الماديّة والمعنوية كما تقدّم ويحرم المجتمع الإنسانى من هذه الموهبة العظيمة؟!

أشار الشيخ الرئيس ابن سينا فى كتاب «الشفاء» إلى هذه الحقيقة بعبارة مختصرة وتمثيل رائع حيث قال:

«فحاجة الإنسان إلى هذا «بَعْثِ الرُّسُلِ» فى أن يبقى نوع الإنسان ويتحصّل وجوده، أشدّ من الحاجة إلى انبات الشعر على الحاجبين وتقعير الأخمس من القدمين وأشياء اخرى من المنافع التى لا ضرورة فيها فى البقاء ... فلا يجوز أن تكون العناية الأزلية وتقتضى تلك المنافع ولا تقتضى هذه التى هى اسّها» «١».

وقد بيّن هشام بن الحكم التلميذ المعروف للإمام الصادق عليه السلام هذا الاستدلال بشكل آخر ل «عمرو بن عبيد» العالم السنّى

المعروف وقد سبق ابن سينا بذلك، ومن جملة ما ذكر فى هذه المحاورة: «.. قلت:- لابدّ من القلب وإلّا لم تستيقن الجوارح؟ قال: نعم. فقلت له:

ياأبا مروان فاللّه تبارك وتعالى لم يترك جوارحك حتّى جعل لها إماماً يصحّح لها الصحيح ويتيقّن به ما شكّ فيه، ويترك هذا الخلق كلّهم فى حيرتهم وشكّهم واختلافهم، لا يقيم لهم إماماً يردّون إليه شكّهم وحيرتهم ويقيم لك إماماً لجوارحك تردّ إليه حيرتك وشكّك؟! قال: فسكت ولم يقل لى شيئاً» «۲».

ج) التربية العلمية

الطريق الثالث الذى يمكننا أن نستفيد منه للحصول على تحليل منطقى لمسألة علّة إرسال الرسل، هو أن تربية الإنسان لها بعد علمى قبل أن يكون لها بعد وجانب عملى.

---

(۱) الشفاء، الإلهيات، المقال ۱۰، الفصل ۲، ص ۴۴۱.

(۲) اصول الكافى، ج ۱، ص ۱۶۹، كتاب الحجّة، باب الإضطرار إلى الحجّة، ح ۳.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۳۴

والشرط فى موفّقية المربّى فى مهمّته أنّ يتمكّن من الظهور كقدوة متكاملة فى تطبيق تعليماته من الناحية العملية فضلًا عن التربية اللازمة، وأن يعكس كلّ المسائل التربوية من خلال صفاته وأخلاقه وتصرّفاته، ولا يمكن هذا إلّاأن ينتخب الأنبياء عليهم السلام من جنس البشر كقدوة حسنة، فيعكسوا صفات الإنسان الكامل وسلوكه من الناحية العملية ليقتدى بهم الناس، ويسيروا على خطاهم فيقطعوا هذا الطريق الملىء بالعثرات والعقبات بقيادتهم.

وبعبارة اخرى: هناك فى وجود الإنسان شىء اسمه روحية «المحاكاة» أى أنّه ينجذب بصورة لا إرادية نحو ما يراه فى أفراد جنسه، وهذا الإحساس طبعاً لا يبلغ مرتبة الدافع القهرى بل هو بمثابة الأرضية المناسبة لحركة إرادية كما هو الحال فى الظمأ فإنّه لا يجبر الإنسان العطشان على شرب الماء لكنّه يعدّ بمثابة الأرضية لذلك.

حينما يأتى الأنبياء عليهم السلام أو الأئمّة المعصومون عليهم السلام الذين هم من جنس البشر بالتعليمات الإلهيّة الجامعة إلى من يماثلهم ويطبّقون هذه التعليمات عمليّاً ويعكسون الفضائل الإنسانية بالتقوى والصدق يحصل باقى البشر على أرضية مناسبة لاكتساب مثل هذه الصفات.

ولذا فالقرآن الكريم يصرّح بضرورة كون النبى الأكرم صلى الله عليه و آله من جنس البشر، كما أنّه لو كان هنالك ملائكة يعيشون فى الأرض لوجب ظهور أنبياء من جنسهم، وذلك ردّاً على اولئك الذين يصرّون قائلين لماذا لم يكن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله من جنس الملائكة أو لماذا لم يصطحبه ملك على أقلّ تقدير؟ يقول تعالى: «وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَسُولًا* قُلْ لَو كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَسُولًا». (الإسراء/ ۹۴- ۹۵)

يبدو أنّ التعبير ب «ملائكة يمشون مطمئنين» لبيان هذه المسألة وهى أنّه حتّى لو كان هناك ملائكة يعيشون فى الأرض متسالمين لبعثنا إليهم ملكاً من جنسهم كقائد يقودهم بالرغم من انعدام الخصومات فيما بينهم، نظراً إلى أنّ مهمّة الأنبياء عليهم السلام لا تنحصر فى إنهاء حالة التخاصم وإقامة القسط والعدالة الاجتماعية، بل تعدّ كلّ هذه مقدّمة لطىّ طريق

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۳۵

الكمالات المعنوية للتقرّب إلى اللّه تعالى.

على أيّة حال فقد ورد ما يشبه هذا المعنى فى لباس آخر كإجابة على تذرع المشركين، حيث قال تعالى: «وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَا يَلْبِسُونَ».

(الأنعام/ ۹)

كما أنّ هناك ملاحظة جديرة بالإعتبار، وهى أنّ القرآن يؤكّد على كون نبى الإسلام صلى الله عليه و آله أو سائر الأنبياء عليهم السلام قدوة ومثالًا يقتدى به ويوصى الناس بضرورة الإقتداء بهم فى برامجهم العملية، يقول تعالى: «لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ». (الأحزاب/ ۲۱)

ويقول فى موضع آخر: «قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ». (الممتحنة/ ۴)

كما تكرّر نفس هذا المعنى فى الآية السادسة من نفس هذه السورة.

على أيّة حال فمسألة التربية والتعليم عن طريق الإقتداء بالقادة الإلهيين مؤيّدة بالتحليل المنطقى والآيات القرآنية أيضاً.

۳- اسلوب المخالفين

فى قبال الأدلّة الكثيرة على لزوم إرسال الأنبياء عليهم السلام المتقدّمة، والتى نالت قبول الأكثرية القاطعة من العقلاء فى العالم، نجد أنّ مذهب البراهمة «۱» نفى ضرورة بعث الأنبياء عليهم السلام من الأساس، بل اعتبرها مستحيلة وغير معقولة، لاعتقاده بكفاية ما يعينه العقل للإنسان! وقد نقل الشهرستانى فى كتاب «الملل والنحل» بعضاً من شبهاتهم حول هذا الموضوع وقال:

---

(۱) مذهب البراهمة هو من أقدم المذاهب المعروفة التى ظهرت فى المشرق، ومركزه الأصلى «الهند»، قالالشهرستانى فى كتاب «الملل والنحل»: هذا الاسم مأخوذ من اسم «براهام» مؤسس هذا المذهب، فى حين أنّ «فريد وجدى» يقول فى «دائرة المعارف»: إنّ هذا الاسم مشتقّ من اسم أحد آلهتهم الكبيرة أى «براهما»، والبراهمة وفضلًا عن إنكارهم للنبوّة يعتقدون بنوع من التثليث أى الآلهة الثلاثة.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۳۶

أ) أنّ الذى يأتى به الرسول لم يخل من أحد أمرين: فإمّا أن يكون معقولًا وإمّا أن لا يكون معقولًا، فان كان معقولًا فقد كفانا العقل التامّ بإدراكه والوصول إليه، فأى حاجة لنا إلى الرسول؟ وإن لم يكن معقولًا فلا يكون مقبولًا، إذ قبول ما ليس بمعقول خروج عن حدّ الإنسانية ودخول فى حدّ البهيميّة.

ب) قد دلّ العقل على أنّ اللّه تعالى حكيم والحكيم لا يتعبّد الخلق إلّابما تدلّ عليه عقولهم، وقد دلّت الدلائل العقليّة على أنّ للعالم صانعاً عالماً قادراً حكيماً، وأنّه أنعم على عباده نعماً توجب الشكر، فننظر فى آيات خلقه بعقولنا ونشكره بآلائه علينا ... وإذا عرفناه وشكرنا له استوجبنا ثوابه وإذا أنكرناه وكفرنا به استوجبنا عقابه فما بالنا نتّبع بشراً مثلنا؟!

ج) إنّ أكبر الكبائر فى الرسالة اتّباع رجل هو مثلك فى الصورة والنفس والعقل، يأكل ممّا تأكل ويشرب ممّا تشرب حتّى تكون بالنسبة إليه كجماد يتصرّف فيك رفعاً ووضعاً، أو كحيوان يصرفك أماماً وخلفاً، أو كعبد يتقدّم إليك أمراً ونهياً، فأى تفوّق له عليك؟ وأيّة فضيلة أوجبت استخدامك؟، وما دليله على صدق دعواه؟ وما فضل حديثه على غيره؟ ولو أنّهم جاؤا بأشياء تفوق العادة، فانّ هناك من يخبر عن المغيبات أيضاً.

د) قد دلّ العقل على أنّ للعالم صانعاً حكيماً، والحكيم لا يتعبّد الخلق بما يقبح فى عقولهم، وقد جاء أصحاب الشرائع بمستقبحات من حكم العقل: كالإحرام والسعى بين الصفا والمروة ورمى الجمار وأمثالها، فما فائدتها؟ لماذا حرّموا بعضاً من طعام الإنسان وحلّلوا ما يكون مضرّاً؟ «۱».

الجواب:

یمکن الإجابة عن هذه الشبهات بسهوله:

أ) یجب ألّا ننسى أنّ معلوماتنا وإدراکاتنا العقلیّة ما هی إلّاقطرة من محیط عظیم

---

(۱) الملل والنحل، الشهرستانی، الباب ۴، آراء الهند، الفصل ۱- البراهمة- ص ۲۵۰.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۳۷

وغیض من فیض بالنسبة إلى مجهولاتنا، وهذه الحقیقة یعترف بها جمیع العلماء والمفکّرین سواءً من الإلهیین أو المادّیین.

فمن یقول إنّ رسالات الأنبیاء علیهم السلام إمّا أن تکون موافقة لعقولنا أو مخالفة، فإنّه یفهم من کلامه أنّ العقل یدرک کلّ شیء! لکنّ الأمر لیس کذلک، بل هناک شقّ ثالث أوسع من صاحبیه، وهو تلک الامور التی لیس لنا علم بها أصلًا ولا یمکننا نفیها ولا إثباتها، لکن حینما تثبت إجمالًا عن طریق الأدلّة التی سنشیر إلیها فیما بعد بأنّ الأنبیاء علیهم السلام یتکلّمون نیابة عن اللَّه تعالى ویخبرون من علمه اللامحدود فإنّه سوف لن یبقى هناک مجال سوى قبولها والإذعان بصحّتها.

فإشکال البراهمة الأوّل یشبه قولنا بعدم لزوم التوجّه إلى الاستاذ والاستفادة من علمه وتجربته، لأنّ ما یقوله الاستاذ إمّا أن یکون موافقاً لعقل التلمیذ أو لا، ففی الحالة الاولى لا حاجة للذهاب وفی الحالة الثانیة لا یجب التسلیم وقبول قول الاستاذ.

وبدیهی أنّ هذا الکلام صبیانی لا یخفى جوابه على أی مفکّر، فالاستاذ إنّما یعلّم التلمیذ أشیاء یعجز عقله عن نفیها أو إثباتها بالإضافة إلى ذلک فقد یلتبس الأمر علینا فنقع فی الشکّ والإضطراب أحیاناً فی مسائل عرفناها بصورة صحیحة فلا ندری هل فهمناها بصورة صحیحة أم لا؟

وبدون شکّ فانّنا سنطمئن ونتیقّن إذا ما أیّدها الأنبیاء وصدّقوها، لذا فنحن محتاجون إلى الأنبیاء فی کلّ الامور سواء علمناها أم لم نعلمها، (فتأمّل).

ب) صحیح أنّنا نعرف اللَّه تعالى بالأدلّة العقلیّة، وأنّ حکم العقل هو الذی یفرض علینا شکر نعمه، لکنّ هذا لا یکفی، فطریق السعادة والکمال الإنسانی ملیء بالعقبات والمخاطر، ولابدّ من وجود أشخاص مجهّزین بالقدرة الإلهیّة والإمدادات الغیبیة لیأخذوا بأیدینا عند اجتیازنا لهذه المخاطر.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۳۸

نحن لا نقتدی بإنسان مثلنا أبداً، بل بإنسان له اطّلاع واسع جدّاً، وعلمه متصل بعلم اللَّه اللامحدود عن طریق الوحی، واتّباع شخص کهذا منطقی جدّاً.

ج) ممّا تقدّم یتّضح الجواب على الإشکال الثالث أیضاً، إذ إنّ إطاعتنا لأوامر الأنبیاء علیهم السلام والوقوف رهن إشارتهم لتقواهم التی لا مثیل لها والتی لمسناها فیهم.

نحن نضع أحیاناً قلوبنا وعقولنا التی تعدّ أهمّ وأعزّ أعضائنا تحت تصرّف الجرّاح الذی نثق به، فینهال علیها بمبضعه، وحینما نوافق على تخدیرنا من قبله لیفعل ما یرید، فهل یُعدّ هذا العمل حماقة؟

بدیهی إنّه لیس کذلک، فعلم ومعرفة الطبیب الجرّاح من جهة، وحسن ظنّنا بعمله من جهة اخرى، یبعثان على التسلیم له بلا قید أو شرط، ولا یخفى أنّ الأنبیاء علیهم السلام الإلهیین یفوقون الطبیب علماً وتقوى بکثیر.

د) أی أمر غیر منطقی یوجد فی تعلیمات الأنبیاء علیهم السلام؟ فهل مراسم الحجّ والسعی بین الصفا والمروة ورمی الجمرات والإحرام هی خلاف العقل؟

إنّ تأمّلًا بسیطاً فی فلسفة هذه الأعمال یکشف عن مدى حکمتها، وکیف أنّها تربّی الإنسان تربیة صالحة.

فنحن نخرج عند الإحرام من حجاب عالم المادّة، ونترك كلّ الفوارق القوميّة والعرقية والطبقية جانباً ونقف كلّنا سواسية ونترك كلّ ما يشغل القلب جانباً ولو مؤقتاً، ونتفرّغ ل «معرفة وجودنا وخالقنا» في عالم معنوى خالص.

والجمرات الثلاث تمثّل الشيطان، إذ نرميه بالحصى سبع مرّات متعاقبة، وبهذا نعلن عن رفضنا واستيائنا من الاعمال والأفكار الشيطانية.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۳۹

وعند السعى بين الصفا والمروة نتذكّر سعى «هاجر» تلك المرأة الطاهرة المؤمنة وجهدها لنجاة وليدها «إسماعيل»، فنطوى المسافة بين الصفا والمروة عدّة مرّات.

وقصارى الكلام، إنّ الأعمال التى ننجزها يعتبر كلّ واحد منها مثالًا لبرنامج تربوى مسبق، وعند الانتهاء نشعر بأنّنا قد حصلنا على شخصيّة جديدة ومعرفة جديدة عن اللّه تعالى وعن نفوسنا، ذلك الإحساس الذى يحصل لكلّ إنسان بعد مراسم الحجّ.

إنّ تحريم الأنبياء عليهم السلام بعض المواد الغذائية والمشروبات مثل «الخمر» و «لحم الخنزير» إنّما للأضرار الكامنة فيها والتى غفل الناس عنها سابقاً ثمّ اطّلعوا عليها بالتدريج فى هذا العصر، فنحن لا نعرف شيئاً حلّله الأنبياء عليهم السلام وتسبّب فى ضرر الإنسان ماديّاً أو معنويّاً.

وخلاصة القول، إنّ هذه الإشكالات الأربعة للبراهمة قد نشأت عن جهلهم بالأنبياء عليهم السلام أو تعليماتهم من جهة وعدم معرفتهم لمدى قدرة العقل من جهة اخرى، وبهذا نصل إلى نهاية البحث حول فلسفة «البعثة».

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۴۱

الخصائص العامّة للأنبياء عليهم السلام

اشارة

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۴۳

الخصائص العامّة للأنبياء عليهم السلام

إنّ مهمّة هداية الخلق وتهذيب النفوس وتعليم الناس وتربيتهم وإقامة العدل وإزالة الاختلافات وتحرير الإنسان من مخالب الأسر مهمّة شاقّة وصعبة ممّا يجعلها تتطلّب استعداداً خاصّاً من الناحية الجسمية والروحية والعلمية والأخلاقية.

ولهذا السبب لا- يتسنّى لأىإنسان تحمّل أعباء مثل هذه المسؤولية، إلّالمن حصل على القدرة على تهذيب النفس وبنائها من جهة والإمداد الإلهى من جهة اخرى، ومن البديهى أنّ الفرد العادى غير الناضج لا يتمكّن أبداً من تقبّل مثل هذه المهمّة الخطيرة.

والكلام هنا هو عن ماهيّة هذه الخصائص التى ينبغى توفرها لدى كلّ نبى، ومن الطبيعى أنّ الأنبياء عليهم السلام واولى العزم وأصحاب الشرائع والسنن يجب أن يكون لهم النصيب الأوفى منها.

وهنا يسعفنا القرآن فى ذكر هذه الخصائص فضلًا عن الأدلّة العقليّة، المتوفرة فى هذا المجال.

بهذه الخلاصة نعود إلى القرآن لنمعن خاشعين فى الآيات الواردة فى هذا المجال:

۱- «وَاذْكُرْ فِى الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً». (مريم/ ۴۱)

۲- «وَاذْكُرْ فِى الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيّاً».

(مريم/ ۵۴)

۳- «إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ* إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ».

(الشعراء/ ۱۰۶- ۱۰۷)

۴- «أَبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّى وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ». (الأعراف/ ۶۸)

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۴۴

۵- «وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ». (الشعراء/ ۱۰۹)

۶- «وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحاً هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيمانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ».

(الأنعام/ ۸۴)

۷- «الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً». (الأحزاب/ ۳۹)

۸- «قَالَ إِنِّى أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّى بَرِىءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ* مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِى جَمِيعاً ثُمَّ لَاتُنْظِرُونِ* إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُمْ».

(هود/ ۵۴- ۵۶)

۹- «وَاذْكُرْ فِى الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصاً وَكَانَ رَسُولًا نَبِيّاً». (مريم/ ۵۱)

۱۰- «فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ».

(آل عمران/ ۱۵۹)

۱۱- «وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِى قَالَ لَايَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ». (البقرة/ ۱۲۴)

جمع الآيات و تفسيرها

۱- صدق الحديث

إن أوّل خصلة لكلّ نبى قبل كل شىء هى صدق الحديث، وذلك لأنّه يخبر عن اللَّه تعالى، فمع عدم الإطمئنان بصدقه لا يمكن الإعتماد على كلامه، ولذا فقد أكّد القرآن على هذه المسألة عدّة مرّات، من جملتها أوّل آية من آيات بحثنا إذ يقول تعالى: «وَاذْكُرْ فِى الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً»، كما أنّ نفس هذا الوصف قد ورد بحقّ إدريس فى سورة مريم، الآية ۵۶ و يوسف فى سورة يوسف الآية ۴۶.

والملفت للنظر أنّ وصفه ب «الصدق» قد سبق وصفه ب «النبوّة» فى هذه الآية، وهذا

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۴۵

يبيّن أنّ أصل النبوّة إنّما يرتكز على الصدق، خصوصاً إنّ «صدّيقاً» هى صيغة مبالغة للصدق «۱»، وتعنى كثير الصدق أو الذى لا يكذب أبداً والذى يوافق قوله عمله، وبناء على هذا فالأرضية المناسبة لتقبّل النبوّة المتوفّرة لدى جميع حملة الوحى الإلهى هى «الصدق المطلق» ليتمّ من خلاله إيصال أمر اللَّه تعالى إلى عباده بدون أيّة نقيصة.

طبعاً يمكن للناس اكتشاف هذه الخصلة فى النبى الأكرم صلى الله عليه و آله من خلال تتبع حياته السابقة كما هو الحال تماماً فى أهالى مصر عندما عرّفوا يوسف ب «الصدّيق» وخاطبوه ب «يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ». (يوسف/ ۴۶)

۲- الالتزام بالعهود والمواثيق

الكلام فى الآية الثانية عن الصدق أيضاً لكن لا- فى القول بل فى العهود والمواثيق، واللطيف هنا أيضاً هو ورود هذه الخصلة قبل الوصف بالرسالة والنبوّة والتى تشير إلى صنعها الأرضية المناسبة لمنزلة النبوّة، لأنّ القسم الأعظم من دعوة الأنبياء عليهم السلام إنّما يرتكز على أساس الوعود التى تعطى للمستقبل، ولو لم يكن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله صادقاً فى وعوده لانهارت أُسس دعوته،

قال تعالى فى ذلك: «وَاذْكُرْ فِى الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيّاً»، وبديهى إنّ من كان كاذباً فى كلّ شىء حتّى فى وعوده لا يمكن أن يبلغ مقام الرسالة الشامخ وذلك لأنّ الشرط الأوّل لهذه المنزلة هو إيمان الناس بأقواله ووعوده واختبارهم لصدقه فى كافّة الميادين.

ولذا فحتّى الأفراد المعدودون الذين لا يعتبرون مكانة «العصمة» شرطاً أساسيّاً للنبوّة فى كافّة المجالات نراهم يعتبرون الصدق من بين الشروط.

وفيما يتعلّق بكون «إسماعيل عليه السلام» صادق الوعد، فقد جاء فى الكثير من كتب التفسير

---

(۱) يقول الزمخشرى: الصدّيق من صيغ المبالغة وتعنى الغاية فى الصدق والتصديق بالآيات الإلهيّة (تفسير الكشّاف ج ۳، ص ۱۸).

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۴۶

والروايات أنّ اللّه تعالى قد اعتبره «صادق الوعد» نظراً لعزمه على الوفاء بالوعد حتّى إنّه انتظر شخصاً كان قد وعده فى مكان ما، لمدّة سنة كاملة وحينما جاء ذلك الشخص قال له إسماعيل: لقد كنت فى انتظارك طيلة هذه المدّة! «۱».

ولا يبعد أن يكون المراد من الإنتظار لمدّة سنة هو التردّد على ذلك المكان ومراقبته بين الحين والآخر لعودة ذلك الشخص لا المكوث هناك سنة كاملة تاركاً كلّ أعماله ومشاغله الحياتية.

لكن هل يا ترى إنّ إسماعيل هذا هو نفس «إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام» المعروف أم «إسماعيل بن حزقيل» الذى هو من أنبياء بنى إسرائيل، فهذا محلّ بحث، وقد اختار الكثير الإحتمال الأوّل، لكن تمّ التصريح بالإحتمال الثانى فى البعض من الروايات الواردة فى مصادر أهل البيت عليهم السلام، وذلك لوفاة إسماعيل فى حياة أبيه إبراهيم طبقاً لبعض الروايات، وهذا لا يتلاءم والتعبير بالرسالة فى حقّه، فى حين أنّ القرآن يقول فى الآية الآنفة الذكر:

«وكان رسولًا نبيّاً»، وما قيل: إنّه كان يمتلك رسالة من قبل أبيه لهداية قبيلة «جرهم» من سكنة مكّة لا يبدو مناسباً أيضاً لأنّ ظاهر الآية هو أنّ «إسماعيل» المذكور هنا كانت له رسالة إلهيّة لا رسالة من قبل إبراهيم عليه السلام.

علاوة على ذلك فلو كان المراد هو إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام لكان من المناسب ذكره بعد إبراهيم عليه السلام فى الآيات السابقة لا بعد موسى عليه السلام.

وعلى أيّة حال فلا أثر لهذا الكلام فى بحثنا الذى يدور حول مسألة خصوصيات الأنبياء عليهم السلام.

۳- الأمانة

إن منزلة النبوّة والرسالة هى مكانة تتطلب «الصدق» و «الأمانة»، الأمانة فى نقل الوحى

---

(۱) اصول الكافى، ج ۲، ص ۱۰۵، ح ۷.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۴۷

وإيصاله إلى الناس والأمانة فى حفظ الأسرار الإلهيّة، والصدق والأمانة يعودان فى حقيقة الأمر إلى أصل واحد، غاية الأمر أنّ الصدق أمانة فى الحديث والأمانة صدق فى العمل! ولذا يقول القرآن فى ثانى آية من آيات بحثنا: «كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ* إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ* إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ»، كما أنّ نفس هذا التعبير «إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ» قد ورد بحقّ كلّ من «هود» (الشعراء/ ۱۲۵)، و «صالح» (الشعراء/ ۱۴۳) و «لوط» (الشعراء/ ۱۶۲) و «شعيب» (الشعراء/ ۱۷۸) و «موسى» (الدخّان/ ۱۸)، وممّا لا شكّ فيه هو أنّ هؤلاء الأنبياء عليهم السلام وغيرهم من الأنبياء الإلهيين كانوا قد أثبتوا أمانتهم للناس عمليّاً كما قرأنا عن النبى الأكرم صلى الله عليه

و آله أنّه كان يلقّب ب «محمّد الصادق الأمين» من قبل خاصّة الناس وعامّتهم وذلك قبل نزول الوحى، ولذا كان صلى الله عليه و آله يستدلّ بسابقته هذه أمام المخالفين بأنّهم كيف لا يصدقون بإنذاره فيما يتعلّق بالوحى الإلهى مع علمهم وإقرارهم بصدقه وأمانته؟! «۱».

والملفت هو أنّ القرآن قد وصف جبرئيل حامل الوحى الإلهى بهذا الوصف أيضاً حيث قال: «نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ* عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ». (الشعراء/ ۱۹۳- ۱۹۴)

وفى الحقيقة إن حملة الوحى، سواءً الملائكة الذين هم الواسطة فى إبلاغ الوحى، أم الأنبياء أنفسهم أو الأئمّة ونواب المعصومين الذين أُنيطت بهم مسؤولية إبلاغ وحفظ الوحى الإلهى، هم أُمناء اللَّه فى خلقه، ومن هنا فاننا نرى أن الامام علياً عليه السلام وباقى الأئمّة الاطهار عليهم السلام ينعتون بأمناء اللَّه فى الزيارة المعروفة بزيارة «أمين اللَّه»، حيث ورد هذا الخطاب: «السلام عليك يا أمين اللَّه فى أرضه» وهو شاهد آخر على إثبات هذا الادعاء.

---

(۱) جاء فى التواريخ فى ذيل الآية «وَانْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ» أنّه صلى الله عليه و آله صعد إلى جبل الصفا بعد نزول هذه الآية ودعا كلّا من «بنى عبدالمطّلب» و «بنى عبد مناف» فلمّا اجتمعوا حوله قال لهم صلى الله عليه و آله، لو أخبرتكم بأنّ جيشاً عظيماً يتّجه نحوكم بمحاذاة هذا الجبل فهل ستصدقوننى أم لا؟ فقال الجميع: بلى! ما عرفنا فيك الكذب أبداً، فقال صلى الله عليه و آله: «إذن فاعلموا أنّى لكم نذير من العذاب الإلهى». (الكامل، ج ۲، ص ۶۰).

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۴۸

۴- الرغبة والشفقة الفائقتان

إنّ الإنسان الذى يقود الناس ويتحمّل مسؤولية هدايتهم وتربيتهم كمعلّم صالح لهم هو ذلك الشخص الذى له رغبة شديدة بهذا العمل وفى قلبه شفقة على الناس، بل إنّه يعشقهم فلولا حبّ الأبوين لولدهما لما تحمّلا أبداً كلّ هذه المشاكل لرعايته وتربيته، ولولا حبّ الأنبياء عليهم السلام لهداية الناس لما تحملوا أبداً أعباء هذا العمل الذى يفوق طاقه الإنسان، ولما عرّضوا أنفسهم لأنواع المخاطر فى هذا الطريق.

وقد أكّد القرآن مراراً على هذه المسألة كما ورد فى الآية الرابعة من بحثنا، ونقلًا عن لسان «هود» نبى اللَّه تعالى حيث قال لقومه المعاندين المتعصّبين: «أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّى وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ».

ونفس هذا المعنى ورد بتعبير أدقّ فى حقّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله حيث يواسيه تعالى ويقول: «فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً». (الكهف/ ۶)

كما جاء نظير هذا المعنى أيضاً فى قوله تعالى «لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْمُؤْمِنِينَ».

(الشعراء/ ۳)

«ناصح» مأخوذة من مادّة «نصح» وتعنى على حدّ قول الراغب فى مفرداته، تحرّى فعل أو قول فيه صلاح صاحبه (أى أنّه يشمل تحرّى الصلاح قولًا وفعلًا)، وقد جاء فى القرآن أنّ نوحاً عليه السلام دعا قومه ألف سنة إلّاخمسين عاماً فتحمل أنواع المشقّة لتبليغهم رسالات ربه وهدايتهم وبالنتيجة لم يؤمن به خلال كلّ هذه المدّة إلّانفر قليل، (ذكرت التواريخ أنّ عددهم لم يتجاوز نيفاً وثمانين نفراً فقط)، وبعبارة علمية بسيطة فانّ نوحاً قد تحمّل مشقّة اثنتى عشرة سنة تقريباً لهداية كلّ واحد منهم على انفراد، وبديهى أنّ تحمّل مثل هذا التعب والمشقّة لا يتحقّق إلّافى ظلّ الرغبة والحب الشديدين لهداية الخلق.

۵- الإخلاص والإيثار الكامل

من الصفات المهمّة للأنبياء عليهم السلام التى أكّد عليها القرآن هى عدم انتظارهم لأى نوع من

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۴۹

الأجر والمكافأة الماديّة فى مقابل دعوتهم إلى اللّه تعالى ودين الحقّ، فنقرأ مثلًا فى الآية الخامسة من آيات بحثنا حول أوّل نبى من اولى العزم أى نوح عليه السلام: «وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ» كما أنّ هناك آيتين اخريين بنفس هذا المضمون قد وردتا فى حقّ نوح عليه السلام أيضاً (هود/ ۲۹) و (يونس/ ۷۲).

وفى حقّ «هود» فى موردين (هود/ ۵۱) (الشعراء/ ۱۲۷).

وفى حقّ «صالح» فى آية واحدة (الشعراء/ ۱۴۵).

وفى حقّ «لوط» فى مورد واحد (الشعراء/ ۱۶۴).

وفى حقّ «شعيب» فى مورد واحد (الشعراء/ ۱۸۰).

وأخيراً فقد تكرّر التأكيد على هذه المسألة فى عدّة مواضع من القرآن فى حقّ نبى الإسلام صلى الله عليه و آله: (الأنعام- ۹۰) (سبأ- ۴۷) (الفرقان- ۵۷) (ص ۸۶) «۱».

على أيّة حال فإنّ تأكيد القرآن على مسألة أنّ أوّل كلام للأنبياء عليهم السلام الإلهيين هو عدم انتظارهم لأيّة مكافأة فى مقابل جهودهم، وسلوكهم وأفعالهم تكشف عن إمكانية التعرّف عليهم من خلال هذه الخصلة.

إنّهم عليهم السلام كانوا يقولون ذلك ويعكسونه من خلال سلوكهم وأفعالهم، فى حين إنّ المدّعى زوراً ربّما يقول مثل قولهم لكنّه لا يلتزم به عمليّاً أبداً.

ويحتمل أنّ ملكة سبأ أرادت اختبار سليمان عليه السلام وهل أنّه نبى صادق أم ملك يبغى وراء تظاهره بالدعوة إلى اللّه تعالى منافع ماديّة، فقالت: «وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ». (النمل/ ۳۵)

فإذا وافق سليمان عليه السلام على الهدية وفرح بها لاتّضح أنّ له دافعاً ماديّاً، بينما النبى من

---

(۱) الجدير بالذكر هو أنّ القرآن الكريم يقول أحياناً فى حقّ نبى الإسلام صلى الله عليه و آله: «قُلْ لَاأَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً» (الأنعام/ ۹۰) ويقول أحياناً: «قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا» (الفرقان/ ۵۷) وفى موضع آخر يقول: «قُلْ لَاأَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى». (الشورى ۲۳) ولا يخفى أنّ هذه الآيات بمجموعها تبيّن أنّ مسألة مودّة ذوى القربى إنّما تعود فائدتها إلى الناس، وهذه فى الواقع بمثابة ترعة تصبّ فى خاتمة المطاف فى نهر «الإمامة والولاية المنصوصة» التى عيّنها اللّه تعالى لهداية الناس وللعمل بتعليمات نبىّ الإسلام صلى الله عليه و آله، وبالنتيجة فكلّ منفعة تجنى من هذا الطريق إنّما تصبّ فى خير الناس ولأجلهم.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۵۰

نفحات القرآن ج۷ ۹۹

لا يهتمّ لزخرف الدنيا وزينتها ودافعه إلهى محض.

وعلى أيّة حال فإنّ تصريح القرآن بهذه النكتة فى حقّ ستّة من أنبياء اللّه عليهم السلام، والذين من بينهم إثنان من اولى العزم يثبت وجود هذه الحالة فى كلّ الأنبياء عليهم السلام، ولا مناسبة لحصرها فى خصوص هؤلاء الستّة فقط، بل إنّ كل الأنبياء يتصفون بهذه الصفات.

۶- البرّ والإحسان

من صفاتهم البارزة الاخرى هى الإحسان للصديق والعدو معاً، فلقد كانوا فى الحقيقة مظهراً لصفات «الرحمن» و «الرحيم» والفضل والإحسان للجميع.

ولذا فقد نسب القرآن هذه الصفة إلى الكثير من الأنبياء عليهم السلام ومن جملة ذلك ما جاء فى الآية السادسة من آيات بحثنا بعد الإشارة إلى «إسحاق» و «يعقوب» ولدى إبراهيم البارّين اللذين وهبهما اللَّه تعالى له فى آخر عمره، وكذلك «نوح» و «داود» و «سليمان» و «أيّوب» و «يوسف» و «موسى» و «هارون» (عشيرة من الأنبياء العظام) من بينهم ثلاثة من اولى العزم يقول تعالى: «وكذلك نجزى المحسنين» أى أنّ إحدى الصفات البارزة التى كانت لديهم هى صفة «الإحسان».

كما ورد نفس هذا المعنى أيضاً على انفراد فى آيات متعدّدة من جملتها: «سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِى الْعَالَمِينَ* إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحسِنِينَ». (الصافات/ ۷۹- ۸۰)

و «سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ* كَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحسِنِينَ». (الصافات/ ۱۰۹- ۱۱۰)

و «سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ* إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحسِنِينَ». (الصافات/ ۱۲۰- ۱۲۱)

وأخيراً: «سَلَامٌ عَلَى إِل يَاسِينَ* إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحسِنِينَ». (الصافات/ ۱۳۰- ۱۳۱)

وهذا التكرار فى التأكيد هو خير شاهد على ما تقدّم أعلاه من ماهية المراد من البرّ و «الإحسان» الذى جاء فى الكثير من الآيات، وللمفسّرين عبارات شتّى فالبعض منهم كالمرحوم الطبرسى قد فسّر «الإحسان» فى الكثير من الموارد فى «مجمع البيان» بمعنى

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۵۱

طاعة المولى جلّت قدرته بل قد صرّح أنّه لو حصل هذا المعنى أى مقام العبودية والطاعة للآخرين لشملتهم مثل هذه العنايات الخاصّة أيضاً!.

لكنّ البعض الآخر كصاحب تفسير «روح البيان» قد فسّر ذيل الآية الثمانين من سورة الصافات بمعنى الصبر والتحمّل أمام أذى العدو واعتدائه.

كما يحتمل أيضاً أنّ كلّ واحد من الأنبياء عليهم السلام قد برز فى أحد فروع البرّ والإحسان نظراً إلى أنّ كلّ الطاعات والأعمال الحسنة تندرج تحت عنوان «الإحسان»، الصبر والتحمّل، الطاعة والعبوديه، العفو والمغفرة، وأمثالها.

۷- عدم الخشية من غير اللَّه تعالى

نظراً لتمتّع الأنبياء عليهم السلام بمقام رفيع فى معرفة اللَّه تعالى، فقد كانوا يدركون جيّداً أنّ اللَّه تعالى هو المنبع الرئيسى لكلّ خير وقوّة ولو أنّه تعالى دافع عن شخص لما تمكّن العالم بأسره من إلحاق الضرر به.

وثمرة هذه المعرفة هى الخوف من مخالفة أمر اللَّه تعالى وحده وعدم المبالاة بمن سواه كائناً من كان.

ولذا يقول تعالى فى الآية السابعة من آيات بحثنا بعد أن أشار إلى عدد من الأنبياء عليهم السلام السابقين، «الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً».

إنّ هذه الخاصيّة منحت الأنبياء عليهم السلام قدرة فائقة باعتبارهم قادة إلهيين، ومنحتهم صموداً أمام الأعداء المعاندين بل هى فى الواقع أحد أسباب موفّقيتهم.

وهنا يطرح هذا السؤال نفسه وهو: أنّ اللَّه تعالى خاطب نبى الإسلام صلى الله عليه و آله، فى آيتين سابقتين على هذه الآية ۳۷ فى نفس سورة الأحزاب حول زواجه من زوجة زيد المطلقة وقال: «وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ»، أى أنّك تخاف غير الله فيما يتعلّق بموضوع

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۵۲

زواجك من هـذه المرأة باعتبار أنّ زيـداً هو إبنك بالتبنّى لا حقيقـة، ومن العار الزواج من زوجة الإبن بالتبنّى عند عرب الجاهلية، فى حين أنّ الأنسب أن تخاف اللّه تعالى.

فهـذا التعبير يبيّن أنّ النبى الأـكرم صـلى الله عليه و آله على الرغم من كونه أفضـل الأنبياء عليهم السـلام كان يخاف غير اللّه أيضاً فى حين أنّ الآية تقول: «الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً». (الأحزاب/ ۳۹)

فكيف يتمّ التوفيق بين هذين التعبيرين؟!

إنّ الإجابـة عن هـذا السؤال تتّضح من خلال ملاحظة واحدة، وقد ذكرناها فى «التفسير الأمثل» وهى أنّ خوف نبى الإسـلام صـلى الله عليه و آله هنا لم يكن على شـخصه بل كان يخشـى فى الواقع أن يكون إقـدامه هـذا على نقض عادة الجاهلية تلك (زواجه من زوجة زيـد المطلّقة) سـبباً فى خـدش مكـانته وتزلزلهـا فى أذهـان عموم ذلك المجتمع باعتباره واحـداً من الأنبياء عليهم السـلام وبالتالى لا يتمكّن من تحقيق أهـدافه الإلهيّـة وإلّا فالإقـدام على عمل كهـذا وسط ذلك المجتمع الـذى تغمره الامور العجيبـة والغريبة لا أهميّة له أبداً من الناحية الشخصية مهما كان مخالفاً لفكر الناس وعاداتهم.

كما أنّ تقارب محلّ الآيتين من بعض يمكن أن يكون شاهداً آخر على هذا المدّعى أيضاً.

إذن فخوف النبى الأكرم صلى الله عليه و آله فى هذه القضيّة هو مصداق للخوف الإلهى لا الشخصى (فتأمّل جيّداً).

۸- التوكّل المطلق على اللّه تعالى

إنّ الأنبياء عليهم السـلام كانوا يُبعثون عادة بين أقوام قد غرقوا فى الفساد الأخلاقى فضلًا عن الانحراف الفكرى والعقائدى، ولذا كانت دعوتهم لإزالـة هـذه الآثار السيّئة تواجه بثورة عنيفـة من قبل ذلك المجتمع حتّى أنّهم كانوا يتّخذون العزلة فى بعض الأحيان، والذى كان يغذّيهم بالقوّة والمنعة لمواصلة تحقيق أهدافهم فى مثل هذه الظروف هو مسألة التوكّل على

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۵۳

اللّه، والتى نجد أحد مصاديقها فى قصّة هود فى الآية الثامنة من بحثنا:

إذ قال له قومه إنّك لم تأتنا بدليل واضح ولن نترك آلهتنا لكلامك هذا، بل لن نؤمن بك أصـلًا، ونحن نعتقد بأنّ آلهتنا قد غضـبت عليـك وسـلبتك لبـك! لكنّـه صـمد بجرأة وقـال: «إِنِّى أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّى بَرِىءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ* مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِى جَمِيعاً ثُمَّ لَاتُنْظِرُونِ* إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُمْ».

عنـدما يرى الإنسـان شـخصاً جاهلًا ومتعصـباً، فيصاب بالـذهول والفزع، فكيف به إذا أراد أن ينهض لمواجهـة قوم منحرفين ويحملون كافـة الصـفات الرذيلـة، وهو لا يملك العُـدة والعـدد ليتغلب بها عليهم؟! من البـديهى إن عملًا كهذا لا يمكن تحققه إلّابواسـطة المدد الإلهى، وهى القوة النابعة من التوكل، حيث أن التوكل لا يأتى إلّامن الايمان باللّه سبحانه وتعالى المهيمن على كافة أرجاء العالم.

والملفت للنظر هو عـدم اكتراث الأنبيـاء عليهم السـلام لتهديـدات أعـدائهم وعـدم إبراز أى رد فعـل تجاههم، بـل على العكس كانوا يحتقرون قدرتهم ويعرضونها للإسـتفهام ويفهمونهم بأنّهم لا يعيرون لكلّ ذلك المجتمع الوثنى المعاند أى اهتمام يذكر، فهذا التوكّل المنقطع النظير هو أحد خصائص الأنبياء عليهم السلام.

۹- الإخلاص المنقطع النظير

وصف «المخلص» ورد ذكره فى القرآن مرّة واحـدة فقـط، وذلـك فى حقّ موسـى بن عمران عليه السـلام فقـد وصـفه بالإخلاص قبل وصفه بالرسالة والنبوّة، يقول تعالى: «وَاذْكُرْ فِى الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصاً وَكَانَ رَسُولًا نَبِيّاً».

لكن نظراً لمـا ورد على لسـان الشيطان فى آيتين من القرآن: «وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ* إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ». (الحجر/ ۳۹- ۴۰)

(ص/ ۸۲- ۸۳)

ولبداهة كون الأنبياء عليهم السلام من الذين يعجز الشيطان عن إغوائهم بأى حال من الأحوال

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۵۴

فيمكن استنتاج شمولية هذا الوصف لكلّ الأنبياء سواءً موسى عليه السلام أو غيره.

فما هو «الإخلاص»؟ إنّ الإخلاص منزلة رفيعة جدّاً يؤكّد عليها علماء الأخلاق والعرفان كثيراً وهو أن يعتبر الإنسان ذات البارى جلّت قدرته هى المؤثّر الحقيقى فى عالم الوجود لا غير، وهذا نابع من المعرفة التامّة لتوحيد اللَّه تعالى، فيتوجّه العارف إلى اللَّه تعالى بخالص نيّته ويعتبر كلّ البواعث غير الإلهيّة عبثاً، ويضع كلّ وجوده رهن من يملك كلّ شىء، وأخيراً يرى كلّ ما سواه باطلًا فانياً.

إنّ عمليّة تهذيب الإنسان من شوائب الشرك والهوى والبواعث الوهمية، لها مرحلتان:

المرحلة الاولى: عن طريق تربية النفس على قدر طاقة الإنسان أى أنّه يرى نفسه بعد اجتيازه هذا الطريق بالجدّ والسعى الحثيثين فى زمرة «المخلصين» (الذين قاموا بتنقية أنفسهم).

المرحلة الثانية: مرحلة تصفية الوجود الإنسانى من الشوائب التى تخفى عليه لدقّتها، وهنا يأتى دور العنايات الإلهيّة لمساعدة العبد فى التخلّص من تلك الشوائب والأخذ بيده إلى مرتبة المخلصين وهذه هى المنزلة الرفيعة لأنبياء اللَّه تعالى عليهم السلام وأوليائه وخاصّة عباده.

ولا يخفى أنّ آثار هذا الإخلاص تتجلّى بكلّ وضوح فى أعمالهم كما يمكن إدراك بلوغهم لهذه المنزلة من خلال حسن أقوالهم وتصرّفاتهم بكلّ سهولة، وعلى أيّة حال فالإخلاص أحد الصفات البارزة لأنبياء اللَّه تعالى عليهم السلام.

۱۰- اللين والمحبّة وحسن الخُلق

إنّ مسؤولية الأنبياء عليهم السلام القيادية تفرض عليهم ضرورة مسايرة الناس، واللّين أمام غلظة وفظاظة الجهّال المتعصّبين قدر الإمكان، وبعبارة أدقّ: النفوذ فى قلوب مختلف شرائح المجتمع عن طريق المحبّة، وهذه صفة اخرى من صفات الأنبياء عليهم السلام.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۵۵

يقول القرآن الكريم فى الآية العاشرة من آيات البحث وخصوصاً فيما يتعلّق بنبى الإسلام صلى الله عليه و آله: «فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ» و «الفظ»: و «غليظ القلب» لهما نفس المعنى تقريباً وهو الشدّة والخشونة وقساوة القب، لكن البعض فرّق بينهما وقال: إنّ «الفظّ» يعنى الخشن فى القول، و «غليظ القلب» الخشن فى الفعل. وذهب البعض الآخر إلى أنّ «فظّ» إشارة إلى الخشونة الظاهرية (الأعمّ من القول والفعل)، و «غليظ القلب» إشارة إلى الخشونة الباطنية والقلبية والتى تعدّ المصدر الرئيسى لكلّ الخشونات.

والذى يقابل هذين الوصفين هو اللّين والمحبّة والهدوء قولًا وفعلًا ممّا يؤدّى إلى استقطاب طبقات الامّة بشكل عجيب.

ويرى محقّقو التاريخ أنّ وجود هذه الصفات فى شخص نبى الإسلام صلى الله عليه و آله كان له أكبر الأثر فى الإسراع من مهمّة نجاح وانتشار رسالته خصوصاً فى أوساط مجتمع يدور فيه كلّ شىء حول محور الخشونة الفعليّة كالقتل والإغارة فضلًا عن الخشونة فى القول، ومن هنا فمن السهل الوقوف على الدور الفعّال لهذه الصفة الأخلاقية للنبى صلى الله عليه و آله.

وهناك الكثير من الشواهد حول هذا الموضوع فى تاريخ حياة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، ولو تعرّضنا لها كلّها لخرجنا عن جوهر موضوع بحثنا لكثرتها، لكنّنا سنكتفى بنموذج واحد فقط:

ففى معركة احد التى وجّهت فيها أكبر ضربة لكيان الإسلام والمسلمين بسبب عدم التزام فريق ممّن كانوا جديدى العهد بالإسلام وهروب فريق آخر، فضلًا عن الجراح التى اثخن بها شخص النبى الأكرم صلى الله عليه و آله وبشهادة الكثير من أقطاب الإسلام، نراه

صلى الله عليه و آله بعد انتهاء المعركة حليماً مع المسلمين يكلّمهم بلسان طيّب ولم يبد أى غضب بل كان يدعو لهداية أعدائه المجرمين أيضاً.

كما أنّ تاريخ باقى الأنبياء عليهم السلام يعكس أيضاً تمتّعهم بهذه الفضيلة الإنسانية الخطيرة.

إنّ تصريح القرآن بأنّ «نوحاً» عليه السلام قد دعا قومه تسعمائة وخمسين سنة وأنّه استعان

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۵۶

بكلّ الطرق والوسائل لهدايتهم على حدّ قوله، إذ أنّه كان يدعوهم علناً أحياناً وأحياناً اخرى سِرّاً، ليلًا أو نهاراً، يذهب إلى بيوتهم أو يشاركهم فى جلساتهم العامّة فى بعض الأحيان، وإنّه لم يؤمن به طوال كلّ هذه المدّة إلّانفر قليل، يعكس مدى مداراته لهؤلاء الوثنيين العاصين.

ولحن قوله تعالى الوارد فى سورة نوح عليه السلام يبيّن بكلّ وضوح استخدامه اسلوب الترغيب، وأنّه لم يقدم على لعنهم والدعاء عليهم إلّابعد أن يئس تماماً منهم ومن ذرّيتهم.

إنّ الإنسان تصيبه الدهشة أحياناً عندما يرى ما لبعض الأنبياء من رأفة وحسن خُلق، فقد ورد عن «لوط» عليه السلام مثلًا فى القرآن الكريم إنّه عرض بناته على قومه المذنبين للزواج منهنّ (بعد الإيمان) أملًا فى أن يمنعهم من القيام بأعمالهم الشنيعة تلك.

وعلى أيّة حال فإنّنا كلّما تمعّنا أكثر فى حياة هؤلاء العظام كلّما وقفنا على مميزات وصفات أخلاقية أكبر لهم.

۱۱- الفوز فى المحن الشاقّة

تعرّض الكثير من الأنبياء عليهم السلام خلال حياتهم لمختلف أنواع الإختبارات الشاقّة، وكانت صفاتهم البارزة هى تحمّل أنواع الشدائد، وعدم الغرور عند النصر، وباختصار الفوز فى الإمتحانات الإلهيّة الصعبة.

فالنبى نوح عليه السلام فى فترته التبليغيّة البالغة تسعمائة وخمسين سنة، وموسى عليه السلام خلال خدمته لشعيب فى مدين وخلال فترة تحدّيه الطويلة لفرعون وفترة انحراف بنى إسرائيل عن التوحيد والخروج على أوامره، وكذلك سائر الأنبياء مثل أيّوب وعيسى ولوط وشعيب وهود عليهم السلام وخصوصاً إبراهيم عليه السلام قد ابتلوا جميعاً فى ميادين الإبتلاء هذه.

وقد جاء فى الآية المعنية عن إبراهيم عليه السلام إنّه تعالى قد منحه مقام الإمامة المطلقة فضلًا عن مقام النبوّة وذلك بعد فوزه فى الإختبار، قال تعالى: «وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۵۷

فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً».

وبالرغم من أنّ الآية أعلاه قد أشارت إلى الإبتلاءات بشكل غامض، لكن وكما ذكر المفسّرون فانّ هذه «الكلمات» (أى الامور التى اختبر اللَّه تعالى بها إبراهيم) هى من قبيل الإستعداد لتقديم ولده قرباناً وأخذ زوجته وإبنه إسماعيل إلى أرض مكّة القاحلة وإسكانهم فيها بأمر من اللَّه تعالى ووقوفه الشجاع أمام عبدة الأصنام والهجرة المقرونة بالحرمان إلى المناطق المؤهلة أكثر للإيمان وأمثالها.

ويرى بعض المفسّرين أنّ ابتلاءات إبراهيم عليه السلام قد بلغت الثلاثين مورداً «۱»، لكن ما تقدّم هو أهمّها، فهو فى الحقيقة قد وضع «حياته» و «أمواله» و «مكانته» و «زوجته» و «ولده» و «وطنه الذى كان قد ألفه» والتى تشكّل بمجموعها كيان الإنسان ووجوده فى سبيل اللَّه تعالى وخرج من بودقة الإختبار نقيّاً.

وعلى الرغم من أنّ هناك حديثاً طويلًا للمفسّرين حول تفسير «الكلمات» إذ اعتبرها البعض إشارة إلى مناقشاته الحادّة مع عبدة النجوم والشمس والقمر وبينما اعتبرها آخرون إشارة إلى سلسلة من الأحكام الفرعية للدين، إلّاأنّ ما تقدّم هو أنسبها.

ثمرة البحث:

یمکن الإستنتاج ممّا تقدّم أنّ الأنبیاء علیهم السلام یتمتّعون بحصیلة من- الصفات والممیزات الخاصّة من وجهة نظر القرآن، ولا نقول أنّ کلّ واحدة من هذه الصفات منحصرة بهم، أو أنّها

---

(۱) نقل کلّ من المرحوم الطبرسی فی «مجمع البیان»؛ والآلوسی فی «روح المعانی» والقرطبی فی تفسیره أنّهذه الخصال الثلاثین من شرائع الدین قد وردت فی أربع سور من القرآن الکریم عشرة منها فی سورة (التوبة/ ۱۱۲) «التَائِبُونَ الْعَابِدُونَ ...» وعشرة فی سورة (الأحزاب/ ۳۵) «إِنَّ الْمُسْلِمِینَ وَالْمُسْلِمَاتِ ...» وعشرة فی سورة (المؤمنون/ ۱ و ۲) «قَدْ أَفلَحَ المُؤْمِنُونَ الَّذِینَ ...» أو فی سورة «المعارج» «سأل سائل». لکن یجب الالتفات إلی أنّ الصفات الواردة فی السور أعلاه، لا- تبلغ الثلاثین صفة من معنی ولا- تتجاوز الثلاثین من معنی آخر فضلًا عن أنّ تکرارها ممّا لا یمکن إنکاره، وبناءً علی هذا فقبول العدد ۳۰ لهذا الموضوع یبدو بعیداً بعض الشیء.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۵۸

تعکس النبوّة لوحدها، بل نقول بإمکان العثور علیها بمجموعها عند الأنبیاء علیهم السلام، وبأنّ لها أثراً عمیقاً للتعرّف علیهم لأنّ إحدی طرق معرفتهم کما سیأتی تفصیله هی جمع القرائن المختلفة والتی من جملتها «خصائصهم الخلقیة».

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۵۹

شروط الرسالة

اشارة

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۶۱

التقوی والعصمة

تمهید:

بالنظر لتحمّل الرسل وحملة الوحی الإلهی أهمّ وأخطر مسؤولیة فی عالم البشریة، وهی مسؤولیة هدایة الإنسان وتربیة النفوس وتهذیبها وتنقیتها من کافّة الشوائب والممارسات اللاأخلاقیة، بالإضافة إلی تطهیر المجتمعات البشریة من أنواع الظلم والتعسف، بطرق لا یمکنهم طیّها اعتماداً علی العقل والفکر والمعلومات الخاصة فحسب، بل لابدّ والحالة هذه من تمسّکهم بأعلی درجات «التقوی»، والتی نطلق علیها منزلة «العصمة» التی لا یمکن ضمان أهداف الرسالة بدونها.

ومن المؤکّد أنّ منزلة العصمة لا تعنی «العصمة من الذنب والمعصیة» فحسب، بل لها فرع آخر لا یقلّ أهمیّة عنها، ألا وهو «العصمة من کلّ خطأ واشتباه وانحراف وضلال»، ولا یخفی أنّ تحقیق الهدف من البعثة مرهون بإمدادهم بالتأییدات الإلهیّة من هذه الناحیة.

ولکلٍّ من هذین القسمین تشعّبات اخری أیضاً: کالعصمة من الذنوب کبیرها وصغیرها، فی فترة ما قبل النبوّة وبعدها والعصمة من الخیانة فی تبلیغ الوحی والرسالة و ...

کما یندرج فی قسم العصمة من الخطأ أیضاً کلّ من «العصمة من الخطأ فی تلقّی الوحی وإبلاغه»، والعصمة من الخطأ فی القیام بالفرائض الدینیة والأوامر الشرعیة، وکذلک العصمة من الإنحراف فی الامور الدنیویة والشخصیة. وهناک سؤال یتبادر للذهن وهو:

هل تعود مسألة عصمة الأنبياء فى كلّ هذه الأبحاث إلى هذين القسمين؟ وما هو الدليل على ذلك على فرض الصحّة؟ وما هو الدليل على الاختلاف الحاصل بينهما لو وجد؟

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۶۲

هذه صورة عن مسألة عصمة الأنبياء اصولًا وفروعاً من الناحية المبدئية، والتى ينبغى بيانها فى ظلّ الآيات القرآنية والأدلّة العقلية نظراً لأهميّتها الأساسية والمصيرية، وبهذه الإشارة الخاطفة نعود ثانيةً إلى القرآن ونتأمل خاشعين فى الآيات الواردة فى هذا المجال:

۱- «وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِى قَالَ لَايَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ». (البقرة/ ۱۲۴)

۲- «وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ». (الحشر/ ۷)

۳- «مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً».

(النساء/ ۸۰)

۴- «فَلَا وَرَبِّكَ لَايُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَايَجِدُوا فِى أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً». (النساء/ ۶۵)

۵- «لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً». (الأحزاب/ ۲۱)

۶- «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً». (الأحزاب/ ۳۳)

۷- «قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ* إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ». (ص/ ۸۳- ۸۲)

۸- «وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِى الْأَيْدِى وَالْأَبْصَارِ* إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ* وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ». (ص/ ۴۵- ۴۷)

۹- «أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ». (الأنعام/ ۹۰)

۱۰- «وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَى . (النجم/ ۳- ۴)

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۶۳

جمع الآيات وتفسيرها

كيف يكون المذنبون دعاةً للتقوى؟

إنّ الآية الاولى من آيات بحثنا تكشف النقاب عن ثلاثة مواضيع:

الأوّل: الإبتلاءات الكبيرة التى أُبتلى بها إبراهيم من قبل اللَّه تعالى، والتى اجتازها بنجاح تامّ.

الثانى: المكافأة العظيمة التى نالها إبراهيم من اللَّه بعد هذا الاختبار، أى مقام الإمامة.

الثالث: طلب إبراهيم منح هذه الموهبة لبعض ذرّيته، وجواب اللَّه تعالى له بأنّ الظالمين من ذرّيته لن ينالوا هذا المقام الرفيع أبداً:

«وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِى قَالَ لَايَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ».

أمّا فيما يتعلّق بالقسم الأوّل فقد تقدّم الكلام عنه بشكل وافٍ فيما مضى، كما أنّ هناك حديثاً طويلًا فيما يتعلّق بالقسم الثانى أى نيل مقام الإمامة الرفيع وماهيتها.

فهل أن الإمامة تعنى «النبوّة»؟ فى حين أنّ هناك قرائن واضحة تدلّ على أنّ إبراهيم عليه السلام قد تطرّق لهذا الأمر بعد وصوله لمقام النبوّة، وفى أواخر سنىّ عمره، حينما كان له أولاده وذرّيته كإسماعيل وإسحاق، وعلى أمل امتداد ذرّيته هذه إلى الأجيال اللاحقة، ومن هنا فقد تمنّى لهم أيضاً مقام الإمامة، إذ إنّه وكما نعلم لم يرزق ولداً لمدّة مديدة، حتّى أنّه أخذته الدهشة حينما بشّره الملائكة الموكّلون بهلاك قوم لوط، هو وزوجته بولد كما تقرأ فى قوله تعالى: «قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَى أَنْ مَسَّنِىَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ* قَالُوا

بَشَّرْنَاکَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ». (الحجر/ ۵۴- ۵۵)

بل قد تعجّبت زوجته أيضاً لهذه البشرى واستغربت قائلة: «قَالَتْ يَا وَيْلَتِى ءَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِى شَيْخاً إِنَّ هَذَا لَشَىءٌ عَجِيبٌ». (هود/ ۷۲)

لكن الملائكة حذّرته من تبعة اليأس من رحمة اللَّه فى كلّ الأحوال.

وبناءً على هذا فمن المستبعد جدّاً أن يكون المراد هو النبوّة، بل المراد هو الحكومة

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۶۴

الإلهيّة المطلقة على الأموال والأنفس وكلّ شؤون الحياة الإنسانية، أو الحكومة الظاهرية والباطنية على الأرواح والأنفس عن طريق التربية الظاهرية والباطنية لإيصال الناس إلى الكمال المطلوب بإذنه تعالى، وعدم الإقتصار على رسم الطريق فحسب، والذى يعدّ من مهام كلّ الأنبياء.

على أيّة حال فإنّه مقام يفوق النبوّة، ولم ينله إلّاالبعض من الأنبياء فقط.

وامّا فيما يتعلّق بالموضوع الثالث وهو طلب إبراهيم هذا المقام لبعض أولاده، وسماعه الجواب فى الحال من أنّ هذا المقام هو نوع من التعهّد الإلهى لا يناله الظالمون، فالكلام فيه يدور حول المراد من «الظالم» معنىً ومفهوماً.

يجب معرفة ما المراد بالظالم؟ هل هو فقط ذلك الشخص الموصوف بهذه الصفة فعلًا؟

مع أنّه يستبعد جدّاً بل يستحيل أن يطلب إبراهيم عليه السلام مثل هذا الطلب للظلمة من ذرّيته خصوصاً بعد اجتيازه لكلّ تلك الإختبارات الصعبة وشموله بمثل تلك العناية، هذا الشيء غير معقول أبداً سواء كان هذا الظلم بمعنى الكفر كما يصرّح بذلك القرآن الكريم: «إِنَّ الشِّرْکَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ». (لقمان/ ۱۳)

أو بمعناه الواسع الشامل لكل أنواع الفسق والفجور والمعصية.

وبناءً على هذا فالمراد ب «الظالم» هنا هو ذلك الشخص الموصوف بتلك الصفة ولو للحظة واحدة طول عمره مهما انقضى على تلك اللحظة من مدّة، فان مثل هذا المصداق بحاجة إلى بيان.

وفى الحقيقة إنّ اللَّه تعالى أراد ببيانه هذا إيقاف إبراهيم على هذه الحقيقة، وهى أنّ مقام الإمامة رفيع بدرجة لا يناله إلّااولئك الذين يليقون لهذه (النعمة) العظيمة المنزّهون عن كلّ أنواع الظلم والشرك والكفر والمعصية، وبعبارة اخرى، المعصومون.

ولذا يقول الفخر الرازى حين يصل إلى تفسير الآية المذكورة: «هذه الآية تدلّ على عصمة الأنبياء من وجهين:

الأوّل: إنّه قد ثبت أنّ المراد من هذه العصمة: الإمامة، ولا شكّ أنّ كلّ نبى إمام، فانّ الإمام هو الذى يؤتمّ به، والنبى أولى الناس بذلك، وإذا دلّت الآية على أنّ الإمام لا يكون فاسقاً،

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۶۵

فإنّها تدلّ على أنّ الرسول لا يجوز أن يكون فاسقاً فاعلًا للذنب والمعصية أولى.

الثانى: إنّ التعبير ب «عهدى» لو كان يشير إلى النبوّة فالقصد منه أن أحداً من الظلمة لا ينال مقام النبوّة، وأنّ النبى يجب أن يكون معصوماً، ولو كان يشير إلى الإمامة فدلالة الآية تامّة أيضاً، لأنّ كلّ نبى إمام نظراً لاقتداء الناس به (فى كلّ الامور بلا قيد أو شرط)» «۱».

مع أنّ كلام الرازى فى تفسير الإمامة لم يف بالمطلوب (كما تقدّم)، لكن اعترافه الصريح فيما يتعلّق بالدلالة على لزوم عصمة الأنبياء (والأئمّة) ملفت للنظر، والإشكال الوحيد الذى يمكن إيراده على هذا الاستدلال، هو أنّ عصمة الأئمّة هى المستوحاة من الآية المذكورة لا الأنبياء (الأئمّة بالمعنى المتقدّم).

لكن هذا الإشكال يمكن ردّه بالقول: إنّ طلب إبراهيم عليه السلام مع أنّه يدور حول مقام الإمامة، فلفظ «العهد» الوارد فى جواب

البارى جلّت قدرته: «لَايَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ» تشمل كلًا من «الإمامة» و «النبوّة» معاً، لكون كلّ منهما عهداً إلهيّاً لبداهة شموله لهما كيفما فسّرناه، وموهبة كهذه لا تكون من نصيب الظالمين كما جاء فى روح البيان أيضاً: «وفى الآية دليل على عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من الكبائر قبل البعثة وبعدها» «۲».

فى الآية الثانية يأمر اللَّه تعالى المؤمنين كافّة بالامتثال لأوامر النبى الأكرم صلى الله عليه و آله واجتناب ما ينهى عنه، ويحثهم على التقوى لأنّه تعالى شديد العقاب.

«وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ».

التأمّل فى الآية يكشف عن أنّ المراد من: «وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ»، هو كلّ أوامر النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، باعتبار أنّ نواهيه هى الطرف المقابل: «وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا»، ومن هنا فقد صرّح الكثير من المفسّرين بعمومية مفاد الآية (كالطبرسى فى مجمع البيان، أبى الفتوح

---

(۱) تفسير الكبير، ج ۴، ص ۴۸.

(۲) تفسير روح البيان، ج ۱، ص ۳۳۸.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۶۶

الرازى فى روح الجنان، القرطبى فى تفسيره، والفخر الرازى فى التفسير الكبير، بالإضافة إلى العديد من المفسّرين المعروفين أيضاً)؟ وطبقاً لهذه الآية يجب التسليم المطلق فى مقابل أوامر النبى الأكرم صلى الله عليه و آله ونواهيه، ولا يمكن تصوّر التسليم والطاعة بلا قيد أو شرط لشخص غير المعصوم، إذ مع ارتكاب الخطأ أو المعصية والذنب يجب على المؤمنين تنبيهه على ذلك أو نهيه عنه فضلًا عن حرمة التسليم له.

كما ورد نظير هذا المعنى أيضاً بصيغة اخرى فى الآية الثالثة من آيات بحثنا حيث تقول كحكم مطلق: «مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً».

الملفت للنظر هو ما قاله الفخر الرازى فى تفسيره: «إنّ هذه الآية هى من أقوى الأدلّة على عصمة نبى الإسلام فى كلّ أوامره ونواهيه، وبأنّ كلّ ما يقوله هو عن اللَّه تعالى، لأنّه لو أخطأ فى شىء فلن تكون إطاعته إطاعة اللَّه تعالى، كما يجب أن يكون معصوماً فى أفعاله أيضاً، لأنّ اللَّه تعالى قد أمر باتّباعه» (بشكل مطلق) «۱».

و كذلك فقد جاء نظير هذا المعنى أيضاً بقالب آخر فى الآية الرابعة من آيات بحثنا حيث تقول: «فَلَا وَرَبِّكَ لَايُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَايَجِدُوا فِى أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً».

من الواضح أن هناك مجالًا للاعتراض أو عدم قبول حكم القاضى إذا قطعنا بخطئه، فلا يجب الانصياع لحكمه، فى حين أننا يجب أن لا نشك طرفة عين فى صوابية أحكام الرسول الاكرم ويجب أن نُسلم تسليماً مطلقاً ونرضى من الأعماق بما يقضى ويحكم به الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله من دون أن يساورنا الشك أو يدخل فى نفوسنا الحرج، وما أكّدت عليه الآية أعلاه دليل واضح على معصوميته، ولذا يصرّح الفخر الرازى فى ذيل هذه الآية بأنّها

---

(۱) تفسير الكبير، ج ۱۰، ص ۱۹۳.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۶۷

تدلّ على أنّ الأنبياء عليهم السلام معصومون من الخطأ فى الفتاوى والأحكام، لأنّه تعالى أوجب الإنقياد لحكمهم وبالغ فى ذلك الوجوب، وبيّن أنّه لابدّ من حصول ذلك الإنقياد فى الظاهر وفى القلب، وذلك ينفى صدور الخطأ عنهم «۱».

صحيح أنّ الآية قد نزلت فی تحكيم نبی الإسلام صلی الله عليه و آله، لكنّها توجب إطاعته فی كلّ شیء طبقاً للقرائن التی تحفّ بها، ولذا نقرأ فی الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام:

«لو أنّ قوماً عبدوا اللَّه، فأقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وصاموا شهر رمضان، وحجّوا البيت، ثمّ قالوا لشیء صنعه رسول اللَّه ألا صنع خلاف ما صنع أو وجدوا من ذلك حرجاً فی أنفسهم لكانوا مشركين! ثمّ تلا هذه الآية ...» «۲».

واضح أنّ هذه الآية لا تختصّ بزمن النبی الأكرم صلی الله عليه و آله فقط، بل هی قائمة إلی يوم القيامة، وقد أشار البعض من المفسّرين إلی ذلك أيضاً «۳».

وبناء على هذا فكلّ من خالف سنّة النبی الأكرم صلی الله عليه و آله القطعيّة وأحكامه، أو وجد من ذلك حرجاً فی نفسه أصبح مصداقاً لهذه الآية.

وبالجملة فالآيات الثلاث السابقة هی بصدد بيان حقيقة واحدة بعبارات شتّی، ألا وهی ضرورة التسليم المطلق أمام أوامر النبی الأكرم صلی الله عليه و آله وأحكامه، ولا يتمّ هذا إلّابالقول بضرورة عصمته.

والغريب هو أنّ بعضاً من مفسِّری أهل السنّة قد استدلّ بما جاء فی صحيح مسلم أنّ النبی الأكرم صلی الله عليه و آله مرّ بقوم يلقّحون (النخل) فقال: «لو لم تفعلوا لصلح، قال: فخرج شيصاً (لم يثمر)، فمرّ بهم فقال: ما لنخلكم؟ قالوا: قلت كذا وكذا. قال: أنتم أعلم بأمر دنياكم» «۴».

ومن هنا فقد قسّم البعض منهم أحاديث النبی الأكرم صلی الله عليه و آله إلی قسمين: ما يقوله عن اللَّه

---

(۱) تفسير الكبير، ج ۱۰، ص ۱۶۵.

(۲) تفسير مجمع البيان، ج ۳، ص ۶۹.

(۳) تفسير روح المعانی، ج ۵، ص ۶۵.

(۴) جاء فی صحيح مسلم فی هذا الموضوع ثلاثة أحاديث متّفقة مضموناً وبعبارات شتّی، (صحيح مسلم، ج ۴، الباب ۳۸ ص ۱۸۳۵، ح ۱۳۹ و ۱۴۱ باب وجوب امتثال ما قاله شرعاً دون ما ذكره صلی الله عليه و آله من معايش الدنيا علی سبيل الرأی).

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۶۸

تعالی فی المسائل الدينية والشرعية، وما يقول عن نفسه فی امور الدنيا، فهو معصوم فی الأوّل دون الثانی!!

لكننا لا نعتقد بصحة مثل هذه الاحاديث مطلقاً لانها من أجلی مصاديق الروايات المخالفة لكتاب اللَّه تعالی، لأنّ القرآن اعتبر كلام الرسول صلی الله عليه و آله وأحاديثه مقياساً وميزاناً، واعتبره عين الوحی، حيث ورد فی قوله تعالی «وَما يَنطِقُ عَنِ الهوی . (النجم/ ۳)

فكيف يمكن التصديق بأنّ نبيّاً بكلّ تلك العظمة يدعو الناس إلی شیء من دون علم، بحيث يكون سبباً لدمار محاصيلهم ثمّ يتنازل عن كلامه هذا ويقول لهم: أنتم أدری منّی بامور دنياكم، فی حين أنّه وبلا شكّ يعدّ من أعلم وأذكی الناس وله اطّلاع واسع بامور من قبيل تأبير النخل و ... بل كيف يمكن لشخص يبدی رأيه رجماً بالغيب (والعياذ باللَّه) أن يكون رئيساً لحكومة إسلامية بتلك العظمة.

ولهذا السبب لا نستبعد كون مثل هذه الأحاديث من الموضوعات التی دبرها المنافقون وأعداء الإسلام، وأدخلوها بين طيّات الكتب الإسلامية للحطّ من عظمة ومنزلة النبی الأكرم صلی الله عليه و آله، وعلمه وعقله وتعريضه للشكّ والريبة والاستفهام.

إن عدم نقل هذا الحديث فی الكثير من المصادر الإسلامية الاخری، يعدّ بنفسه دليلًا علی عدم اطمئنان علماء الإسلام بمثل هذه الأحاديث الواهية، والذی يدعو للعجب هو الاستشهادبها من قبل أشخاص ك «المراغی» وصاحب «المنار» فی تفاسيرهم، فی الوقت الذی يُشكلون علی الكثير من المسائل الاخری.

على أيّة حال فتقسيم أقوال وافعال وتقريرات الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله إلى قسمين، يفتح الطريق أمام الذين فى نفوسهم مرض، لتفسير ما يقوم به النبى الأكرم وفى شتّى المجالات الاجتماعية والحياتية والبشرية، والتشكيك به، ثم الاستفهام هل هو من القسم الأوّل أو الثانى؟

لذا- وكما سيأتى إن شاء اللَّه- لو وجد الخطأ والإشتباه طريقه إلى شىء من كلام النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، لما بقى هناك مجال للاعتماد على كافّة أحاديثه، ولهذا نعتقد نحن بوجوب

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۶۹

عصمة الأنبياء والأئمّة من جميع الجهات.

الآية الخامسة تخاطب المسلمين وتقول لهم: «لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً».

«الاسوة»: لها معنيان: فهى تارة تعنى الإصلاح والعلاج ومن هنا قيل للطبيب «آسى»، وتارة تعنى «الغمّ والحزن».

يعتقد البعض أنّ هذه المفردة لو كانت «معتلًا واوياً» لكانت بالمعنى الأوّل، ولو كانت «معتلًا يائياً»، لكانت بالمعنى الثانى.

كما احتمل أيضاً عودة كلا المعنيين إلى معنى واحد باعتبار أنّ الغمّ والحزن والأسى إنّما يكون على ما فيه الصلاح والعلاج.

على أيّة حال فظاهر معنى الآية الخامسة هو الإقتداء والإقتفاء (باعتبار أنّ الإقتداء بالعظماء يعدّ من أفضل طرق الصلاح).

الملفت للنظر أنّ «الاسوة» ك «القدوة» لها معنىً مصدرى وهو الإقتداء والمتابعة وليس معنىً وصفيّاً كما هو متداول اليوم، وبعبارة اخرى فالقرآن الكريم لا يقول: النبى الأكرم صلى الله عليه و آله قدوة لكم، بل يقول: فى وجوده قدوة حسنة (تأمّل جيّداً).

التعبير ب «لقد» للتأكيد، وذكر «كان» إشارة إلى حقيقة كون النبى الأكرم صلى الله عليه و آله قدوة للمسلمين على مرّ الزمن.

مع أنّ المخاطب فى هذه الآية (لكم) يشمل كلّ المؤمنين، لكن جملة: «لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً» تفيد أنّ الأشخاص الذين يتّصفون بهذه الأوصاف، وهى رجاء رحمة اللَّه واليوم الآخر والذكر الكثير للَّه‌تعالى، هم فقط اولئك الذين يتسنّى لهم الاستفادة من هذه القدوة الحسنة.

وبالرغم من أنّ هذه الآية ناظرة إلى استقامة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله وشجاعته الخارقة فى معركة الأحزاب: ولكن هذا لا يحدّد مفهوم الآية نظراً لإطلاقه وخلوّه من كلّ قيد أو شرط.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۷۰

الإجابة عن سؤال:

وهنا يتبادر فى الذهن هذا السؤال وهو: هل يمكن الإقتداء المطلق بلا قيد أو شرط بمن لا يتمتّع بمقام العصمة؟! والجواب واضح وهو يمثل دليلًا وشاهداً على مسألة العصمة، إذن فالأمر بالإقتداء هذا خير دليل على حقيقة معصوميته، وإلّا لما جاز أن يكون قدوة فى كلّ شىء، ولكلّ شخص فى أيّ زمان ومكان.

ومن هنا فالآية الآنفة الذكر متّفقة مع الآيات التى تأمر المؤمنين بإطاعة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله بلا قيد أو شرط (الآيات السابقة).

ربّما قيل: إنّ التعبير ب «الاسوة» قد جاء فى القرآن فى موضعين آخرين (الممتحنة/ ۴ و ۶) وأنّه شامل للمؤمنين الذين كانوا مع نبى عظيم كإبراهيم عليه السلام، بالإضافة إليه، بالرغم من عدم عصمتهم، يقول تعالى: «قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ». (الممتحنة/ ۴)

لكنّ التدقيق فى الآية المذكورة يكشف انحصار الإقتداء والتأسّي هنا فى بُعد واحد فقط، ألا وهو مسألة البراءة من المشركين إذ إنّ هناك طائفة من المسلمين فى عصر النبى الأكرم صلى الله عليه و آله حديثو عهد لم يستسيغوا التخلى عن أقربائهم ومعارفهم من

المشركين بسهولة، وهنا يقول القرآن: اقتدوا بإبراهيم وأصحابه فعندما أصبحوا موحدين أعلنوا عن استيائهم من المشركين والبراءة منهم.

كما أنّ الآية السادسة من هذه السورة تؤكّد على هذا الموضوع أيضاً، وبناءً على هذا فالخطاب لم يقصد منه مطلق الإقتداء والتأسّي بأصحاب إبراهيم عليه السلام (تأمّل جيّداً).

والمخاطب فى الآية السادسة هم أهل بيت النبى الأكرم صلى الله عليه و آله إذ يقول تعالى: «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً».

جاء فى مقاييس اللغة أنّ أصل «الرجس» هو «الإختلاط»، ثمّ أطلق على الأشياء النجسة لاختلاطها بشىء آخر.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۷۱

لكن «الراغب» فسّر أصل الرجس فى «مفرداته» بمعنى «الشىء القذر» وقال: إنّه يكون على أربعة أوجه: إمّا من حيث الطبع، وإمّا من جهة العقل، وإمّا من جهة الشرع، وإمّا من كلّ ذلك.

وقد ذكر البعض مصاديق أو معانىَ عديدة ل «الرجس» كالذنب والشرك والحسد والبخل، والقذارة، النجس المختلط، الصديد والجراحة، الصياح الخارج عن الحدّ المتعارف، الشكّ، الكفر، اللعن، الرائحة الكريهة وأمثالها.

يبدو أنّ «الرجس» فى هذه الآية ونظراً لإطلاقها، له معنى واسع شامل، لكلّ أنواع الذنب والشرك والبخل والحسد والفسوق الظاهرى والباطنى والأخلاق والعادات السيّئة التى تشمئز منها النفوس، والحقيقة أنّ أهل بيت النبى الأكرم صلى الله عليه و آله وبإرادة من اللَّه تعالى كانوا مطهّرين من كلّ هذه الامور، ولا شكّ أنّ هذه الآية تثبت مسألة العصمة فى شخص النبى الأكرم صلى الله عليه و آله وأهل بيته (أمّا فيما يتعلّق بالمراد من أهل البيت ومن هم؟ فسيأتى الكلام عن ذلك إن شاء اللَّه تعالى)، إنّ إرادته تعالى لابدّ وأن تتحقّق، وإرادته فى إذهاب الرجس عن هذه الاسرة لا يعنى سوى «ضمان عصمتهم» مفهوماً، لبداهة كون الشرك والذنب من أجلى مصاديق الرجس والقذارة، ولا شكّ أنّ نفى الرجس بشكل مطلق يشمل الذنوب أيضاً.

هل أنّ هذه الإرادة تشريعية أم تكوينية؟ وبعبارة اخرى، هل أنّ اللَّه تعالى أمر أهل البيت بعدم ارتكاب الذنوب والقبائح، أم أنّه تعالى أودع الطهارة فى نفوسهم؟

بديهى أنّ المراد ليس المعنى الأوّل، نظراً لعدم انحصار الإرادة التشريعية (التكليف بأداء الواجبات وترك المحرّمات) باسرة النبى فقط، بل شمولها لكلّ الناس بلا استثناء فى اجتناب الذنوب، فى حين أنّ كلمة «إنّما» تدلّ على اختصاص وانحصار هذه الموهبة فى أهل بيت النبى الأكرم صلى الله عليه و آله (تأمّل جيّداً).

وبناءً على هذا ف «الإرادة» هنا تنحصر بالإرادة التكوينية، لكن ليس بذلك المعنى الذى يستلزم القول بالجبر وأنّ أهل بيت النبى الأكرم صلى الله عليه و آله مجبرون على العصمة، لأنّ الأنبياء

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۷۲

والأئمّة- وكما سيأتى الحديث عن ذلك بالتفصيل- لا يذنبون مع قدرتهم على ارتكاب الذنب، حيث إنّ اللَّه تعالى قد منحهم سلسلة من المعارف والمبادىء الفطرية التى تدعوهم إلى الطهارة، بالضبط مثل العاقل الذى تمنعه معرفته ومبادؤه الفطرية من خروجه إلى الزقاق عارياً كما خلقه اللَّه تعالى، مع بداهة قدرته على ذلك (سيأتى شرح وافٍ لهذا الموضوع فى ذيل الآيات).

من هم أهل البيت؟

مع كون عبارة أهل البيت مطلقة، لكن المراد منها هم أهل بيت النبى الأكرم صلى الله عليه و آله بقرينة الآيات السابقة واللاحقة، واتّفاق علماء الإسلام والمفسّرين على ذلك.

المهمّ هنا هو مَنِ المراد من أهل البيت عليهم السلام، هل النبى الأكرم صلى الله عليه و آله وعلى وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام (هذه الأنوار الخمسة المقدّسة) فقط، أم زوجات النبى الأكرم صلى الله عليه و آله وباقى أقربائه أيضاً؟

عموم علماء الشيعة والبعض من علماء السنّة أخذوا بالقول الأوّل، فى حين ذهب الكثير من علماء أهل السنّه إلى القول الثانى «۱».

ولأجل الوقوف على حقيقة المراد من أهل البيت فى الآية الشريفة، لابدّ من التأمّل فى الروايات الكثيرة المذكورة فى ذيل هذه الآية عن الكثير من الصحابة عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله.

۱- السيوطى فى «الدرّ المنثور» الذى يُعدّ من أشهر كتب أحاديث تفسير القرآن عند أهل السنّة، ذكر حوالى عشرين حديثاً فى ذيل هذه الآية، جاء فى خمسة عشر منها أنّها نزلت فى حقّ الخمسة أهل الكساء، أى: النبى الأكرم صلى الله عليه و آله وعلى وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، واللطيف هنا هو انتهاء عشر من هذه الروايات الخمس إلى النبى الأكرم صلى الله عليه و آله

---

(۱) جاء فى «فى ظلال القرآن» أنّ التعبير بأهل البيت بشكل مطلق إشارة إلى أنّ البيت الحقيقى فى العالم هو بيت النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، «مثلما أنّ هذا التعبير قد ورد بشكل مطلق فى حقّ بيت اللّه الحرام فى البعض من آيات القرآن» وفى الواقع فانّ هذا التعبير هو نوع تكريم وتعظيم خاصّين لأهل بيت النبى الأكرم صلى الله عليه و آله.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۷۳

وكون رواتها هم امّ سلمة، أبو سعيد، عائشة، سعد، واصل بن أصقع، أبو سعيد الخدرى، أنس، أبو الحمراء. (البعض من هذه الروايات ينتهى سندها إلى امّ سلمة زوجة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله).

فى حين أنّ أربعة من هذه الأحاديث فقط تشير إلى أنّ الآيات ناظرة إلى زوجات النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، والملفت للنظر هو أنّ أيّاً من هذه الأحاديث الأربعة لا ينتهى سنداً إلى النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، بل قد نقلت عن ابن عبّاس وعروة وآخرين كما شهدوا على ذلك بأنفسهم، فضلًا عن رائحة الوضع التى تشمّ منها، إذ قد ورد فى أربعتها أنّ المراد من الآية زوجات النبى الأكرم صلى الله عليه و آله فقط! فى حين أنّ الخطاب ب «كم» فى جملة «لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ» و «وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً»، الوارد بصيغة المذكّر يبيّن أنّ هناك رجالًا مخاطبين فى هذه الآية أيضاً، على خلاف الآيات السابقة النازلة فى خصوص نساء النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، والتى استعمل فيها «نون النِسوة»، إذن فالحديث القائل بأنّ المراد هو زوجات النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، هو خلاف ظاهر القرآن ولا يمكن قبوله.

۲- هناك العديد من الروايات فى باب حديث الكساء بين طيّات المصادر الإسلامية (وخاصّة مصادر أهل السنّة) التى يستخلص منها هذا المعنى وهو أنّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، دعا عليّاً وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام (أو أنّهم حضروا عنده) وغطّاهم بردائه، وقال طبقاً لرواية عن جعفر الطيّار (ابن عمّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله) اللهمّ لكلّ نبى أهل وإنّ هؤلاء أهلى، فأنزل اللّه تعالى: «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً»، وفى هذه الأثناء تقدّمت زينب زوجة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله وقالت: ألا أدخل معكم؟ قال مكانك فإنّك على خير إن شاء اللّه «۱».

---

(۱) شواهد التنزيل للحسكانى، ج ۲، ص ۳۲، ح ۶۷۳.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۷۴

هذا الحديث يصرّح بعدم دخول زوجات النبى الأكرم صلى الله عليه و آله فى آية التطهير.

والأهمّ من هذا هو الحديث الوارد عن عائشة بنفس هذا المعنى والذى تقول فى خاتمته: فقلت: يارسول اللّه ألست من أهلك؟ قال صلى الله عليه و آله: «إنّك لعلى خير، ولم يدخلنى معهم» «۱».

كما أنّ نفس هذا المعنى جاء فى صحيح مسلم، غاية الأمر أنّ ذيل الحديث الذى يرتبط بطلب عائشة لم يرد فيه «۲».

وورد نفس هذا المعنى فى حديث آخر عن «امّ سلمة» وأنّها قالت فى ذيله: يارسول اللَّه وأنا معهم؟! قال: إنّك على خير (لكنّك لست منهم) «۳».

ونقل «الحاكم» نفس هذا المعنى بصراحة أكبر فى «مستدرك الصحيحين» عن امّ سلمة أنّه صلى الله عليه و آله قال: «إنّك على خير وهؤلاء أهل بيتى» «۴».

حديث امّ سلمة هذا ورد فى الكثير من الكتب المعروفة، من جملتها ما جاء فى «صحيح الترمذى» أنّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله حينما غطّى عليّاً وفاطمة والحسن والحسين بردائه وقال: «اللهمّ! هؤلاء أهل بيتى فأذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً، فقالت امّ سلمة: وأنا معهم يانبى اللَّه؟! فقال النبى صلى الله عليه و آله: أنت على مكانك وأنت على خير» (وإن لم تكونى فى زمرة أهل البيت فى هذه الآية) «۵».

هذه التعابير تبيّن بمجموعها وبكلّ وضوح أنّ الآية لم تشمل أيّاً من زوجات النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، لا «امّ سلمة» ولا «عائشة» ولا سواهما، والذى يدعو للإستغراب هو إصرار البعض من مفسّرى أهل السنّة على شمول هذه الآية لزوجات النبى الأكرم صلى الله عليه و آله مع عدم اكتراثهم بكلّ هذه الأحاديث المعروفة المعتبرة.

---

(۱) شواهد التنزيل للحسكانى، ج ۲، ص ۳۸، ح ۶۸۳.

(۲) صحيح مسلم، ج ۴، ص ۱۸۸۳ (باب فضائل أهل بيت النبى) ح ۶۱.

(۳) ابن الأثير نقل هذا الحديث فى اسد الغابة، ج ۳، ص ۴۱۳.

(۴) مستدرك الصحيحين، ج ۲، ص ۴۱۶ (ط. حيدر آباد دكن) نقلًا عن إحقاق الحقّ، ج ۳، ص ۵۱۸.

(۵) صحيح الترمذى، ج ۵، كتاب تفسير القرآن، الباب ۳۴، ص ۳۵۱، ح ۳۲۰.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۷۵

والعجيب من الفخر الرازى المعروف بشروحه وتفصيلاته الوافية ودقّة ملاحظاته عند تناول آيات القرآن، هو مروره مرّ الكرام على هذه الآية التى يطول فيها الحديث من كافّة الأبعاد، وتفسيره لها لفظيّاً بسطرين أو ثلاثة لا غير؟!

لماذا يبتلى عالم بمثل هذا التعصّب الذى يغلق عليه أبواب الحقيقة مع ما تميّز به من قابلية واطّلاع واسع؟!

۳- الملاحظة الاخرى هى أنّه: قد جاء فى الكثير من الأحاديث، والتى اشير إلى البعض منها فيما تقدّم أنّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله وبعد نزول هذه الآية كان ينادى لمدّة أربعين يوماً أو ستّة أشهر أو ثمانية أشهر أو أكثر من ذلك عند صلاة الفجر، أو كلّ الصلوات أو حين مروره ببيت فاطمة الزهراء عليها السلام: الصلاة يا أهل البيت إنّما يريد اللَّه ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً»، وجاء فى البعض منها أنّه صلى الله عليه و آله كان يقول: «السلام عليكم ورحمة اللَّه وبركاته أهل البيت إنّما يريد اللَّه ...» «۱».

التفاوت الملحوظ فى هذه الروايات من الناحية الزمنية لا أهميّة له أصلًا، إذ من الممكن أنّ «أنساً» قد شهد هذا الموقف ستّة أشهر، وأبا سعيد الخدرى ثمانية أشهر وغيرهما أكثر أو أقل، إذ فى الواقع كلّ يذكر المدّة التى شهدها هو بنفسه دون أن ينفى ما زاد عليها.

ولكن على أيّة حال فهذه الرواية دليل واضح جدّاً على أنّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، كان يريد بيان هذه الحقيقة لعموم المسلمين وترسيخها فى أذهانهم، وهى أنّ هذه الأسرة فقط دون سواها هى أهل بيته فى هذه الآية.

وإلقاؤه الرداء على هؤلاء النفر من أهل بيته وتشخيصه لهم به، وحجب الآخرين حتّى

---

(۱) جاء هذا الحديث فى شواهد التنزيل عن أنس بن مالك، ج ۲، ص ۱۱، وعن أبو سعيد الخدرى فى نفس الجزء، ص ۲۸ و ۲۹، وفى الدرّ المنثور فى ذيل الآية مورد البحث عن ابن عبّاس و أبو الحمراء.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۷۶

زوجاته من الدخول تحته إنّما هو لبيان أنّ مصاديق هذه الآية هم أهل الكساء فقط.

نحن لا ندرى لو أنّ أحداً أراد تمييز أفراد معدودين من بين جمع كثير، ومخاطبتهم، بحيث لا يعترض عليه أهل الشبهات والحجج، ماذا ينبغى له أن يفعل؟ ألا يكفى لهذا الغرض إلقاء الرداء عليهم، أو مخاطبتهم عند المرور بالقرب من منازلهم لشهور متوالية!

ألا يثير الدهشة والعجب إهمال البعض لهذه الحقائق، والإصرار على توسيع دائرة تلك الفضيلة المهمّة المحدودة بالخمسة أهل الكساء لتشمل غيرهم؟

والملفت للنظر أنّ الحاكم الحسكانى من علماء أهل السنّة المعروفين، قد ذكر أكثر من مائة وثلاثين حديثاً! حول هذا الموضوع.

و «السيّد علوى بن ظاهر الحضرمى» يقول فى كتاب «القول الفصل»: «حديث آية التطهير هو من الأحاديث المشهورة المتواترة التى تقبّلتها الامّة الإسلامية .. واعترف بصحّته سبعة عشر من كبار حفّاظ الحديث» «۱».

آخر ما يتعلّق بهذا الموضوع، هو أنّ الكثير من الروايات الواردة بهذا الشأن مذكورة فى كتاب «فضائل الخمسة من الصحاح الستّة» عن صحيح مسلم، صحيح الترمذى، تفسير الطبرى، مستدرك الصحيحين، مسند الإمام أحمد، خصائص النسائى، تاريخ بغداد، مسند أبى داود، اسد الغابة، وكتب اخرى يمكن الرجوع إليها لمزيد من الإطّلاع والتعمّق ولإمكانية الحكم بشأنها بشكل أفضل «۲».

فى الآية السابعة نطالع تعبيراً آخر يشير هو الآخر إلى مسألة عصمة الأنبياء أيضاً، وذلك حينما طرد الشيطان من رحمة اللَّه تعالى (وبدأت عداوته مع الإنسان)، إذ يقول: «قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ* إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ».

---

(۱) هذه الأحاديث ذكرها فى القول الفصل، ج ۲، ص ۱۰ إلى ۹۲، (ص ۸۲) فراجعها.

(۲) فضائل الخمسة من الصحاح الستّة، ج ۱، ص ۲۷۰ إلى ۲۸۹.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۷۷

هذا التعبير لا- ينحصر بالآية المذكورة، بل قد ورد نفس هذا المعنى أيضاً بتفاوت ضئيل: «وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ* إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ». (الحجر/ ۳۹- ۴۰)

و فى الآية الثامنة نرى هذا المعنى أيضاً بشكل آخر حيث يحكى تعالى عن فريق من الأنبياء الكبار: «إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ».

وكما قلنا فى خصائص الأنبياء عليهم السلام ف «المخلص» (بكسر اللام) هو الذى يسعى لتصفية قلبه وهى المرحلة الرفيعة من التقوى وطهارة القلب والمرحلة الأرفع والأسمى منها هى «المخلص» (بفتح اللام) وهو يختصّ باولئك الذين طهّرهم اللَّه تعالى من كلّ الشوائب والقبائح، نتيجة سعيهم المتواصل لتهذيب أنفسهم، ولهذا يرتبطون باللَّه تعالى بكلّ وجودهم، وبديهى أنّ الشيطان لا يجد إلى نفوسهم طريقاً أبداً، إذ لا مكان لغير اللَّه فى قلوبهم ولذا لا يفكّرون بمن سواه ولا يتمنّون غير رضاه.

ومن المسلّم أنّ صفة كهذه ملازمة لمرتبة العصمة، وذلك لخروجهم عن دائرة طاعة الشيطان، وبالشكل الذى جعله لا يفكّر فى صرفهم أبداً، كما أنّهم خالصون للَّهتعالى من ناحية الصفات النفسانية والميول والرغبات، ولهذا السبب لا تدنّسهم الخطيئة ولا يتّبعون الهوى.

ومن البديهى أنّ استثناء الشيطان للانبياء من بين بنى آدم، وعدم السعى لإغوائهم، ليس لاحترام خاصّ يكنّه لهم باعتبارهم مخلصين، بل ليأسه وقنوطه ويقينه بعجزه عن الوسوسة لهم.

و بالرغم من أنّ الآیات الآنفة الذکر لا تشیر صراحة إلى الأنبیاء أو الأئمّة المعصومین، لکن لفظة «المخلصین» وکیفما فسّرناها تخصّ الأنبیاء وأوصیاءهم، لعدم وجود أفضل منهم من بین عباد اللَّه، والملفت للنظر أنّ هذا التأیید الإلهی المانع من ارتکاب المعصیة وهو السبب فی العصمة، والذی یدور حول محور الإخلاص متجسّد فی قصّة یوسف أیضاً، یقول

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۷۸

تعالى: «کَذَلِکَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِینَ». (یوسف/ ۲۴)

هذا التعبیر یبیّن أنّ من یکون «مخلصاً» یتخلّص من ثورة هوى النفس وطغیانه، والوساوس الشیطانیة ببرکة الإمدادات الغیبیة، وجملة «إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِینَ» هی من قبیل القیاس منصوص العلّة، الذی یضفی العمومیة على مفهوم الآیة.

مفهوم عصمة الأنبیاء فی ظلّ الإخلاص یتّضح من خلال مقاومة یوسف علیه السلام، مع کونه شاباً أعزباً، وصموده أمام أمواج الخطیئة المتلاطمة التی أحاطت بزورق وجوده من کلّ حدبٍ وصوب، وفی ظروف حسّاسة تفوق المتعارف أمام الوساوس الکثیرة، التی أثارتها تلک المرأة الجذّابة، ولذا نجد أنّ لأقطاب المفسّرین عبارات تشیر إلى مقام عصمة الأنبیاء فی ذیل الآیات المذکورة «۱».

وفی الآیة التاسعة خوطب نبی الإسلام صلى الله علیه و آله ضمن الحدیث عن الأنبیاء السابقین، کإبراهیم وإسماعیل وإسحاق ویعقوب وموسى وعیسى، وفریق آخر من الأنبیاء الکبار بقوله تعالى: «أُوْلَئِکَ الَّذِینَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ» «۲».

الملفت للنظر أنّها تأمر النبی الأکرم صلى الله علیه و آله بالإقتداء بهدایتهم بلا قید أو شرط!، فهل یعقل عدم حصول اولئک الأنبیاء علیهم السلام على مقام العصمة ثمّ یؤمر نبی الإسلام صلى الله علیه و آله بالإقتداء بهم بلا قید أو شرط؟

وبعبارة اخرى: فی الآیة أعلاه تمّ التأکید أوّلًا على الهدایة الإلهیّة لهم، ثمّ تمّ التفریع على ذلک بالقول: الآن وبعد أن شملتهم الهدایة الإلهیّة اقتد بهداهم (تأمّل جیّداً).

ومن المسلّم أنّ المراد، بالهدایة الإلهیّة هنا لیس رسم الطریق فحسب، لعدم اختصاصه بالأنبیاء فقط بل لشموله لکلّ الناس حتّى الکفّار، وعلیه فالهدایة المذکورة هی نفس معنى الإیصال إلى المطلوب (وبلوغ المقصود) بعیداً عن أی خطأ وانحراف واشتباه ومعصیة.

---

(۱) راجع تفسیر مجمع البیان للطبرسی؛ تفسیر جامع البیان للشیخ الطوسی؛ وتفسیر المیزان للعلّامة الطباطبائی؛ تفسیر روح البیان للقرطبی؛ وتفسیر فی ظلال القرآن لسیّد قطب فی ذیل الآیات مورد البحث.

(۲) یجب ألّا یفوتنا أنّ «الهاء» فی لفظة «اقتده» لیست ضمیراً بل هاء السکتة التی تلحق الکلام عند الوقوف على الحرف المتحرّک.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۷۹

یقول المرحوم العلّامة الطباطبائی فی تفسیر «المیزان»: إنّ هذه الآیة خاصّة بالمعصومین.

بدیهی أنّ المراد بهدایة الأنبیاء هی تلک الاصول والمعارف التی بلغوها بأنفسهم، مضافاً إلى اصول تعلیماتهم العبادیة والسیاسیة والأخلاقیة والتربویة، ولا منافاة لهذا مع نسخ قسم من تفاصیل أحکام شریعتهم، کما أنّ تفسیرهم للهدایة بمعنى الإیمان أو الصبر وأمثالهما إنّما هو لاقتناعهم بما ذکره البعض من المصادیق.

واعتقاد البعض بأنّ الآیة منسوخة لیس فی محلّه، یقوله تعالى «لِکُلٍّ جَعَلْنَا مِنْکُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً» (المائدة/ ۴۸)

وهذه لأنّ هدایة الأنبیاء التی تشکّل الاصول العامّة لتعالیمهم غیر قابلة للتغییر، ولا تتأثّر بالتغیّرات الجزئیة للشرائع الناتجة عن الظروف الزمانیة والمکانیة، ولذا یقول القرآن على لسان المؤمنین الحقیقیین: «لَانُفَرِّقُ بَیْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ».

(البقرة/ ۲۸۵)

وخلاصة الکلام هی: أنّ الإقتداء بهُدى الأنبیاء السابقین هو نوع من «التحقیق» لا «التقلید» کما یراه البعض، لأنّ التحقیق هو قبول الشیء

بالدليل، ومقام عصمة الأنبياء وصدقهم هو بمثابة الدليل على حقّانية ما يقولونه، ولذا فاستنباط صفات اللّه تعالى أو تفصيلات المعاد من القرآن، هو فى الحقيقة نوع من التحقيق لا التقليد، وذلك لعدم انحصار الدليل بالعقل، بل هناك الدليل النقلى الثابت عن طريق الوحى والمقبول كالدليل العقلى (تأمّل جيّداً).

الآية العاشرة من آيات البحث إشارة إلى شخص النبى الأكرم صلى الله عليه و آله يقول تعالى: «وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَى .

يستفاد من هذا التعبير بكلّ وضوح أنّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله لا يكذب ولا يخطأ فى كلامه أبداً، ولا سبيل للضلال والإنحراف إليه: «مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى .

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۸۰

ولذا- وعلى حدّ قول بعض المفسّرين- يستفاد من هذه الآيات بما لا يدع مجالًا للشكّ، أنّ سنّة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله هى ك «الوحى المنزل» «۱».

امّا إلى ماذا يعود الضمير «هو» فى جملة «إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَى ؟ الظاهر أنّه يعود على «النطق» المستفاد من جملة «ومَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى ، أى أنّ «كلامه وحى إلهى»، سواء أكان هذا الكلام آيات قرآنية أم أحكام ومواعظ وحكم، وأمثال ذلك، فكلّها تتمتّع بجذور إلهيّة.

وكما يستفاد من الآيات أعلاه أنّ المصدر الرئيسى للضلال والانحراف هو اتّباع هوى النفس، وأنّ من يسيطر على هوى نفسه بشكل تامّ لا يعصى اللّه تعالى، لأنّ تقواه تحفّظه من الإنحراف لاقترانها بوضوح الرؤية فى كافّة المراحل، وحين بلوغ المرحلة السامية، يصل وضوح الرؤية بدوره إلى مرحلة الكمال أيضاً، وبناءً على هذا لا يرتكب ذنباً ولا خطيئة (تأمّل جيّداً).

ثمرة البحث:

ممّا لاشك فيه أن الآيات السابقة لا تتماثل ولا تتشابه فى بيان كيفيّة وأبعاد عصمة الأنبياء، فبعضها يعتبرها عصمة من الذنب أو الصيانة من الخطأ فقط، والآخر يعتبرها عموميّة وشموليّة لكلّ الامور، والبعض تحدثت عن نبى الإسلام صلى الله عليه و آله، والبعض الآخر عن الأنبياء السابقين، بعضها وصفت العصمة بعصمة القول، بينما البعض الآخر اعتبرتها شاملة للفعل أيضاً.

لكنّ مجموع هذه الآيات يثبت هذه الحقيقة، وهى: أنّ الأنبياء منزّهون معصومون من أى ذنب أو خطأ، كما أنّ عصمة أهل بيت النبى الأكرم صلى الله عليه و آله الثابتة بالآيات المذكورة، هى ممّا لا يخفى وهو ما كنّا بصدده.

---

(۱) يقول القرطبى فى تفسيره، ج ۹، ص ۶۲۵۵ وفيها أيضاً دلالة على أنّ السنّة كالوحى المنزل فى العمل.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۸۱

تنزيه الأنبياء عليهم السلام

اشارة

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۸۳

تنزيه الأنبياء

اشارة

إن أوّل ما نتناوله فی هذا البحث التعابیر الواردة فی آیات القرآن المجید، التی توهم لأوّل وهلة أنّها دلیل علی صدور ذنب أو خطأ من اولئک الأنبیاء العظماء فی بعض الأحیان.

سنذکر فیما یلی أهمّ الآیات التی تحدّثت حول هذا الموضوع، طبقاً للترتیب التأریخی للأنبیاء علیهم السلام.

۱- آدم علیه السلام

نقرأ فی القرآن الکریم: «وَعَصَی آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَی . (طه/ ۱۲۱)

وکذلک فی قوله تعالی «وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَی آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِیَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً».

(طه/ ۱۱۵)

لقد نسبت الآیة الاولی العصیان والغی إلی آدم، والثانیة نسبت إلیه النسیان وعدم العزم مع أنّ هذا لا یتناسب مع عصمة الأنبیاء وبعید عنهم کلّ البعد.

الجواب:

هنالک أبحاث متنوّعة للمفسّرین منذ قدیم الأیّام وإلی الآن حول الإجابة عن هذا السؤال، لقد ذهب بعض المفسرین- ودون الأخذ بنظر الاعتبار الأدلة العقلیة والنقلیة- إلی أنّ ما صدر من آدم علیه السلام یُعدُّ من الذنوب الکبیرة، إلّاأنّه یرتبط بالفترة التی سبقت نُبوّته.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۸۴

وبعضهم حمل هذه المعصیة علی کونها من الذنوب الصغیرة ولم یعرها أیة اهمیة.

وبالرغم من الآیات الواردة والمتعلقة بعصمة الأنبیاء والمنزلة الرفیعة التی أولاها اللَّه سبحانه وتعالی لهم، وبالأخص لآدم علیه السلام، حیث جعله خلیفتهُ وحجّته، إلّاأنّهم لم یذعنوا لمثل هذه الادلة ولم یسلِّموا لها، بل أخذ کل واحد منهم یبتکر حلًا ویذهب مذهباً للخروج من هذه المعضلة، ومن بین هذه التفاسیر یمکن الرکون إلی ثلاثة آراء باعتبارها الطریق الامثل لحل هذا الاشکال وهی:

أ) کان نهی آدم نهیّاً إختباریاً- مع الأخذ بنظر الاعتبار أنّ آدم کان قد خلق للعیش فی الأرض لا الجنّة، وأنّ فترة وجوده فی الجنّة کانت فترة اختبار لا- تکلیف، إذن فأوامر اللَّه ونواهیه هناک کانت لغرض إعداد آدم، بحیث یتلاءم وحوادث المستقبل فیما یتعلّق بالواجب والحرام.

وبناءً علی هذا فقد خالف آدم أمراً إختباریاً فقط لا أمراً واجباً قطعیّاً.

فی حدیث للإمام علی بن موسی الرضا علیه السلام وفی معرض ردّه علی «علی بن محمّد بن الجهم»، الذی یعدّ من متکلّمی ذلک العصر المعروفین، وکان یعتقد بعدم عصمة الأنبیاء استناداً إلی بعض ظواهر الآیات القرآنیة، قال علیه السلام له: «ویحک یاعلی اتّق اللَّه ولا تنسب إلی أنبیاء اللَّه الفواحش ولا تتأوّل کتاب اللَّه برأیک فإنّ اللَّه عزّوجلّ یقول: «وَمَا یَعْلَمُ تَأْوِیلَهُ إِلَّا اللَّهُ» ثمّ أضاف قائلًا: أمّا قول اللَّه عزّوجلّ فی آدم علیه السلام: «وَعَصَی آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَی ، فانّ اللَّه عزّوجلّ خلق آدم حجّته فی أرضه وخلیفته فی بلاده، لم یخلقه للجنّة وکانت المعصیة من آدم فی الجنّة لا فی الأرض، (والجنّة لم تکن دار تکلیف بل دار اختبار) لتتمّ مقادیر أمر اللَّه عزّوجلّ، فلمّا اهبط إلی الأرض وجعل حجّة اللَّه وخلیفته عصم بقوله عزّوجلّ: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَی آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِیمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَی الْعَالَمِینَ»» «۱».

ب) کان نهی آدم نهیاً إرشادیاً- یعتقد جمع من المفسرین أنّ أوامر الأنبیاء ونواهیهم ومن جملتهم آدم علیه السلام والتی لم تطبّق،

كانت ذات جانب إرشادى، مثل أمر الطبيب للمريض

(۱) بحار الأنوار، ج ۱۱، ص ۷۲.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۸۵

بتناول الدواء الفلانى، والاجتناب عن الطعام الفلانى غير المناسب، فمتى ما خالف المريض أمر الطبيب فسيضرّ نفسه، لعدم اكتراثه بإرشاد الطبيب وتعليماته.

فمن الممكن هنا عصيان أمر الطبيب ومخالفته، ولكن من المسلّم أنّ هذا سيكون على حساب صحّة المريض، ولا يعنى الإستهانة بمقام الطبيب أبداً، وهكذا فقد قال اللَّه تعالى لآدم: لا تأكل من هذه «الشجرة» وإلّا فستطرد من الجنّة ونعيمها، وتلاقى المشقّة والعذاب: «فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى* إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى وَأَنَّكَ لَاتَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَى . (طه/ ۱۱۷- ۱۱۹)

وبناءً على هذا فقد خالف آدم نهياً إرشادياً، لا أمراً إلهيّا واجباً، فواجه المصاعب، كما أنّ التعبير ب «العصيان» لا يخدش فى عصمة آدم أبداً، لو أخذنا بنظر الاعتبار القرائن الموجودة فى سائر الآيات.

ومن هنا يتّضح أيضاً تفسير جملة «فغوى» فى ذيل نفس هذه الآية، وأنّ المراد منها هو حرمانه من نعيم الجنّة، لا «الغواية» التى تعنى التصرّفات المنبثقة عن الإعتقادات الخاطئة، أو الامور التى تحول دون بلوغ الإنسان لمراده، وعلى أيّة حال فلو أنّ آدم لم يخالف هذا النهى الإرشادى لمكث فى الجنّة فترة أطول.

ج) كان تركاً للأولى هذا الجواب له مؤيّدون أكثر ليس هنا فقط، بل فى كلّ الموارد التى ينسب فيها الذنب إلى الأنبياء فإنّها تفسّر بهذه الطريقة.

توضيح ذلك: الذنب والمعصية على نوعين: مطلق، ونسبى، والمراد بالقسم الأوّل هو كلّ تلك الذنوب التى تعدّ ذنباً حين صدورها من أى شخص ولا استثناء فيها أبداً، كأكل المال الحرام والظلم والزنا والكذب.

امّا الذنب النسبى فهو ذلك الذنب الذى يعدّ تصرّفاً غير مرغوب فيه قياساً بمقام وشخصية ومعرفة الأشخاص، وما أكثر ما يعد صدور هذا الشىء من الآخرين فضيلة فضلًا عن عدم اعتباره عيباً.

فمثلًا الصلاة المناسبة لشخص امّى لا تليق أبداً بعالم عارف له تاريخ علمى طويل، أو

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۸۶

أنّ تبرّعاً متواضعاً من عامل بسيط يكلّفه اجرة يومه لمشروع خيرى عام كبناء مدرسة أو مستشفى أو مسجد يعدّ فى نفسه عملًا خيّراً بل إيثاراً كبيراً، فى حين أنّه لو تبرّع أحد الأثرياء المعروفين بنفس هذا المبلغ، لتعرّض للذمّ والإتّهام بضعف الهمّة والبخل وهذا هو مصداق القول المعروف بين العلماء والفضلاء إنّ: «حسنات الأبرار سيّئات المقرّبين».

وبناء على هذا فما يصدر من الأنبياء يسمّى عصياناً لعدم لياقته بمنزلتهم الرفيعة وإيمانهم ومعرفتهم، قد يكون عين «الطاعة» حين صدوره عن غيرهم، فأداء الصلاة بقليل من حضور القلب يعدّ للشخص العادى فضيلة بينما يعدّ ذنباً بالنسبة للنبى أو الإمام (ذنب نسبى لا مطلق).

كلّ التعابير حول معصية الأنبياء وذنوبهم سواء فيما يتعلّق بآدم أو بخاتم الأنبياء عليهما السلام، والتى تلاحظ فى الآيات والروايات، يمكن أن تكون إشارة إلى نفس هذا المعنى.

كما ويعبّر أحياناً عن هذا المعنى ب «ترك الأولى»، والمراد به ذلك العمل الذى يكون تركه أولى من فعله، هذا العمل الذى يمكن أن يكون من «المكروهات» أو «المباحات» بل وحتّى «المستحبّات» أيضاً، فالطواف المستحبّ مثلًا، ومع كونه عملًا حسناً مقبولًا، لكن

ترکه والسعی وراء قضاء حاجة المؤمن أولی وأفضل «کما جاء فی الروایات».

الآن لو أنّ أحداً لم یقدم علی قضاء حاجة المؤمن، وذهب بدل ذلک للطواف حول بیت اللَّه تعالی، فقد ترک الأولی مع إتیانه بعمل مستحبّ بذاته، ولا یلیق هذا الشیء بأولیاء اللَّه وأنبیائه وأئمّة الهدی علیهم السلام، وتوهّم البعض بأنّ ترک الأولی یطلق علی الموارد المکروهة فقط، إلّاأنّ هذا الوهم فی غیر محلّه بل هو خطأ محض. (فتأمّل).

علی أیّة حال فمقولة الذنب النسبی وتحت عنوان ترک الأولی یمکن أن یکون جواباً حسناً لکلّ الأسئلة التی تثار حول الآیات والروایات التی نسب فیها الذنب إلی المعصومین.

الملفت للنظر أنّ التعبیر ب «المعصیة» فیما یتعلّق ب «ترک المستحبّات» قد ورد فی الروایات الإسلامیة أیضاً، من جملتها الحدیث المعتبر عن الإمام الباقر علیه السلام فی حدیثه

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۸۷

عن النوافل الیومیة قال: «إنّما هذا کلّه تطوّع ولیس بمفروض إنّ تارک الفریضة کافر وإنّ تارک هذا لیس بکافر ولکنّها معصیة» «۱».

کما أنّ معنی «العصیان» لغویّاً وکما ذکره الراغب فی مفرداته، هو کلّ خروج عن دائرة الطاعة (سواء أکانت هذه الطاعة فی الأوامر الوجوبیة أو الإستحبابیة) «۲».

سؤال: یمکن أن یقال هنا: صحیح أنّ للعصیان والذنب مفهوماً واسعاً بحیث یشمل أحیاناً ترک المستحبّ والأولی أیضاً، وأنّه یتفاوت بتفاوت الأشخاص، لکن ما هی الحکمة من تکرار اللَّه تعالی التعبیر بالمعصیة بحقّ أنبیائه المکرّمین فی آیات القرآن المجید؟

جواب هذا السؤال ذکر فی حدیث لطیف نقله المرحوم الطبرسی فی کتاب الإحتجاج عن أمیر المؤمنین علیه السلام، وهو حدیث طویل جاء فی فقرة منه أنّ زندیقاً قال: إنّی أجد اللَّه قد شهر هفوات أنبیائه مثل «وَعَصَی آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَی (فما الحکمة من هذا؟).

فقال الإمام علیه السلام: «وأمّا هفوات الأنبیاء علیهم السلام وما بیّنه اللَّه فی کتابه و ... فانّ ذلک من أدلّ الدلائل علی حکمة اللَّه عزّوجلّ الباهرة وقدرته القاهرة، لأنّه علم أنّ براهین الأنبیاء تکبر فی صدور اممهم، وأنّ منهم من یتّخذ بعضهم إلهاً، کالذی کان من النصاری فی ابن مریم، فذکرها دلالة علی تخلّفهم عن الکمال الذی تفرّد به عزّوجلّ» (ولئلّا یراود فکر الوهیتهم ذهن أحد أبداً) «۳».

ثمرة البحث:

ما جاء عن آدم وکذلک سائر الأنبیاء من أنّهم ارتکبوا الذنب والمعصیة، له ثلاثة أجوبة رئیسیة تفی بالمطلوب مجتمعة أو منفردة، ولا منافاة بینها فی نفس الوقت، أی أنّ هذه التعابیر یمکن أن تُشیر إلی ترک الأوامر الإختباریة والإرشادیة وکذلک ترک الأولی، هذا

---

(۱) تهذیب الأحکام (طبقاً لما نقله تفسیر نور الثقلین، ج ۳، ص ۴۰۴، ح ۱۶۵).

(۲) مفردات الراغب، مادّة (عصی).

(۳) تفسیر نور الثقلین، ج ۳، ص ۳۰۳، ح ۱۷۳.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۸۸

بالنسبة لآدم، امّا سائر الأنبیاء فیمکن أن تنظر إلی القسمین الأخیرین، أی ترک الأوامر الإرشادیة وترک الأولی (تأمّل جیّداً).

۲- نوح علیه السلام

تقرأ فی قصّة نوح علیه السلام: أنّه حینما بدأ الطوفان بسبب الأمطار الغزیرة المنهمرة من السماء، والمیاه المتدفّقة من باطن الأرض، لم

تمض مدّة طويلة حتّى أحاط الماء بكلّ مكان، وأنّ نوحاً وأصحابه ركبوا السفينة، وتعرّض إبنه للغرق لتمرّده على أمر أبيه، وعدم إيمانه الذى يعدّ شرطاً لركوب السفينة، فنظر نوح إلى السماء وقال: «رَبِّ إِنَّ ابْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ». (هود/ ۴۵)

أى قد وعدتنى بإنقاذ أهلى، فعاتب اللَّه سبحانه نوح على الفور بخطاب قال فيه: «إِنَّهُ لَيسَ مِنْ أَهلِكَ». (هود/ ۴۶)

فَلِمَ تطلب ما ليس لك به علم؟! فاعتذر نوح وقال: «قَالَ رَبِّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِى أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ». (هود/ ۴۷)

فى هذه الآية يعتذر نوح عليه السلام عن طلبه ما ليس له به علم، ويطلب من اللَّه تعالى العفو والرحمة والمغفرة، كما ويقول أيضاً: إن لم تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين.

السؤال هو: كيف تتلاءم هذه المواضيع الثلاثة ومقام عصمة الأنبياء؟

الجواب: يجب أوّلًا التدقيق فى نوع الخطأ الذى ارتكبه نوح؟ هل كان ذنباً، أم تصرّفاً فى حدّ ترك الأولى؟ طبعاً كان اللَّه تعالى قد حذّر نوحاً من مغبّة الشفاعة للظالمين (المشركين) لأنّهم مغرقون، قال تعالى: «وَلَا تُخَاطِبْنِى فِى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ». (هود/ ۳۷)

ولكن هل أنّ نوحاً كان يعلم بأنّ ابنه من زمرة الكفّار؟، إذ من الممكن وكما احتمله بعض المفسّرين أنّ الولد كان يخفى حاله عن أبيه، وما أكثر اولئك الأبناء الذين نسمع عنهم أو نراهم يتظاهرون أمام آبائهم بالصلاح، فى حين ينتهجون نهجاً آخر فى غيابهم.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۸۹

مضافاً إلى ذلك، وطبقاً للآية «قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ» (۱). (هود/ ۴۰)

فقد كان نوح يتصوّر أنّ إبنه سيكون من أهل النجاة، إعتماداً على الوعد الإلهى، ولذا طلب من اللَّه تعالى ذلك فى الآيات مورد البحث: «وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ». (هود/ ۴۵)

فى هذه الحادثة لا نشاهد أى مصداق للذنب والمعصية من نوح سوى ترك الأولى، إذ كان ينبغى عليه أن يتحقّق أكثر فى حال ولده قبل أن يطلب من اللَّه تعالى نجاته، كما أنّ تعبير نوح بالنسبة لولده حين ناداه وقال له: «يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ» (هود/ ۴۲) ولم يقل (من الكافرين) قرينة على أنّ نوحاً لم يكن يعتبر ولده من الكافرين بل معهم.

كما قال البعض أيضاً: إنّ نوحاً كان يعلم بكفر إبنه، لكن حبّه الشديد له (بالإضافة إلى حالة الإضطراب التى أحاطت به عند حدوث الطوفان، والتى كانت تفوق العادة) كان السبب وراء تجاهل نوح لوضع إبنه ولو مؤقتاً للجوء إلى اللَّه تعالى لإنقاذه، لكنّه انتبه بعد الإنذار الإلهى واعتذر لتركه الأولى.

۳- إبراهيم عليه السلام

هناك تعابير تبدو عند تفسيرها لأوّل وهلة وكأنّها نوع من الذنب، وردت حول هذا النبى العظيم الذى يتميّز بمكانة خاصّة حتّى من بين الأنبياء عليهم السلام، من حيث الإيمان والإخلاص والإيثار والشجاعة والصبر والإستقامة، نقر أ فى القرآن الكريم أنّه القى القبض عليه بعد تحطيمه للأصنام وَمَثُلَ فى المحكمة فسألوه: «قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ»؟

(الانبياء/ ۶۲- ۶۳)

فأجاب: «بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنطِقُونَ».

---

(۱) يمكن أن يكون هذا التعبير إشارة إلى الآية ۳۷ من نفس سورة هود «عدّة آيات قبل الآية مورد البحث» حيث يقول تعالى: «وَلَا تُخَاطِبْنِى فِى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ» وأنّ واحداً من أجلى مصاديقها يتحقق فى زوجة نوح التى التحقت بالكفّار وأنّ نوحاً بدوره لم يتعرّض للحديث عن نجاتها أبداً.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۹۰

وهنا يرد إشكال وهو: كيف نسب ابراهيم عليه السلام عمله هذا إلى كبير الأصنام، أليس هذا كذباً؟!

وفی نفس هـذه الحادثـة وعنـدما طلب منه المشـركون الخروج معهم خارج المدينـة للإحتفال بعيد الأصـنام، إعتذر من الذهاب معهم بقوله: «إِنِّی سَقِيمٌ». (الصافات/ ۸۹)

ومع أنّه لم يكن مريضاً، فكيف يتناسب هذا الكلام مع منزلة عصـمته؟ كما نقرأ فی القرآن الكريم أنّ إبراهيم يصرّح بأنّه يتمنّى غفران ذنوبه ويقول: «وَالَّذِی أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِی خَطِيئَتِی يَوْمَ الدِّينِ». (الشعراء/ ۸۲)

ألم يكن هذا الإعتراف دليلًا على صدور الذنب من ذلك النبی العظيم؟

كمـا وأشـكلوا عليه أيضـاً أنّه عليه السـلام لماذا اتفق موقفه مع عبـدة النجوم والقمر والشـمس بالرغم من إيمانه الخالص المنزه من أی شائبة من شوائب الشرك حيث قال بمقولتهم «هَذَا رَبِّی». (الأنعام/ ۷۶ و ۷۷ و ۷۸)

هـذه هی المواضع الأربعـة الواردة فی القرآن المجيـد والتی أثار كلّ واحـد منها بـدوره جدلًا حول منزلة وعصـمة إبراهيم وتنزيهه من الذنب والمعصية.

الجواب:

ذكر كبار المفسّـرين ورواة الحـديث ادلـة ومواضيع جمّة للإجابة عن هذه الإسـتفسارات الأربعة، ولكن بعض تلك المطالب ليس لها أسانيد معتبرة، والجواب الذی سنذكره هنا هو أنسب تلك الأجوبة وأكثرها اعتماداً:

أمّا فيما يتعلّق بالسؤال الأوّل، فإنّ إبراهيم لم يقل: إنّ كبير الأصنام قد فعل هذا، إنّما قال:

«بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنطِقُونَ».

هذه العبارة يمكن أن تكون من باب «القضيّة الشرطية»، أی أنّ إبراهيم قد نسب هذا العمل إلى كبيرهم بشرط نطقهم، ولا يخفى عدم وجوب الكذب فی هذه القضيّة الشرطية.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۹۱

هذا هو نفس ما نقل عن الإمام الصادق عليه السـلام فی حديث أنّه قال: «ما فعله كبيرهم وما كذب إبراهيم، وحينما استفسر السائل عن كيفية ذلك؟ قال عليه السـلام قال إبراهيم: (فاسألوهم إن كانوا ينطقون فكبيرهم فعل، وإن لم ينطقوا فلم يفعل كبيرهم شيئاً، فما نطقوا وما كذب إبراهيم)» «۱».

كما أنّ نسبة إبراهيم عليه السـلام هـذا العمل إلى كبير الأصـنام إنّما جاء من باب الكناية، التی هی أفضل من التصـريح، فلقد أراد أن يوقف عبـدة الأصـنام على خرافـة عقائـدهم عن هذا الطريق، ويفهمهم أنّ هذه الأحجار والأخشاب الجامدة عاجزة حتّى عن التفوّه ولو بجملة واحدة وأنّها محتاجة إلى عبدتها، فكيف يمكنها والحالة هذه من حلّ مشاكلهم؟

وبعبارة اخرى، فالكـذب إنّما يكون فيما لو لم تكن هناك قرائن تـدلّ على أنّ المقصود كنايـة، وهنا تشير كلّ القرائن إلى أنّ إبراهيم لم يكن جدّياً فی كلامـه هـذا، بـل كان يسخر من أفكارهم، وما أكثر أمثال هـذه التعابير فی المحاورات اليوميـة، كما لو فرض وقوع سرقـة مـا فی محيـط محـدود يقطن فيه أشـخاص معينين، وعنـد التحقيق ينفی كلّ منهم هـذا الإتّهام عن نفسه، فيقول المحقّق، أنت لم تفعل هذا وذاك لم يفعله و ... حتماً قامت به ملائكة السماء! وبديهی أنّ هذا الكلام لا يعتبر كذباً، بل الهدف منه هو تكذيب أقوالهم الواهية التی لا أساس لها.

هناك احتمال ثالث أيضاً، وهو أنّ جملة «بل فعله» مطلقة، وهی فی الواقع إشارة إلى تحليل منطقی مطابق لعقائد الوثنيين، وهو أنّه: ألا تعتقـدون أنّ حادثة تحدث داخل المعبد لا يمكن أن تكون بفعل من خارج المعبد، وذلك لهيمنة الأصـنام على كلّ شـیء وكلّ فرد، ومهما كان فهو داخل المعبد، وحيث إنّ كبير الأصـنام أكثرهم قوّة ومنعة، بالإضافة إلى وجود الفأس فی عنقه (يقال أنّ إبراهيم وضع

الفأس على رقبته)، فضلًا عن كونه الصنم الوحيد الذى لم يلحق به أى أذى.

إذن بناءً على هذا فالقرائن تشير إلى أنّه من فعل كبيرهم، وهذا نظير التحاليل التى

(۱) تفسير نور الثقلين ج ۳، ص ۴۳۴، ح ۸۴؛ بحار الأنوار، ج ۱۱، ص ۷۶، ح ۴ (باب عصمة الأنبياء).

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۹۲

يستخدمها المحقّقون لمعرفة الجانى عن طريق تتبع آثاره وبصمات أصابعه، حينما يدخلون فى محيط قد وقعت فيه جريمة، وكما قلنا فإنّ هذا التحليل كان مطابقاً لعقائد الوثنيين لغرض إدانتهم بما يعتقدون.

وفيما يتعلّق بالآية الثانية فلا دليل أصلًا على أنّ إبراهيم عليه السلام لم يكن مريضاً حقّاً، فهناك علّة فى بدنه، غاية الأمر أنّها لم تكن بتلك الخطورة التى تقعده عن نشاطه البدنى بالمرّة، وتستفحل عليه بحيث تمنعه حتّى عن تحطيم الأصنام، وما أكثر المرضى المشغولين بأعمالهم طول النهار، خصوصاً تلك التى تبعث على ترسيخ العقيدة كتحطيم الأصنام لبطل التوحيد إبراهيم! هذا أوّلًا.

وثانياً مع أنّ «السُقم» و «السَقم» هو المرض المختصّ بالبدن، لكنّه قد يكون فى النفس أيضاً كما صرح به البعض من أصحاب اللغة، وبديهى أنّ روح إبراهيم كانت متعبة وكالمريضة فى ذلك الجو الملىء بالشرك، إذن فقوله انّى سقيم إشارة إلى الجانب النفسى.

ثمّ إنّ الأمراض النفسية حين تشتدّ وطئتها تظهر مضاعفاتها السلبية حتّى على البدن أيضاً، وقد أصبحت هذه المسألة اليوم من المسلّمات، والقرآن الكريم أيضاً يخاطب النبى الأكرم صلى الله عليه و آله: «فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً».

(الكهف/ ۶)

كما أنّ بعض المفسّرين قال: إنّ لإبراهيم عليه السلام مرضاً (كالحمى المزمنة) ينتابه بين الفينة والاخرى، وأنّ مراده من جملة، (إنّى سقيم) هو اقتراب زمن هذا المرض فانا معذور من مرافقتكم، كما أنّ الجملة التى قبلها: «فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ» (الصافات/ ۸۸) دليل على هذا المدّعى، لأنّ النظر إلى النجوم إنّما يكون لحساب الوقت أى للوقوف على زمن ظهور ذلك المرض.

وفيما يتعلّق بالآية الثالثة، فالجواب هو نفس ما تقدّم تفصيله فى الآيات المتعلّقة بآدم عليه السلام، وهو أنّ مراد إبراهيم من «الخطيئة» هو «الذنب النسبى» و «ترك الأولى» و «حسنات الأبرار سيّئات المقربين» «۱».

(۱) مع أنّ «الخطيئة» مأخوذة من مادّة «الخطأ» والتى تعنى فى الأصل الزلّات الصادرة من الإنسان لكنّها اتّسعت تدريجيّاً لتطلق على كلّ ذنب يشمل العمد وغيره، واستعمالها فى الذنب غير العمد واسع جدّاً، لكن «الإثم» يطلق على الذنوب العمدية، وهو يعنى فى الأصل: الشىء الذى يثنى الإنسان عن عزمه، وحيث إنّ الذنب يحول دون بلوغ الإنسان للمنزلة الرفيعة ويمنع عنه الكثير من الخيرات والبركات فقد سمّى «إثماً».

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۹۳

لكن ما هو «ترك الأولى» بالنسبة لإبراهيم ياترى؟ قال البعض: إنّ المراد به هو كلّ تلك الحالات التى تتسبّب فى غفلة الإنسان عن اللَّه تعالى بأى نحو كان، كالإشتغال بشؤون الحياة مثل الأكل والشرب وأمثالها التى يعتبرها أولياء اللَّه ذنباً لغفلتهم عن اللَّه تعالى ولو بهذه الدرجة «۱».

وفيما يتعلّق بالآية الرابعة، أى إشارة إبراهيم إلى النجم والقمر والشمس، ووصفه إيّاها «هذا ربّى» فللمفسّرين فيه أقوال وآراء كثيرة أيضاً، أقواها أن نقول: إنّ إبراهيم كان فى مقام الحوار والاستدلال مع المشركين من عبدة النجم والقمر والشمس (بقرينة الآيتين اللتين تحفّان بهذه الآية، واللتين تتعرّضان لحوار إبراهيم واحتجاجه على الوثنيين).

وبناءً على هـذا فقـد وقف إبراهيم عليه السـلام بوجه هذه المجاميع الثلاث كلّ على حدة، إذ وافقهم على آرائهم فى أوّل الأمر، وعلى سبيل الفرض لحين أُفول هذه الكواكب السماوية لكى يتبيّن لهم خطأهم، بالضبط مثلما نواجه القائلين بسكون الأرض وحركة الشمس حول الأرض فنقول لهم حسناً، كما تقولون، لكن هل تعلمون أيّة دائرة عظيمة يستلزمها كلامكم هذا لكى تتمكن الشمس التى تفصلها عن الأرض تلك المسافة البعيدة، وأى سرعة عظيمة تحتاج للدوران حول الأرض دورةً كاملة كلّ ۲۴ ساعة، وثبوت هذه السرعة لمثل هذا الجرم السماوى من المستحيلات، إذن، يتّضح من ذلك بطلان فرضيتكم، (فتأمّل جيّداً).

هـذا هو أحد أفضل الطرق التى يمكن استخدامها لإبطال نظريات الخصم، أى الوقوف معه أوّلًا، وموافقته (على سبيل الفرض)، دون إثارة روح التعصب والعناد عنده، ثمّ إيقافه على نتائجها الباطلة، كما قال البعض أيضاً: إنّ استخدام جملة «هذا ربّى» أمام هؤلاء القوم كان بمثابة «استفهام»، ذلك الإستفهام الذى يعدّ مقدّمة لإبطال نظرياتهم عند غروب وافول تلك الكواكب.

---

(۱) تفسير الميزان، ج ۱۵، ص ۲۸۵.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۹۴

أمّا القول: إنّ إبراهيم عليه السلام قد نطق بهذه الجمل للتحقيق بنفسه ولا مانع من قبول الإنسان لمختلف الآراء مبدئيّاً واختبارها، فلا يبدو صحيحاً لأنّ جملة: «يَا قَوْمِ إِنِّى بَرِىءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ» (الانعام/ ۷۸) دليل على أنّه كان بمثابة الإحتجاج على هؤلاء المشركين لا التحقيق بنفسه.

وقول البعض تأييداً لهذا الإدّعاء: إنّ إبراهيم لم ير السماء إلى تلك اللحظة بصورة جيّدة، لأنّ والدته كانت قد خبأته فى غار خارج المدينة خوفاً من عيون نمرود، فيبدو كلاماً بعيداً جدّاً، إذ كيف يعقل أن يبقى إبراهيم فى الغار طوال سنين عديدة منذ طفولته وحتّى ريعان شبابه ولا يخرج منه ولو لمرّة واحدة، لا ليلًا ولا نهاراً؟! هذا الكلام أقرب إلى الاسطورة من الواقع «۱».

فضلًا عن أنّ هذه الآيات قد وردت على الفور، بعد الآية التى تتعرّض للحوار الجدّى لإبراهيم مع آزر حول مسألة تسفيه اعتقاده بالأصنام، أى أنّ إبراهيم عليه السلام كان قد بلغ مقام التوحيد الرفيع واليقين الراسخ قبل ذلك، وأنّ اللَّه تعالى كان قد أطلعه على ملكوت السماوات، وقد بدأ إبراهيم عليه السلام بعده بدعوة الآخرين لا التحقيق لنفسه.

الملاحظة الجديره بالاهتمام هى: إنّ إبراهيم ولبيان بطلان ربوبية هذه الكواكب الثلاثة، أورد دليلًا يعدّ من أدقّ البراهين الفلسفية، فى الوقت الذى يسهل على الجميع استيعابه، فيقول فى هذا الدليل: إنّ «الربّ» يجب أن يبقى على اتّصال دائم بمخلوقاته، وبناءً على هذا فالموجود الذى يغرب فينقطع نوره وبركاته لساعات طوال، لا يمكن أن يكون ربّاً لهذه الموجودات.

فضلًا عن أنّ الشروق والغروب المستمرين لهذه الأجرام السماوية، دليل على خضوعها لقانون ما، وكيف يتسنّى للموجود الواقع فى قبضة القوانين الكونية، والطبيعية أن يكون

---

(۱) وقد جاء ذلك فى عيون أخبار الرضا عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام أنّ إبراهيم خرج من مخبئه والتقى بثلاث طوائف من المشركين (تفسير نور الثقلين، ج ۱، ص ۷۳۵).

يعدّ فى ذاته دليلًا على خلاف هذا الإدّعاء فضلًا عن دعمه له «تأمّل جيّداً».

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۹۵

حاكماً على هذا العالم وخالقاً له؟!

بالإضافة إلى أنّ «الحركة» بذاتها موجود «حادث»، وبناءً على هذا فالشىء المتحرّك مخلوق وحادث حتماً، ومثل هذا لا يمكن أن يكون موجوداً أزليّاً أبديّاً (هذا هو نفس الشىء الوارد فى البراهين الفلسفية تحت عنوان «العالم متغيّر» و «كلّ متغيّر حادث»).

وبناءً على هذا فقد كان لحوار إبراهيم ثلاثة مفاهيم مختلفة ومثيرة، ولا يمكن الإستغناء عنها لإبطال الوهيئة النجم والقمر والشمس.

۴- يوسف عليه السلام

امّا فى شأن النبى يوسف عليه السلام فنحن نواجه بعض الآيات التى تبدو لأوّل وهلة غير منسجمه مع منزلة عصمته، من أهمّها ماجاء فى القرآن الكريم: «وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَآ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ». (يوسف/ ۲۴)

إذ يتصوّر القارىء فى البداية أنّ هذه الآية تجعل من يوسف شريكاً لزليخا فى قصد المعصية.

الجواب:

يكفى التمعّن فى نصّ هذه الآية لرفع هذا الالتباس، لأنّ القرآن يقول: «لَوْلَا أَنْ رَآ بُرْهَانَ رَبِّهِ» ومفهوم هذا الكلام هو بالضبط أنّه لم يقصد المعصية لأنّه رأى برهان ربّه.

ما هو المراد بهذا البرهان؟ (علماً أنّ البرهان يعنى كلّ دليل قوى ومحكم يتبنّى بيان الحقيقة وإيضاحها، وهو مأخوذ من مادّة «بره» التى تعنى: إبيضّ).

للمفسّرين هنا احتمالات متعدّدة، أفضلها هو القول: إنّ المراد من برهان الربّ، هو

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۹۶

اطّلاعه على أسماء اللَّه تعالى وصفاته وكونه تعالى عالماً قادراً سميعاً بصيراً.

أو بعبارة اخرى: المراد بالبرهان هو الإمدادات الإلهيّة، والتأييدات الربّانية التى تسرع لنجدة المؤمنين والمتّقين فى اللحظات الحرجة والمصيرية، إذ تمدّهم بالقوّة أمام جنود الشيطان ووساوس النفس.

الدليل على هذا الكلام هو ما جاء فى آخر الآية حيث يقول تعالى: «كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ».

يتّضح من هذا الكلام أنّ عباد اللَّه المخلصين مشمولون بالألطاف والعنايات الإلهيّة الخاصّة، فى مثل هذه اللحظات الحسّاسة، والتى هى فى الواقع ثمن إيمانهم الخالص وأعمالهم الطاهرة.

وهنا نقل بعض الغافلين خرافات تحت عنوان «الروايات» لا تكاد تخرج عن حدّ الإسرائيليات، وذهبوا بيوسف ظلماً إلى حافّة الهاوية والإقدام على ذلك العمل الفاحش إلى أنّ منعه جبرئيل من هذا العمل بضربه على صدره! أو رؤيته لشبح أبيه يعقوب وهو يعضّ على يديه لهذا العمل!.

وهذا كلام لا علاقة له بالقرآن مطلقاً، وخرافات لا تستحقّ الإجابة عنها، وذيل الآية التى تعتبره من عباد اللَّه المخلصين خير دليل على بطلان مثل هذه الإحتمالات القبيحة، وذلك طبقاً لآيات القرآن التى تصرح بأن لا سبيل للشيطان إلى عباد اللَّه المخلصين.

أما الاشكال الثانى الذى اثير حول يوسف عليه السلام ومقام عصمته فهو ما ورد فى الآية السبعين من سورة يوسف عليه السلام، والتى جاء فيها أنّه حينما شدّ رحال اخوته وضع السقاية، أى الاناء الذى يشرب فيه أو المكيال الذى يكيل فيه فى رحل أخيه، ثمّ أذّن مؤذّن: «فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُم لَسَارِقُونَ». (يوسف/ ۷۰)

فهل يجوز أن يقوم الإنسان بعمل ما، ويتّهم بريئاً وخاصّة إذا كان ذلك البرىء أخاه؟

وهل يعقل أنّ المؤذّن قد نسب هذه النسبة (نسبة السرقة) إلى اخوة يوسف بدون علم يوسف، واطّلاعه؟ ولماذا رضى النبى المعصوم باتّهام الأبرياء بمثل هذه التهمة؟!

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۹۷

وحاولوا أحياناً توسيع دائرة الإشكال فقالوا: لماذا لم يكشف يوسف عليه السلام النقاب عمّا جرى له بسرعة ليطّلع اخوته على حقيقة الأمر وليوصلوا خبر حياته وعظمة مكانته إلى أبيه الشيخ؟، ليطمئن ويتخلّص من ألم الفراق الذى أضناه كثيراً، فهل أنّ مثل هذا التصرّف يتناسب مع الوضع الذى كان يعيشه ذلك الأب المسنّ؟ ثمّ ما هى عقوبة السارق فى ذلك الزمن ليبقى أخو يوسف عندهم كرهينة بتهمة السرقة؟ هل كان هذا حكماً إلهيّاً، أم سنّة أهل مصر الخرافية؟ لو كانت سنّة أهل مصر، فلماذا وافق يوسف على تطبيق هذا الحكم الجائر بحقّ أخيه؟

الجواب:

من الممكن العثور على أجوبة هذه الأسئلة بشكل واضح، من خلال الآيات الواردة فى سورة يوسف وقرائن اخرى.

أوّلًا: يبدو حسب الظاهر أنّ هذا الأمر قد تمّ بموافقة «بنيامين نفسه» (الأخ الأصغرليوسف)، إذ إنّ آيات هذه السورة تشهد كاملًا على أنّ يوسف قد عرّف نفسه لبنيامين قبل ذلك، فعلم بنيامين أنّ هذه الخطّة قد وضعها يوسف للإحتفاظ به عنده فوافق على هذه الخطة.

ثانياً: إنّ القائل: «إنّكم لسارقون» مجهول؟ غاية ما نعرفه عنه أنّه كان من حاشية يوسف عليه السلام، وحينما وجدوا الوعاء المخصوص داخل متاع أحد اخوة يوسف تيقّنوا من كونه هو السارق، وبديهى أنّ ارتكاب عمل ما من قبل أحد الأفراد فى مجموعة واحدة، يُعرِّض كلّ أعضاء تلك المجموعة لخطاب: إنّكم قمتم بهذا العمل.

على أيّة حال فهذا الكلام والتشخيص إنّما يتعلّق بحاشية يوسف ولاعلاقة له به، بل الشىء الوحيد الذى قام به يوسف هو وضع الوعاء فى رحل أخيه لإثارة ذلك الإتّهام، الذى كان السبب وراء خلاص وراحة أخيه الذى وافق على ذلك، كما تقدّم.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۹۸

ثالثاً: هذا المخطّط بمجموعه سواء فيما يتعلّق بالاخوّة أو الأب، كان إتماماً لاختبار إلهى لهم، وبعبارة اخرى كان يوسف طبقاً للأمر الإلهى الذى تلقّاه عن طريق الوحى سبباً لإختبار مقاومة يعقوب مقابل فقد ولده الثانى الذى كان ولهاناً بحبّه، ولتتمّ من خلال ذلك دائرة تكامله ومكافأته وثوابه، كما تمّ هنا وضع الاخوّة ثانية فى بودقة الاختبار، لمعرفة مدى استعدادهم للوفاء بالعهد الذى عقدوه مع أبيهم فى عدم ترك «بنيامين» وحيداً؟

وليُعرف من جهة اخرى الأشخاص الذين قالوا: «إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ». (يوسف/ ۷۷)

وأراد اخوته من هذا الكلام يوسف عليه السلام.

الخلاصة: إنّ قصّة يوسف عليه السلام مليئة بالإختبارات، سواء فيما يتعلّق بيوسف، أو أبيه، أو اخوته، وفى الآية أدناه إشارة إلى هذا القول:

«كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ». (يوسف/ ۷۶)

كما أنّ هذا التعبير يكشف النقاب عن السؤال الأخير أيضاً ويجيب عنه، وهو أنّ تطبيق خطّة «عبودية السارق» كان أمراً إلهيّاً إلى يوسف (لإكمال الإمتحان المذكور) فى خصوص هذا المورد «تأمّل جيّداً»، وبناءً على هذا فلا نجد فى البين إشكالًا يمكن توجيهه إلى هذا النبى العظيم فيما يتعلّق بمنزلة العصمة.

۵- موسى عليه السلام

هنالك آيات قرآنية فى مختلف السور مرتبطة بمنزلة عصمة موسى عليه السلام، وقد تعرّضت للإستفهام أيضاً:

نقرأ فى الآية ۱۶ من سورة القصص، أنّ موسى عليه السلام وبعد صراعه مع أحد أعدائه (أتباع فرعون)، الذى كان فى شجار مع رجل من بنى إسرائيل، وتوجيه ضربة قاضية إليه أردته

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۹۹

قتيلًا، توجّه إلى اللّه تعالى وقال: «قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَاغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ».

يا ترُى «ألم يكن التعبير بأنّى ظلمت نفسى وطلب العفو والمغفرة من اللّه تعالى، دليلًا على ارتكاب الذنب»؟

ثمّ إنّه ورد فى الآية التى قبلها أنّ موسى وبعد قتله لعدوّه قال: «هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ».

(القصص/ ۱۵)

وبعد هذه الحادثة وحينما بلغ موسى مرتبة النبوّة، وجاء إلى فرعون يدعوه إلى اللّه، عاتبه فرعون وقال: «وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِى فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ* قَالَ فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ». (الشعراء/ ۱۹- ۲۰)

صحيح أنّ موسى لم يكن قد بلغ مرتبة النبوّة فى ذلك الوقت، ولكن نظراً لضرورة تمتّع الأنبياء بدرجة العصمة حتّى قبل النبوّة، فالتعبير ب «الضالّين» يبدو غير مناسب هنا بعض الشىء.

الجواب:

أوّلًا، وقبل كلّ شىء يجب البحث فى ماهية هذا القتل الذى لم يكن بقصد وسبق إصرار، وهو ممّا يصطلح عليه بقتل الخطأ، هل كان جائزاً أم لا؟!

لا شكّ أنّ هذا العمل لم يكن معصية، مع الأخذ بنظر الإعتبار ذلك الموقف المعادى الذى كان يتّخذه قوم فرعون الظالمين من بنى إسرائيل، حتّى أنّهم كانوا يذبحون أبناءهم الرضّع ويأخذون بناتهم للخدمة، بل كانوا قد أذاقوهم أقسى أنواع الظلم والعذاب، حتّى أصبحوا مصداقاً للتعبير القرآنى: «مفسد فى الأرض»، خصوصاً أنّ موسى كان فى مقام نصرة المظلوم والدفاع عنه، إذن فجواز قتل هذا الفرعونى الظالم هو ممّا لا شكّ فيه على أقلّ تقدير، فكيف يمكن الخدش فى درجة عصمة موسى فى مثل هذه الحال.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۰۰

نفحات القرآن ج۷ ۱۴۹

إذن، فالذى يحتمل كونه مخالفاً للوجدان يكمن حتماً فى ترك الأولى المتجسّد فى كيفية تصرّف موسى (لا أصل تصرّفه).

ويبدو أنّ مراد موسى عليه السلام من: «ظلمت نفسى» هو الوقوع فى المشقّة، باعتبار أنّ قتله لأحد الأقباط ليس بتلك السهولة التى يتناساها أتباع فرعون، ولا يخفى أنّ ترك الأولى يعنى العمل المباح ذاتاً، إلّاأنّه يَحرم صاحبه من العمل الأفضل.

وجملة: «هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ» إشارة إلى أصل نزاع القبطى والسبتى (الفرعونى والاسرائيلى)، أى أنّ نزاعهم الأعمى التافه هذا هو من عمل الشيطان.

إذن، فطلب المغفرة من اللّه إنّما هو لتركه الأولى، وقد ورد نظيره فى القرآن الكريم بحقّ آدم وحواء أيضاً، حيث انّهما قد أوقعا نفسيهما فى المشقّة وذلك بتركهما للأولى، وأكلهما من الشجرة الممنوعة، فطلبوا المغفرة لذلك «قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنْ الْخَاسِرِينَ». (الأعراف/ ۲۳)

امّا التعبير ب «الضالّين» المأخوذ من مادّة «الضلال» التى تعنى فى الأصل ترك الطريق السوى، فله معنى واسع ولا- ينحصر بمعنى الإعراض عن الدين والحقّ فقط، بل يصدق بحقّ شخص كموسى عليه السلام الذى عرض حياته للخطر بقتله لذلك الفرعونى أيضاً، وبعبارة اخرى فقد ترك طريق السلامة، وسلك طريق ذات الشوكة، ولذا لم يتمكّن من البقاء فى مصر بعد تلك الحادثة فغدى مشرّداً فى البوادى والجبال إلى أن وصل أرض «مدين»، وشملته الألطاف الإلهيّة فى خاتمة المطاف، حيث عاش هناك ولعدّة سنين وتربى على يد شعيب عليه السلام، وتهيّأ لتحمّل مسؤولية الرسالة.

لا يخفى أنّ البعض يعتقد بأنّ معنى «الضلال» هنا هو عدم الإطّلاع، أى لم أعلم بأنّ تلك الضربة ستقضى على الرجل، وبناءً على هذا فالقتل المذكور يعد مصداقاً لقتل الخطأ لا العمد، لكن المعنى الأوّل يبدو أنسب، رغم أنّ فرعون قد يفهم من كلام موسى عليه السلام شيئاً آخر، ولذا اقتنع بذلك ولم يعلّق عليه بشىء.

ثانياً فی الآیة ۱۴۳ من سورة الأعراف تستوقفنا هذه الحادثة، وهی أنّ موسی علیه السلام

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۰۱

طلب من اللَّه تعالی أن ینظر إلیه ببصره وسمع الجواب: إنّک لن ترانی أبداً!

«وَلَمَّا جَاءَ مُوسَی لِمِیقَاتِنَا وَکَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِی أَنظُرْ إِلَیْکَ قَالَ لَنْ تَرَانِی» وفی هذه الأثناء جاءه الأمر بالنظر إلی الجبل: «انظُرْ إِلَی الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَکَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِی فَلَمَّا تَجَلَّی رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَکّاً وَخَرَّ مُوسَی صَعِقاً فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَکَ تُبْتُ إِلَیْکَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِینَ». (الأعراف/ ۱۴۳)

من هنا یقال:

أوّلًا: لماذا طلب موسی مثل هذا الطلب من اللَّه تعالی مع کونه یتمتع بمنزلة رفیعة فی المعرفة والإیمان؟

ثانیاً: لابدّ وأن صدرت منه مخالفة لیبتلی بالصعقة ویغمی علیه؟

ثالثاً: جملة «تُبت إلیک» تظهر أنّه تاب من عمل سیء قام به.

و للمفسّرین هنا أجوبة متنوّعة أیضاً، أجلاها هی: إنّ آیات القرآن تبیّن بکلّ وضوح أنّ ذلک الطلب لم یصدر من موسی علیه السلام، بل من بنی إسرائیل الذین ألحّوا علیه لیُریهم اللَّه تعالی:

«وَإِذْ قُلْتُمْ یَا مُوسَی لَنْ نُؤْمِنَ لَکَ حَتَّی نَرَی اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْکُمُ الصَّاعِقَةُ».

(البقرة/ ۵۵)

بل الآیات الاخری أیضاً تبیّن أنّ موسی کان مأموراً بأخذ جمع من أشراف بنی إسرائیل معه إلی جبل الطور لتکرار طلبهم هناک «حتّی یقفوا علی الجواب بشکل عملی»، ویشیر الی ما تقدّم ما أطلق علی هذه الحادثة، اسم «میقاتنا» فی الآیة الآنفة الذکر وکذلک فی الآیة «وَاخْتَارَ مُوسَی قَوْمَهُ سَبْعِینَ رَجُلًا لِمِیقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَکْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِیَّایَ أَتُهْلِکُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِیَ إِلَّا فِتْنَتُکَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِی مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِیُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَیْرُ الْغَافِرِینَ». (الأعراف/ ۱۵۵)

وبناءً علی هذا فما قاله موسی علیه السلام کان بأمر وتکلیف من اللَّه تعالی، کما أنّه لیس لنزول الصاعقة أیّة صفة جزائیة، بل کان الهدف إیقاف عامّة بنی إسرائیل علی هذه الحقیقة، ولیبین لهم بأنهم عاجزون عن رؤیة شرارة صغیرة من قدرته تعالی بحیث تسقطون علی الأرض

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۰۲

فیغمی علی البعض منکم ویصعق البعض الآخر، فکیف والحالة هذه تطلبون رؤیة ذاته تعالی بعظمتها؟

أمّا جملة «انّی تُبت» فقد کانت من جانب بنی إسرائیل، کما أنّ جملة «رَبِّ أَرِنِی أَنظُرْ إِلَیْکَ» کانت من قبلهم أیضاً.

یستفاد من عدّة آیات من سورة الکهف أنّ موسی علیه السلام ابتلی بالنسیان، فهو تارةً یقول:

«فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَیْنِهِمَا نَسِیَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِیلَهُ فِی الْبَحْرِ سَرَباً». (الکهف/ ۶۱)

إذن فلقد وجد النسیان طریقه إلیهما.

وفی آیتین بعدها ینقل عن صاحب موسی علیه السلام: «فَإِنِّی نَسِیتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِیهُ إِلَّا الشَّیْطَانُ أَنْ أَذْکُرَهُ». (الکهف/ ۶۳)

فلو کان صاحبه وهو یوشع بن نون- کما هو معروف بین أقطاب المفسّرین- وکان فی تلک الحالة نبیّاً، فسیثبت جواز النسیان للأنبیاء.

کما نقرأ فی عدّة آیات بعدها وعلی لسان موسی علیه السلام، أنّه حینما التقی بذلک الرجل الإلهی «الخضر» تعهّد بألّا یسأله عن أسرار ما قام به إلی أن یبیّنها هو بنفسه، لکن موسی علیه السلام نسی ذلک فی أوّل مرّة، ولذا اعترض علی الخضر لخرقه تلک السفینة السالمة، وحینما ذکّره الخضر بالعهد قال: «قَالَ لَاتُؤَاخِذْنِی بِمَا نَسِیتُ». (الکهف/ ۷۳)

کما تکرّر هذا الشیء ثانیة وثالثة أیضاً.

ألّا يستفاد من مجموع هذه الآيات إمكان نسبة النسيان للأنبياء؟! أوليس الصيانه عن ارتكاب الخطأ والنسيان أحد فروع العصمة؟

الجواب:

لقد سلك المفسّرون طرقاً شتّى للإجابة عن هذا السؤال: إذ قال البعض: إنّ «النسيان» يعنى تارةً ترك الشيء وإن لم يكن منسياً، كما نقرأ فى قصّة آدم: «وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ ...». (طه/ ١١٥)

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۰۳

من المسلّم أنّ آدم لم ينس العهد الإلهى فيما يتعلّق بالإجتناب عن الأكل من الشجرة الممنوعة، لكن نظراً لعدم اهتمامه بذلك العهد فقد عبّر عنه بالنسيان.

وقال البعض أيضاً: إنّ «الناسى» هو فى الحقيقة صاحب موسى عليه السلام وليس موسى عليه السلام، والناسى لم يكن نبيّاً، إذ لم يثبت ذلك فيما لو اقتصرنا على الآيات القرآنية على أقلّ تقدير، فنحن نقرأ فى الآيات مورد البحث أنّ صاحب موسى عليه السلام قد شاهد سقوط الحوت فى الماء واستعدادها للحياة والحركة، وقرّر إخبار موسى عليه السلام بذلك لكنّه نسى، إذن فالناسى هو صاحب موسى لا غيره باعتباره الشاهد الوحيد لهذه الحادثة، والنسبة إليهما فى جملة «نسيا» هى من قبيل نسبة عمل الفرد إلى الجماعة وهى شائعة الإستعمال.

ولو قيل: كيف يعقل إيداع مسألة بكلّ هذه الأهميّة فى زاوية النسيان؟ لقلنا: إنّ صاحب موسى عليه السلام كان قد شاهد معجزات أهمّ من هذه، فضلًا عن كونهما فى هذا السفر يطلبان هدفاً أهمّ، فنسيان الحوت بسبب هذا الهدف لا يدعو للعجب.

ونسبة النسيان إلى الشيطان، قد تكون لوجود علاقة بين حادثة إحياء السمكة ومسألة العثور على ذلك الرجل العالم، الذى كان من المقرّر أن يستفيد موسى عليه السلام من علمه، وحيث إنّ عمل الشيطان هو الإغواء والحؤول دون بلوغ بنى الإنسان أهدافهم المقدّسة، أو تأخيرهم عنها على أقلّ تقدير، فقد قذف النسيان فى ذهن «صاحب موسى».

جاء فى بعض الروايات عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله ما مضمونه: إنّ موسى كان نائماً حين انسابت الحوت وسقطت فى البحر وذهبت فى سبيلها، وأنّ صاحبه «الذى كان يشاهد هذا الموقف» لم يرغب فى إيقاظه وإخباره بذلك، كما أنّه نسى أن يخبره بعد استيقاظه أيضاً ولذلك فقد واصلوا مسيرهم يوماً وليلة آخرين، ثمّ تذكّر هذا الرجل الحادثة وقصّها على موسى عليه السلام فاضطرّا للرجوع إلى مكانهما الأوّل، الذى سقطت فيه السمكة فى الماء «(١)».

كما قال البعض أيضاً: إنّ الأنبياء معصومون من النسيان المرتبط بدعوتهم، دون ما له علاقة بأمر عادى يومى، فالنسيان أمر عادى لا يرتبط من قريب أو بعيد، بمسألة الوحى

---

(١) تفسير المراغى، ج ١۵، ص ١٧۴.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۰۴

والنبوّة والتربية والتعليم والتبليغ، بل إنّ عدم ترابطهما أمر واضح للجميع ولا يخدش هذا فى مقام عصمة الأنبياء، والنسيان الوارد فى الآيات المذكورة هو من هذا القبيل.

يقول العالم الكبير المرحوم السيّد المرتضى رحمه الله: إنّ هناك ثلاثة أوجه فيما يتعلّق بقول موسى للخضر: «لَاتُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ»:

الأوّل: النسيان بمعناه الحقيقى المتعارف، ولا عجب أن ينسى موسى مثل هذا العهد خلال هذه الفترة القصيرة، لانشغاله فكريّاً (بمسائل أهمّ).

الثانى: أنّ مراده هو أن لا تؤاخذنى على ما تركته (أى أنّ موسى كان قد ترك العهد عمداً، ومعلوم أنّه كان مشروطاً، أى لو شئت البقاء معى فلا تسألنى حتّى اوضّح لك بنفسى).

الثالث: مراد موسى هو أن لا تؤاخذنى على عمل شبيه بالنسيان.

ثمّ يضيف قائلًا: ولا إشكال لو حملنا الجملة على النسيان غير الحقيقى، وإلّا لو حملناه على النسيان الحقيقى فتعليله أنّ النسيان بهذا المعنى لا يجوز بحقّ الأنبياء، فى بيان الامور الإلهيّة، أو التشريعية، أو الخارجة عن المتعارف، ولا مانع لما خرج عن نطاق هذه الدائرة، كما لو نسى النبى طعامه، أو شرابه لكن لا بتلك الدرجة والتكرار الزائدين عن الحدّ لاستحالة مثل هذا الشىء فى حقّه.

الآية الاخرى المتعلّقة بأعمال هذا النبى العظيم والتى دار حولها النقاش وردت فى قوله تعالى: «وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنْ بَعْدِى أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ* قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ». (الأعراف/ ۱۵۰- ۱۵۱)

وهنا ترد عدة علامات للإستفهام:

أوّلًا: لماذا ألقى موسى بالألواح المكتوب فيها احكام اللّه وآيات التوراة على الأرض؟

ثانياً: لماذا أبدى ردّ الفعل الشديد تجاه أخيه الذى لم يكن قد ارتكب إثماً؟

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۰۵

ثالثا: لماذا طلب العفو والمغفرة لنفسه ولأخيه؟!

لكن لو تأمّلنا فى تلك الحادثة التى واجهها هذا النبى العظيم بعد رجوعه من ميقات ربّه، لسلّمنا بصحة وضرورة تصرفه هذا.

فلقد قضى موسى سنوات طويلة مليئة بالمشقّة، لزرع بذرة «التوحيد» فى قلوب «بنى إسرائيل» القاسية، وذهب إلى مكان الوحى لميقات ربّه حينما نبتت تلك البذرة على أمل نموّها، لكنّه حينما رجع لاحظ أنّ كل جهوده ذهبت أدراج الرياح وقد استسلم الأكثرية الساحقة من بنى إسرائيل لوساوس «السامرى» وسجدوا للعجل! فضلًا عن إحاطة فتنة الوثنية والشرك بكلّ شىء وانطفاء نور الإيمان والتوحيد.

وهنا استغرب موسى كثيراً وغضب غضباً شديداً، وكان غضبه للّهطبعاً، هذا من جهة.

ومن جهة اخرى كان لابدّ له من مواجهة ماحدث بشدة، حيث تعدّ أقسى حادثة فى حياة موسى عليه السلام، وذلك ليقف بنو إسرائيل على خطورة الموقف وقبح عملهم، وبالنتيجة تزال كلّ آثار الشرك والوثنية من قلوبهم، وإلّا لاحتمل بقاء آثار الشرك فى قلوبهم وقلوب الأجيال القادمة أيضاً، فليس المهمّ هنا مسألة احترام إنسان أو بعض الألواح المقدّسة، بل المهمّ هو مسألة التوحيد وخطورة انحراف قوم بأكملهم.

كان ينبغى لموسى عليه السلام التعبير عن غضبه الكامن فى نفسه، وإظهار قبح هذا العمل للجميع، وذلك ما كان ميسوراً إلّابإبداء ردّ فعل عنيف، ولذا عاتب أخاه هارون بشدّة حتّى أنّه جرّه من رأسه بعد أن ألقى الألواح جانباً، بل صرخ فى الواقع من أعماق وجوده، حتّى تردّد صداه بين بنى إسرائيل ليقول بعضهم لبعض: ما أقبح عبادة العجل يا ترى! بحيث يتعامل موسى عليه السلام بكلّ هذه الخشونة مع أخيه؟ وعلى فرض أنّ مثل هذا التصرّف لا يليق بشأن هارون عليه السلام (مع أنّ علاقة الاخوّة بين الأخوين تنفى مثل هذا الشىء) فإنّه وبسبب التأثير الاجتماعى العميق له لم يجد موسى عليه السلام بدّاً من فعله.

كما أنّ نفس هذا الهدف كان وراء إلقاء الألواح، بالرغم من اعتقاد البعض بأنّ لفظة «الإلقاء» هنا تعنى الوضع على الأرض والذهاب وراء عمل ما، ولذا لم تنته المسألة عند هذا الحدّ، بل كان ذلك القرار الشديد على بنى إسرائيل بسبب ارتداد ذلك الفريق بالشكل

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۰۶

الذى جاء فى ذيل الآية ۵۴ من سورة البقرة.

كما واجه مؤسّس الوثنية بين بنى إسرائيل، أى: «السامرى» ذلك العقاب الشديد أيضاً، خلاصة القول هى أنّ ردّ الفعل العنيف كان يرمى إلى أهدافٍ عظيمة، ولم يكن خالياً من الإشكال فحسب، بل كان واجباً أيضاً فى مثل تلك الظروف (تأمّل جيّداً).

۶- داود علیه السلام

هناك آيات فى القرآن الكريم تشير إلى أنّ نبى اللَّه العظيم داود عليه السلام قد استغفر ربّه لعمل قام به، وأنّ اللَّه تعالى قد غفر له وذلك قوله: «وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ* فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ». (ص/ ۲۴- ۲۵)

ألم يكن استغفار داود والعفو عنه من قبل اللَّه سبحانه وتعالى دليلًا على صدور الذنب منه؟ وهل يتلاءم هذا ومقام عصمته؟

للحصول على جواب هذا السؤال لابدّ من الرجوع إلى القرآن، والبحث قبل كلّ شىء عن العمل الذى يرتبط به هذا الإبتلاء وتلك المغفرة.

تحكى الآيات التى سبقت آيات بحثنا أنّ خصمين تسوّرا محراب داود عليه السلام، ودخلا عليه على حين غرّة، ففزع لدخولهما المفاجىء عليه: «إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَاتَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ* إِنَّ هَذَا أَخِى لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى الْخِطَابِ». (ص/ ۲۲- ۲۳)

فقال داود بدون تحقيق أو استفسار: «قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ ...». (ص/ ۲۴)

هذه هى القصّة التى ذكرت فى آيات القرآن بأكملها بلا زيادة أو نقصان.

هناك تفاسير مقبولة قدّمت تفسيراً مقنعاً لهذه الآيات، كما أنّ هناك روايات موضوعة

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۰۷

وردت فى بعض الكتب، تعرّضت لمعانى هذه الآيات بشكل مسىء ومشوّه.

أمّا ما يتّفق ومحتوى الآيات المذكورة، فهو القول: إنّ الشىء الوحيد الذى صدر من داود عليه السلام كان فقط تركه للأولى وذلك بتسرّعه فى القضاء، لكن لا بتلك السرعة التى تكون على خلاف «واجبات» موازين القضاء، إذ «يستحبّ» للقاضى التمعّن أكثر ما يمكن، فلو ترك الأكثر واكتفى بالحدّ الأوسط أو الأقل فقد ترك الأولى، وهذا ما فعله داود، فقد قضى بظلم الأخ لأخيه الفقير، وربّما كان السبب وراء هذا التسرّع هو ذعره من دخولهما المفاجىء عليه فى خلوته، فضلًا عن أنّ اجحافاً كهذا من قبل أخ لأخيه يبعث على الأسف والشفقة.

صحيح أنّ داود عليه السلام أصغى لادّعاء طرف واحد فقط، لكن سكوت الطرف الآخر وعدم التفوّه بأى كلام، أو اعتراض يعدّ فى نفسه دليلًا على اعترافه، وعلى أيّة حال فمن آداب مجلس القضاء أن يطلب القاضى توضيحاً أكثر من الطرف المقابل وهذا ما لم يفعله داود.

وما استغفار داود إلّالتركه الأولى، وقد تقبّل اللَّه تعالى توبته وغفر له.

وهو أفضل دليل على عدم صدور أى ذنب عن داود عليه السلام، والجملة الواردة فى ذيل نفس هذه الآيات: «وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ» تشير إلى ذلك، كما أنّ هناك أوصافاً أخرى كثيرة فى حقّه قد وردت فى الآيات السابقة، ونُعت بتلك المنزلة الرفيعة عند اللَّه تعالى بحيث غدت سيرته نموذجاً لنبى الإسلام صلى الله عليه و آله يقتدى به، ولا شكّ أنّ هذا المعنى لا يتناسب مع العصيان والذنب أبداً.

حينما يصرّح القرآن فى ذيل هذه الآيات ويقول: «يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِى الْأَرْضِ ...». (ص/ ۲۶)

يتبيّن بكلّ وضوح أنّ خليفة اللَّه لا يذنب، ومسألة ردعه من اتّباع هوى النفس إنّما هى بمثابة الأمر ولا تدلّ على ارتكاب معصية، ومن هنا يتّضح مدى تفاهة تلك القصّة التى أبرزتها التوراة بشكل مُشوّه، وبالغت فى تضخيمها أكثر من الوضع الطبيعى، وربطت هذه القضيّة بحادثة مختلقة وهى عشق داود عليه السلام لزوجة أحد ضبّاط جيشه وهيامه فى حبّها،

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۰۸

والتدبير لقتله فى خاتمة المطاف وأخذ زوجته.

تشتمل التوراة التى حُرِّفت عن مواضعها على بعض العبارات التى تبيّن مدى فضاعة هذه القصّة، والتى لا تسمح عفّة القلم ومنزلة الأنبياء عليهم السلام «۱» بذكرها.

هذه القصص الموضوعة، والعبارات البذيئة تعدّ بنفسها أفضل دليل على تحريف التوراة الحالية.

من الطبيعى أنّ مثل هذا التحريف ليس غريباً بالنسبة لمحقّقى تاريخ التوراة على مدى آلاف السنين، لكنّ العجب إنّما هو من كيفية إقدام بعض المفسّرين المسلمين على نقل تلك الخرافات القبيحة فى كتبهم، فى الوقت الذى نقرأ فى رواية عن على أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «لا اوتى برجل يزعم أنّ داود تزوّج امرأة أُوريا إلّاجلدته حدّين حدّاً للنبوّة وحدّاً للإسلام» «۲».

كما احتمل البعض كون هذه الحادثة إشارة إلى أنّ داود عليه السلام لم يأسف لنبأ مقتل اوريا فى ميدان القتال كأسفه على غيره، وذلك لرغبته فى الزواج من امرأته بعد مصرعه، ولكن من دون (اتّفاق مسبق) حول الموضوع.

لكن وكما أشار المرحوم السيّد المرتضى أيضاً، فانّ هذه التصرّفات وإن لم تعدّ ذنباً لكنّها ممّا تشمئزّ منها النفوس، ومعلوم أنّه لا ينبغى للأنبياء والأئمّة القيام بمثلها «۳».

كما احتمل بعض المفسّرين أنّ العادة فى ذلك الزمان كانت جارية على عدم تزويج المرأة الأيّم أبداً، وأنّ داوداً قد تزوّج زوجة اوريا بعد موته لتحطيم هذه السنّة الخاطئة.

لكنّ هذا التفسير أيضاً لا يتناسب بدوره مع ظاهر الآيات التى تبيّن صدور ترك الأولى من داود، لأنّ تحطيم هذه السنّة الخاطئة يعدّ واجباً فضلًا عن عدم كونه تركاً للأولى، إلّاأنّ

---

(۱) لمزيد من الإطلاع راجع الكتاب الثانى ل «اسموئيل» (من كتب التوراة) الفصل الحادى عشر، الجملة الثانية إلى السابعة والعشرين، ثمّ نقدها وتحقيقها من التفسير الأمثل ذيل الآيات ۲۱ إلى ۲۵ من سورة ص.

(۲) تفسير مجمع البيان، ذيل الآيات من سورة ص، كما ذكر الفخر الرازى نفس هذا الموضوع بعبارة اخرى.

(۳) تنزيه الأنبياء، ص ۹۱ و ۹۲.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۰۹

يقال: إنّ هذا العمل كان سبب العناء الروحى لُاوريا، كما جاء فى إحدى الروايات «۱».

لكن التفسير الأوّل هو الأنسب من بين هذه التفاسير.

۷- سليمان عليه السلام

وهناك أيضاً آية فى القرآن الكريم وردت بحقّ هذا النبى العظيم، تبيّن أنّه قد طلب العفو من ربّه واستغفره على بعض الأعمال التى صدرت منه، (وأنّ اللَّه تعالى قد قبل توبته).

يقول القرآن حول هذا الموضوع: «وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيمانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ* قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكاً لَايَنْبَغِى لِاحَدٍ مِنْ بَعْدِى إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ* فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ ...». (ص/ ۳۴- ۳۶)

و لنرى ما هو هذا الإختبار؟ ولمن يعود هذا الجسد الجامد الذى القى على كُرسيّه؟ فهذا ما لم يتعرّض القرآن لبيانه، لكن هناك تفاسير إسلامية تناولت هذه الحادثة، وروايات تعرضت لها، كما أنّ الرواة الذين وجدوا فى هذا الموضوع أرضاً خصبة لهم فحاكوا حوله أساطير وهمية لا أساس لها، ونسبوا إلى هذا النبى العظيم ما لا يتناسب حتّى مع المنطق والعقل السليمين، فضلًا عن منزلة العصمة

والنبوّة، ومن جملة ذلك اسطورة شنيعة وملفّقة تدّعى ضياع خاتم سليمان، واختطافه من قبل أحد الشياطين وجلوسه على عرش سليمان ثمّ استلامه للحكم، (وذلك لوجود علاقة بين الخاتم والحكومة والتسلّط على الإنس والجنّ طبقاً لهذه الاسطورة)، وهذه الاسطورة المذكورة فى بعض الكتب بكلّ جدّية واعتقاد، والتى تبدو حسب الظاهر من خرافات الاسرائيليات الممتدّة جذورها إلى «التلمود» كتاب اليهود، (وهو عبارة عن مجموعة روايات فى تفسير قوانين موسى)، والتى يصعب التفوّه بها أو نقلها لوقاحتها.

---

(۱) عيون أخبار الرضا، ج ۱، الباب ۱۴، ص ۱۵۴.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۱۰

والذى يبدو صحيحاً من بين التفاسير والذى اشير إليه فى الروايات الإسلامية، تفسيران:

الأوّل: أنّ سليمان عليه السلام كان يتمنّى أن يكون له أبناء شجعان وأكفاء ليديروا حكومته من بعده، ويعينوه فى حياته على إدارة البلاد والنظام والجيش، ولذلك قال فى إحدى الليالى: لقد صممت على مقاربة العديد من نسائى على أمل أن ارزق بأولاد أكفاء، لكنّه لم يقل: (إن شاء اللّه)، فبسبب ترك الأولى هذا لم يرزق من زوجاته سوى طفل ناقص الخلقة كالجثّة الهامدة حيث ألقوه على كرسيّه.

جاء فى حديث عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله: «والذى نفس محمّد بيده لو قال إن شاء اللّه لجاهدوا فى سبيل اللّه فرساناً!» «۱».

وهنا انتبه سليمان عليه السلام إلى أنّه ترك الأولى فتاب لذلك وعفى اللّه تعالى عنه.

الثانى: أنّ المراد من جملة: «أَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً» هو أنّ سليمان قد مرض مرضاً شديداً حتّى عاد كالجثّة الهامدة فوق كرسيّه، فكان ذلك ابتلاءً إلهيّاً، ثمّ استعاد عافيته وشفى، وهو المراد من كلمة «أناب» فى الآية.

طبقاً لهذا التفسير الوارد فى تفاسير الكثير من أقطاب المفسّرين تكون جملة: «أَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً»، بمعنى: «القيناه على كرسيه جسداً» وهى خلاف ظاهر الآية بطبيعة الحال.

فضلًا عن عدم وضوح ما هو ترك الأولى الصادر من سليمان عليه السلام على أثر هذا المرض ليستغفر ربّه؟ إلّاأن يقال: إنّ الإنسان يرتكب تركاً للأولى فى حالاته المختلفة بشكل عامّ وحال مرضه بشكل خاصّ، وأنّ سليمان قد استغفر ربّه لمثل هذه الحالات، لكنّ هذا الجواب مبهم وغير مقنع.

الموضوع الآخر الذى اثير حول هذا النبى العظيم، هو الجملة التى تلى نفس هذه الآية وهى قوله: «وَهَبْ لِى مُلْكاً لَايَنْبَغِى لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِى».

فهل يتلاءم، هذا الطلب مع الروح السامية والنظرة البعيدة والزهد المنقطع النظير

---

(۱) ذكر البخارى هذا الحديث فى صحيحه، كما ذكرته بعض التفاسير ومن جملتها روح البيان؛ وفى ظلال القرآن فى ذيل الآيات مورد البحث.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۱۱

الذى يتمتّع به الأنبياء المعصومون عليهم السلام؟ ألا يُشمّ من هذا الكلام رائحة البخل ياترى؟

ورغم أنّ الحديث يدور هنا حول عصمة الأنبياء عليهم السلام، لكن على أيّة حال فالنقائص الأخلاقية الاخرى خصوصاً تلك التى تشمئزّ منها النفوس لا تتناسب مع درجاتهم ومنزلتهم الرفيعة.

وقد أجاب المرحوم السيّد المرتضى فى «تنزيه الأنبياء» والمحقّق الطبرسى فى «مجمع البيان» وباقى المفسّرين عن هذا السؤال فى تفاسيرهم بأجوبة متعدّدة «۱»، والأجوبة أدناه تعدّ أنسبها:

إنّ سليمان عليه السلام طلب من اللَّه تعالى أن تكون له معجزة خاصّة، كما أنّ لكلّ نبى معجزته الخاصّة، وكانت معجزته هى الحكم الذى لا مثيل له، الحكم على الإنس والجنّ وعلى الرياح والسحاب و ...، فوهبه اللَّه مثل هذه المعجزة، حكومة واسعة تتصف بالإعجاز فى مختلف الجوانب، ومن البديهى أنّ طلباً كهذا لا يعدّ عيباً ونقصاً للنبى.

والجواب الآخر هو: إحساس سليمان بالإذن لمثل هذا الطلب عن طريق الوحى، أو بعبارة اخرى: أنّ اللَّه تعالى شاء أن يتجسّد شعاع من قدرته وحاكميته عن طريق أحد أنبيائه العظام، فوجد سبحانه سليمانَ صالحاً لهذا الغرض فأجازه لمثل هذا الطلب، فطلب سليمان بدوره تلك المعجزة، فوهبه اللَّه تلك الحكومة العجيبة التى لا مثيل لها، والتى لم ولن يكون لها نظيرٌ فى العالم، ومن المسلّم أنّه حينما يجد اللَّهُ أحداً صالحاً لعمل ما، ويجيزه فى ذلك، لا يبقى هناك أدنى مجال للشكّ والترديد والإشكال.

الدليل على هذا الكلام هو ما ورد عن سيرة سليمان من أنّه كان زاهداً جدّاً فى حياته، كما نقرأ فى حديث عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال حول هذا الموضوع: «كان يأكل الشعير ويطعم الناس الحُوَّارى! «۲» وكان لباسه الشَعر وكان إذا جنّه الليل شدّ يده إلى عنقه فلا يزال قائماً يصلّى حتّى الصباح!» «۳».

---

(۱) تنزيه الأنبياء، ص ۹۷ و ۹۸؛ تفسير مجمع البيان، ج ۸، ص ۴۷۶.

(۲) الحوارى (بالحاء المضمومة والواو المشدّدة) هو «الطحين الأبيض».

(۳) سفينة البحار، مادّة (الزهد)، وتفاسير اخرى.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۱۲

وهناك تفسير لطيف حول هذا الموضوع فى حديث عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام وذلك حينما سئل عن تفسير الآية: «رَبِّ اغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكاً لَايَنْبَغِى لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِى» قال عليه السلام: «الملك ملكان ملك مأخوذ بالغلبة والجور وإجبار الناس، وملك مأخوذ من قبل اللَّه تعالى، كملك آل إبراهيم وملك طالوت وذى القرنين، فقال سليمان (وهب لى ملكاً لا ينبغى لأحد من بعدى) أن يقول إنّه مأخوذ بالغلبة والجور وإجبار الناس، فسخّر اللَّه عزّوجلّ له الريح ... وسخّر اللَّه عزّوجلّ له الشياطين ... وعلّم منطق الطير، ومكّن فى الأرض، فعلم الناسُ فى وقته وبعده أنّ ملكه لا يشبه ملك الملوك المختارين من قبل الناس، والمالكين بالغلبة والجور» «۱».

والمراد من هذا الحديث هو أنّ سليمان عليه السلام لم يطلب حكماً محدوداً، بل حكماً لا مجال فيه للقيل والقال والإتّهام بالزور والظلم، ولذا فقد مزج اللَّه هذه الحكومة بالمعجزات العجيبة لإثبات كونها من عنده تعالى، لا من الناس ولا عن طريق الظلم والغلبة «۲».

الجواب الثالث: ما أُثير حول مقام عصمة سليمان عليه السلام هو ما جاء فى نفس الآيات السابقة حيث يقول تعالى: «إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ* (الخيل الأصيلة)- فَقَالَ إِنِّى أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّى (إنّى أحبّ هذه الجياد فى سبيل اللَّه ومن أجل الجهاد، فبقى ينظر إليها ..) حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ* رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ (يمسح عليها لأنّها لائقة للقتال)». (ص/ ۳۱- ۳۳)

طبقاً للمعنى المتقدّم الذى تبيّن من هذه الآيات، لا يبدو هناك أى إشكال فى عمل سليمان عليه السلام هذا، فهو يعتدّ بقدرته العسكرية ويلتذّ بالتطلّع إلى الجياد المهيأة للجهاد، ويأمر بردّها عليه ثانية لاعتزازه بها، وهذه التصرّفات كلّها تبدو بشكل عام معقولة ومنطقية وإلهية.

لكن البعض فسّر هذه الآية بشكل آخر واعتبرها كبداية للإشكال على سليمان، وقال:

---

(۱) تفسیر نور الثقلین، ج ۴، ص ۴۵۹، ح ۵۶.

(۲) وبناءً علی هذا التفسیر فهناک جملة مقدرة فی الآیة تقدیرها: وهب لی ملکاً لا ینبغی لأحد من بعدی أن یقول لیس من عند اللَّه.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۱۳

إنّ الضمیر فی کلتا جملتی «توارت» و «ردوها» یعود إلی الشمس التی لم ترد فی العبارة، والتی یمکن استنتاجها من التعبیر ب «العشی» الوارد فی الآیة، وطبقاً لهذا التفسیر فقد ذهل سلیمان بالنظر إلی هذه الجیاد، إلی أن غابت الشمس وتوارت وراء الحجب، فغضب لذلک کثیراً لفوات صلاة العصر علیه، وحینئذ طلب من الملائکة إعادة الشمس ثمّ توضّأ وصلّی، وأنّ جملة «فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ» إشارة إلی وضوئه.

کما ذهب البعض إلی أبعد من هذا أیضاً، وقال: إنّ المراد من هذه الجملة هو: أنّه أعطی أمراً بقطع أعناق الجیاد وقوائمها، باعتبارها السبب وراء غفلته عن ذکر اللَّه (العذر الذی هو أقبح من الفعل)، والقول: إنّه ذبحها ووزّع لحومها فی سبیل اللَّه یبدو عجیباً أیضاً، لأنّ جیاداً بتلک القیمة والخاصیّة التی تلفت نظره إلیها حتّی یذهل لذلک لا ینبغی ذبحها کالأبقار والأغنام، إذ لو أراد إنفاقها لوجب إعطاؤها للآخرین وهی علی قید الحیاة، ولا یخفی علی أحد سقم هذه التفاسیر، وذلک لأنّ:

۱- لو کانت هذه الجملة «فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ» إشارة إلی وضوئه، فلیس لدیه سوی رقبة واحدة، والتعبیر ب «الأعناق» بصیغة الجمع مما یکون، کما أنّ لدیه ساقَین، والتعبیر ب (السوق) بصیغة الجمع یکون لا معنی له أیضاً، ومَن قالَ إنَّ الوضوء کانَ بالمَسْحِ؟ لا معنی له.

ولو کانت بمعنی قطع أعناق وقوائم الجیاد، فهو عمل غیر منطقی جدّاً، لا یقدم علیه حتّی الفرد العاقل العادی فکیف بنبی عظیم کسلیمان علیه السلام، إذ لا ذنب لها، بل لو کان هناک ذنب فهو منه حینما انشغل بالنظر إلیها.

أکثر ما یمکن أن یقال هنا هو أن یهبها للآخرین لتبقی بعیدة عنه ولا تشغله بنفسها، ولا داعی للقتل أبداً؟!

۲- لم یرد فی هذا الحوار کلام عن «الشمس»، والاستدلال علیها عن طریق «العشی» بعید جدّاً، لأنّ أقرب ما یعود إلیه الضمیر هنا هو «الخیر» الذی یعنی هنا «الجیاد» بکلّ تأکید، کما لم یرد شیء عن الملائکة أیضاً لیکونوا من مخاطبی سلیمان، فضلًا عن أنّ هذا التعبیر الذی وجهه سلیمان إلی الملائکة تشمّ منه رائحة صیغة الأمر، ویبدو مستبعداً جدّاً لعدم لیاقته وشأن الملائکة.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۱۴

۳- لو قبلنا هذا التفسیر علی سبیل الفرض، لأمکن القول: إنّ الصلاة التی أدّاها قضاءً کانت صلاة مندوبة، قد فاتت سلیمان وأنّها کانت قبل غروب الشمس، فکیف یثبت کونها صلاة واجبة؟ وأساساً کیف یثبت کون الفائت هی الصلاة؟! ربّما کانت أذکاراً خاصّة یؤدّیها سلیمان قبل الغروب، وقال بعض المفسّرین أیضاً: إنّ «ذِکرِ رَبّی» لو کان یعنی الصلاة الواجبة، وأنّ سلیمان علیه السلام کان قد غفل عنها لانشغاله بالجیاد استعداداً للجهاد، فلن یرد علیه إشکال أبداً، لأنّ نفس عمل سلیمان هذا یعدّ عبادة عظیمة قد أغفلته عن عبادة اخری.

لکن هذا التفسیر أیضاً یبدو بعیداً، نظراً للأهمیّة الخاصّة التی تتمتّع بها الصلاة، والصحیح هو ما قیل أوّلًا.

۸- یونس علیه السلام

وهناک آیة فی القرآن الکریم حول هذا النبی العظیم أیضاً، حیث تبیّن أنّه اعترف أمام اللَّه تعالی بالظلم ثمّ طلب العفو والمغفرة وأنّ اللَّه استجاب دعاءه وغفر له بعد اختبار طویل، یقول تعالی: «وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَیْهِ فَنَادَی فِی الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَکَ إِنِّی کُنتُ مِنْ الظَّالِمِینَ» ثمّ یضیف قائلًا: «فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّیْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَکَذلِکَ نُنْجِی الْمُؤْمِنِینَ». (الأنبیاء/ ۸۷- ۸۸)

وهنا يثار هذا السؤال وهو: كيف يتناسب وضع يونس فى صفوف الظلمة مع منزلة عصمته، ولمن ظلم؟، وما هى نوعية الظلم؟ ثمّ أنّ يونس عليه السلام على من غضب؟ ولماذا ظنّ أنّ اللَّه لن يضيّق عليه؟ ألا يمكن لهذه الجهات الثلاث مجتمعة أن تكون بمثابة علامة إستفهام على مسألة عصمته؟

ورد نفس هذا المعنى بشكل غامض فى القرآن الكريم: «فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ* لَوْلَا أَنْ تَدارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ* فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ». (القلم/ ۴۸- ۵۰)

كما يستفاد من هذا التعبير أيضاً أنّه كان قد تسرّع فى أمره وأشرف على الهلاك لولا أن أسعفه لطفه تعالى.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۱۵

ونفس هذا المعنى تكرّر أيضاً فى سورة الصافات، وذلك بعد الإشارة إلى قصّة هربه من قومه وركوبه فى السفينة، وإلقاء القرعة ثمّ إلقائه فى فم حوت عظيم، يقول تعالى: «فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ* لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ». (الصافات/ ۱۴۳- ۱۴۴)

ما هو الذنب الذى اقترفه ليسجن فى بطن الحوت، ويلبث فيه مدّة مديدة لولا تسبيحه للَّه تعالى؟، خلاصة القول: إنّ قصّة يونس عليه السلام التى جاءت فى ثلاث سور من القرآن الكريم (الأنبياء، القلم، الصافات) وبعبارات مختلفة تثير استفهامات شتّى حول مقام عصمة هذا النبى العظيم وتستدعى جواباً منطقيّاً.

الجواب:

صحيح أنّ التعابير المختلفة للآيات المذكورة تبيّن أنّ ذنباً ما قد صدر من يونس عليه السلام، فالتعبير ب «الظالم» و «المليم» (يأتى أحياناً بمعنى ملامة النفس، أو القيام بعمل يستوجب ملامة الآخرين لفاعله، لأنّ لفظة «المليم» قد فسّرت بكلا المعنيين)، وكذلك التعبير بأنّ يونس عليه السلام: «فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ* لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِ الى يَوْمِ يُبْعَثُونَ»، والتعبير ب «فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ» وتعبير «لَاتَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ»، الذى يأمر نبى الإسلام صلى الله عليه و آله: بأن لا يكون كيونس عليه السلام، وكذلك تعبير: «لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ»، كلّ هذه التعابير تبيّن وقوع شىء ممّا لا ينبغى وقوعه.

لكن القرائن تشير إلى أنّ هذا العمل المخالف لم يكن سوى ترك الأولى، لأنّ اللَّه تعالى وفى نفس هذه الآيات قد تحدّث عن يونس كنبى مرسل، موضع العناية الإلهيّة الخاصّة، وفى سورة (الأنعام/ ۸۶) يعتبره اللَّه تعالى من الأنبياء العظام الذين فضّلهم على العالمين، كما يعتبره فى عداد الأنبياء عظيمى الشأن كإبراهيم ونوح وإسماعيل وعيسى عليهم السلام، وذلك فى سورة (النساء/ ۱۶۳).

امّا ما هو ترك الأولى هذا؟ فهناك احتمالات متنوّعة، يمكن لكلّ واحد منها منفرداً

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۱۶

فضلًا عن مجموعها، أن يكون دليلًا على ترك الأولى فقط، من جملتها: أنّه تسرّع فى ترك قومه إذ كان الأجدر به أن يصبر أكثر، أو أنّه تعجّل بالدعاء عليهم، أو أنّه كان ينبغى عليه انتظار الأمر الإلهى حين خروجه من بين قومه حتى ولو كان قد يئس من هدايتهم على ما يبدو.

ولا يخفى أنّ أيّاً من هذه الامور لا يعدّ ذنباً، لكنّها لو لم تكن لكان أفضل، وبناءً على هذا فقد استحقّ العتاب والملامة، والتعبير ب «الظلم» أو «الإبتلاء بالعقاب الإلهى» إنّما هو من باب «حَسَناتُ الابْرارِ سَيِّئاتُ الْمُقَرَّبِينَ»، والذى تقدّم الكلام عنه مفصّلًا عند البحث عن ترك آدم عليه السلام للأولى، كما يحتمل أيضاً تصوّره بأنّ اللَّه تعالى لن يضيق عليه «فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ»، أنّ تصوّره هذا كان بمثابة ترك الأولى، وذلك لأنّ تمتّع الأنبياء عليهم السلام بمستوى عالٍ من الإيمان يفرض عليهم العيش دائماً بين الخوف والرجاء لا اعتبار أنفسهم فى أمان من العقاب الإلهى، أو القنوط من رحمته.

أمّا التعبير ب «مغاضباً» فواضح أنّه يعنى الغضب على أعمال قومه المذنبين، لا الغضب على اللَّه تعالى! كما ذهب إليه بعض المغفّلين، لأنّ هذا ليس فقط متنافياً مع مقام الأنبياء، بل لا يتناسب وأدنى حدّ من الإيمان أيضاً لأنّ ما يقابل الغضب على اللَّه هو الكفر باللَّه.

وعبارة «مغاضباً لربّه» الواردة فى الروايات أو كلمات بعض أقطاب أهل التفسير إنّما تعنى «مُغَاضِباً لَاجْلِ رَبِّهِ» أى أنّه غضب لأجل اللَّه تعالى نتيجة أعمال قومه.

ومن هنا يتّضح سبب مكوثه فى سجن مظلم تتوالى ظلماته الواحدة بعد الأخرى (ظلمة بطن الحوت، ظلمة البحر، وظلمة الليالى)؟ وسبب عزمه على التضرّع والإستغفار وطلب العفو، بتلك العبارات الموزونة المتينة: «لَاإِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ».

الملفت للنظر هو ما جاء فى البعض من الروايات، أنّ الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام قال: «حينما كان يونس فى خلوته فى بطن الحوت متوجّهاً بكلّ وجوده إلى العبادة مستجيراً باللَّه تعالى وحده، اعتبر نفسه من الظالمين لأنّه لم يأت بعبادة خالصة كهذه من قبل، فقال أن

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۱۷

لاـ إله إلّاأنت سبحانك انّى كنت من الظالمين، بتركى مثل هذه العبادة التى فرغْتَنى لها فى بطن الحوت، فقبل اللَّه تعالى منه ذلك، وقال عزّوجلّ: «فلولا أنّه كان من المسبّحين للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون»» «۱».

امّا فيما يتعلّق بتفسير الآيات المتعلّقة ب «يونس» عليه السلام وما هو ذلك الحوت الذى تمكّن من الإحتفاظ به فى بطنه؟ وكيف يمكن للإنسان البقاء حيّاً مدّة طويلة بلا ماء أو طعام أو هواء؟ وكيف يمكن لذلك الإنسان ألّا يذوب ويهضم فى المعدة الواسعة للحيوان؟ واسئلة اُخرى من هذا القبيل، فالكلام عنها خارج عن موضوع بحث العصمة، ومن أراد الوقوف على أجوبة هذه الأسئلة يمكنه الرجوع إلى «التفسير الأمثل»، الأجزاء ۱۳ و ۱۹ و ۲۴ فى تفسير الآيات التى تتحدّث عن يونس عليه السلام.

۹- نبى الإسلام صلى الله عليه و آله

هناك آيات قرآنية مختلفة تثير التساؤلات حول مسألة عصمة نبى الإسلام صلى الله عليه و آله، فيما يلى أهمّها:

أ) «إِنَّا فَتَحْنَا لَکَ فَتْحاً مُبِيناً* لِيَغْفِرَ لَکَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِکَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْکَ وَيَهْدِيَکَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً». (الفتح/ ۱- ۲)

بما أنّ كلمة «الذنب» تعنى المعصية، إذن فكيف ينسجم هذا المعنى مع العصمة والمنزلة الرفيعة لهذا النبى العظيم؟

للمفسّرين أبحاث كثيرة وآراء متنوّعة فى معرض إجابتهم عن هذا السؤال، من جملتها:

إنّ المراد هو ترك الأولى ليس إلّا، والذى لا يتنافى أبداً مع مقام العصمة، إذ إنّ الإنسان حينما يرجّح المهمّ على الأهمّ والحسن على الأحسن يقال له: لقد «ترك الأولى». (تأمّل جيّداً)، إذ إنّه وفضلًا عن عدم ارتكابه لذنب فقد أدّى مستحبّاً أيضاً، غاية ما فى الأمر أنّه كان هناك مستحبّ أقوى ممّا أدّاه، وإطلاق الذنب والمعصية على مثل هذا العمل إنّما هو لعلو

---

(۱) تفسير نور الثقلين، ج ۳، ص ۴۵۰، ح ۱۳۷.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۱۸

مقامه إذ كما قلنا: «حسنات الابرار سيئات المقربين».

الآخر هو أنّ المراد بالذنب هو معصية الامّة (وبناءً على هذا ففى الآية شيء مقدّر وهو كلمة «الامّة»)، أى (من ذنب امّتك ..).

وقول ثالث يشير إلى أنّ المراد به الذنوب التى ارتكبت فى حقّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، (إذ إنّ للذنب معنىً مصدريّاً يضاف أحياناً إلى الفاعل واخرى إلى المفعول)، ومن المسلّم أنّ الأعداء لم يتمكّنوا من تكرار ارتكاب نفس تلك المظالم والذنوب، التى ارتكبوها فى حقّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله قبل فتح مكّة.

لكن ما عدا التفاسير الثلاثة المتقدّمة وتفاسير اخرى أهملناها لعدم أهميّتها، فلدينا تفسير أنسب وأكثر انسجاماً مع مضمون ومحتوى الآيات المذكورة والقرائن الموجودة فيها، وذلك من جهات شتّى، كما ويتلاءم مع روايات المعصومين عليهم السلام أيضاً:

توضيح ذلك: لغرض فهم معنى الآية يجب التركيز على التعابير السابقة واللاحقة لها، بالإضافة إلى التعابير التى تتضمّنها الآيات نفسها، إذ تمّ التصريح فى هذه الآية بوجود علاقة بين «الفتح» المذكور وغفران هذه الذنوب، يقول تعالى: إنّ الهدف من هذا «الفتح المبين» (صلح الحديبية أو فتح مكّة على حدّ قول البعض) هو أن يغفر اللَّه ذنوبك السابقة واللاحقة.

علاوة على هذا، فغفران الذنوب السابقة معلوم، امّا الذنوب التى لم ترتكب بعد فكيف تشملها المغفرة الإلهيّة، ألا يفهم من هذا الكلام إعطاء الضوء الأخضر بجواز ارتكاب أى ذنب فى المستقبل؟ فهل هذا الأمر منطقى ومعقول؟!

من خلال التدقيق فى هاتين الملاحظتين يمكننا إدراك المفهوم الواقعى للآية، وهو أنّ من الطبيعى عند حدوث ثورة إلهيّة فسوف يتعرّض ذوو المصالح اللامشروعة للخطر بسببها، ومنهم المؤيّدون للعادات الخرافية، والمتعصّبون بلا دليل، والمتحجّرون الجامدون الذين يجدون عقائدهم الخاطئة مهددة بالخطر والزوال، فسوف يقفون فى وجه تلك الثورة بكلّ قوّة، ونراهم ينسبون إليها كلّ ما هو مُشين، لغرض إجهاضها وإخمادها، فيصطنعون

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۱۹

ضدّها الأكاذيب، ويلصقون بها التّهم، وينسبون لقائدها شتّى الرذائل، من جملتها أنّه قد أحدث الفرقة وشقّ وحدة الصفّ، وأهان المقدّسات، ولا يرمى سوى الوصول إلى السلطة والحكومة واستعباد الناس ونيل المنزلة والثروة، وأنّه آلة بيد الآخرين ومنفذ لأهداف الأجانب!! فلو لم يحالف النجاح هذه الثورة، فانّ هذه التّهم تتعاظم شيئاً فشيئاً بدل انحسارها وتوقّفها، وبديهى أنّ فشلها يعدّ بمثابة الدليل على صدق هذه الإدّعاءات.

لكن حينما انتصرت الثورة بلطف الرعاية الإلهيّة، وتم القضاء على العادات الخرافية، وتلاشت المصالح الشخصية اللامشروعة، واتّضحت حقّانية دعوة ذلك القائد السماوى، فسرعان ما تبدّدت كلّ تلك الإساءات التى نُسبت إليه والإتّهامات الباطلة سواء المتعلّقة منها بالماضى أو التى كان من المقرّر طرحها فى المستقبل، وحلّ الندم والاسف محلّ التهجّمات والإتّهامات الزائفة، وخسِئ حتّى المنافقون الذين أعمى اللَّه أبصارهم، والمتعصّبون الذين يعاندون ولا يؤمنون، لأنّهم أيقنوا بالفشل أمام هذه الحقيقة.

ولذا يقول تعالى للنبى صلى الله عليه و آله «إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً* لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ» (أى ممّا كانوا يعدّونه ذنباً وممّا سيرمونك من تهمة الذنب) «۱».

ومن هنا يتّضح السبب وراء نسبة هذا الغفران إلى اللَّه، باعتباره هو الذى هيّأ مقدّمات هذا الغفران، والتى هى عبارة عن نفس ذلك «الفتح المبين».

والملفت هنا هو انّنا نجد هذا المطلب متجسّداً بكلّ وضوح فى حديث عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام فى كتاب «عيون أخبار الرضا»، حيث قال عند ردّه على سؤال المأمون عن كيفية تناسب هذه الآية مع درجة عصمة الأنبياء: «لم يكن أحد عند مشركى مكّة أعظم ذنباً من رسول اللَّه، ثمّ يضيف موضّحاً ذلك قائلًا: وحيث إنّهم كانوا يعبدون ثلاثمائة وستّون صنماً، فحينما دعاهم النبى صلى الله عليه و آله إلى التوحيد شقّ عليهم ذلك كثيراً وقالوا باستغراب، هل تستبدل كلّ آلهتنا بإله واحد؟ ياللعجب؟! كما أضاف قائلًا: (فلمّا فتح اللَّه

---

(۱) «غفر» و «غفران» و «مغفرة» تعنى فى الأصل ستر الشىء وتغطيته على حدّ قول صاحب مقاييس اللغة، ومن هنا اطلق على غفران الذنوب أيضاً.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۲۰

تعالى على نبيّه مكّة قال له يامحمّد إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك اللَّه ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر عند مشركى أهل مكّة، بدعائك توحيد اللَّه فيما تقدّم وما تأخّر لأنّ مشركى مكّة أسلم بعضهم وخرج بعضهم عن مكّة، ومن بقى منهم لم يقدر على إنكار

التوحيد إذ دعا الناس إليه فصار ذنبه عندهم فی ذلک مغفوراً بظهوره عليهم).

فحينما سمع المأمون هذا التفسير قال: للّهدرّک ياأبا الحسن! «۱».

كما ورد نفس هذا المعنى بعبارات اخرى فی حديث عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام، رواه السيّد ابن طاووس فی كتاب «سعد السعود»، وهو: أنّ قريشاً وأهل مكّة قد نسبوا الكثير من الذنوب إلى نبی الإسلام صلى الله عليه و آله قبل الهجرة وبعدها، وحينما تمّ فتح مكّة وتعامل النبی الأكرم صلى الله عليه و آله بتلک الرأفة مع أعدائه المعاندين، غضّوا الطرف عن كلّ تلک الذنوب التی كانوا قد نسبوها إليه «۲».

وأخيراً يقول القرآن: «وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْکَ وَيَهْدِيَکَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً».

واضح أنّ نعمة اللَّه قد اكتملت ليس فقط بالنسبة للنبی، بل لكلّ المجتمعات الإسلامية عن طريق هذا الفتح العظيم، فلقد خسر أعداء الإسلام وإلى الأبد، بينما مهّد الطريق لمسير النبی الأكرم صلى الله عليه و آله، وكافّة المسلمين لتقدّم أكبر.

ب) نقرأ فی آية أخرى أنّ اللَّه يخاطب النبی الأكرم صلى الله عليه و آله قائلًا: «عَفَا اللَّهُ عَنْکَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَکَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ».

أو ليس التعبير ب «العفو» من جهة و «العتاب والملامة»، والإستغفار عن سبب ترخيصه لهم من جهة أخرى، دليلًا على أنّ سماح النبی لبعض المنافقين بعدم الإشتراک فی القتال كان عملًا مخالفاً؟ هل تتلاءم هذه الآية مع درجة عصمة هذا النبی العظيم؟

(۱) تفسير نور الثقلين، ج ۵، ص ۵۶، ح ۱۸.

(۲) المصدر السابق، ح ۱۷ بتلخيص واقتباس.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۲۱

اللطيف هو أنّ اللَّه أشار فی هذه الآية إلى العفو أوّلًا ثمّ يأتی العتاب، لكن البعض من المغفّلين تناول هذا الموضوع بشكل مسیء حتّى اعتبر الآية دليلًا على صدور الذنوب من النبی الأكرم صلى الله عليه و آله، دون الإلتفات إلى لطف هذا البيان الإلهی الذی أشرنا إليه! من جملتهم «الزمخشری» فی «الكشّاف» حيث قال فی تفسير هذه الآية: «جملة عفا اللَّه عنک كناية عن الجناية لأنّ العفو مرادف لها ومعناه: أخطأت وبئس ما فعلت» «۱».

لكنّه لو تأمّل أكثر فی محتوى الآية وصدرها وذيلها، والتعابير الواردة فيها لأدرک أنّ كلمة العفو والعتاب إنّما هی فی الحقيقة لبيان سوء معاملة المنافقين للنبی صلى الله عليه و آله، وتوجيه الكلام إليه صلى الله عليه و آله إنّما هو نوع من التعبير الكنائی اللطيف لبيان واقعة خطيرة.

وتوضيح ذلک: يخاطب الإنسان أحياناً أحد أصدقائه ويعاتبه لأنّه لم يَدَع الشخصَ الفلانیَّ يُفتَضَح وتُبيّن حقيقتُه للناس! فی حين أنّ هذا العتاب والخطاب يعدّ مقدّمة لانتقاد شخص ثالث فی حقيقة الأمر.

ويمكن توضيح هذا الموضوع بضرب مثال بسيط: لو فرضنا أنّ أحداً أراد أن يوجه صفعة إلى إبنک البریء، فمنعه أحد أصدقائک، فمع انّک لم تنزعج من تصرف صديقک بطبيعة الحال، لكن أحياناً ولغرض إثبات سوء سريرة ذلک الشخص، تلتفت إلى صديقک وتقول له معاتباً: لماذا لم تدعه يصفع إبنی حتّى يتعرّف الناس على قساوة قلبه، هذا الخطاب الذی هو على صيغة العتاب والملامة، هو فی الواقع كناية بليغة عن قساوة ذلک الظالم.

جاء فی بعض التعابير الواردة عن الإمام علی بن موسى الرضا عليه السلام فی تفسير هذه الآية:

هذا ممّا نزل «اياک اعنی واسمعی ياجارة» خاطب اللَّه تعالى بذلک نبيه، واراد به امته «۲».

يحتمل أن يكون هذا الكلام إشارة إلى نفس ذلک المطلب المتقدّم أعلاه، والدليل على هذا الأمر هو الصلاحية التی اعطيت للنبی

صلی الله علیه و آله فی الآیات القرآنیة الأخری، وذلک بالسماح لمن شاء من المؤمنین بالتفرّغ لمشاغلهم الشخصیة، وعدم الإشتراک فی بعض

---

(۱) تفسیر الکشّاف، ج ۲، ص ۲۷۴.

(۲) تفسیر البرهان، ج ۲، ص ۱۳۰، ح ۱.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۲۲

الأعمال الهامّة، فیما لو طلبوا ذلک وکان فیه صلاح: «فَإِذَا اسْتَأْذَنُوکَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ». (النور/ ۶۲)

وبناءً علی هذا فلا مانع من سماح النبی الأکرم صلی الله علیه و آله، لبعض المنافقین بعدم الإشتراک فی المعرکة، خصوصاً وأنّ إشتراکهم لن یحلّ للمسلمین أیّة مشکلة، هذا إن لم یخلق لهم مزیداً من المتاعب.

من مجموع هذه الإعتبارات یمکن إدراک أنّ التفسیر الأخیر یناسب الآیة المتقدّمة، إذ لا وجود لما یخدش مقام العصمة فیها.

ج) الآیة الأخری التی نزلت فی مسألة زواج نبی الإسلام صلی الله علیه و آله من مطلّقة إبنه بالتبنّی (زید)، أثارت استفهاماً لدی البعض أیضاً.

هذه الآیة تقول بصراحة: کلّما حدث خلاف بین زید وزوجته، کان النبی یحثّ زیداً علی عدم طلاقها، ویکرّر علیه ذلک، ولکن حینما لم تؤثّر هذه التوصیات، وطلّق زید زوجته تزوّجها النبی الأکرم صلی الله علیه و آله، لیحطّم تلک العادة الجاهلیة البغیضة التی کانت تعتبر زوجة (الإبن بالتبنّی) حراماً علی الإنسان، کزوجة الإبن الحقیقی، هذا من جهة.

ولیعید من جهة أخری إلی (زینب) حیثیتها واعتبارها، لأنّها حفیدة عبدالمطلّب وابنة عمّة النبی الأکرم صلی الله علیه و آله ومن أُسرة معروفة، وکانت قد تزوّجت زیداً العبد المعتق امتثالًا لأمر النبی الأکرم صلی الله علیه و آله بذلک، ومن المسلّم أنّ زواجاً کهذا کان صعباً علیها وکان هذا الفراق أصعب. (تأمّل جیّداً).

وهنا یقول القرآن: «وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِی أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَیْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَیْهِ أَمْسِکْ عَلَیْکَ زَوْجَکَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِی فِی نَفْسِکَ مَا اللَّهُ مُبْدِیهِ وَتَخْشَی النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَی زَیْدٌ مِنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاکَهَا لِکَیْ لَایَکُونَ عَلَی الْمُؤْمِنِینَ حَرَجٌ فِی أَزْوَاجِ أَدْعِیَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَکَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا». (الأحزاب/ ۳۷)

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۲۳

وهنا فُسِحَ المجال لبعض المغفّلین وأحیاناً المغرضین لنسج مجموعة من الأساطیر الکاذبة، وفرضها علی القرآن ونسبتها إلی نبی الإسلام صلی الله علیه و آله «۱».

المهمّ لدینا هنا وما ینبغی توضیحه جملتان وردتا فی الآیة السابقة، وإلّا فالأساطیر الخرافیة التی لا أثرلها فی القرآن، لیست شیئاً یستحقّ التحقیق فیه والردّ علیه.

جاء فی إحدی الجمل: «وَتُخْفِی فِی نَفْسِکَ مَا اللَّهُ مُبْدِیهِ».

کما نقرأ فی الجملة الثانیة: «وَتَخْشَی النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ».

ألا تتنافی هاتان الجملتان مع مقام عصمة النبی الأکرم صلی الله علیه و آله؟

مفهوم الجملة الاولی یبدو مبهماً، لکن الذین یحوکون الأساطیر ربطوا بها مطالب کثیرة، وقدّموها کلقمة سائغة لأعداء الإسلام حتّی یتّهموا النبی الأکرم صلی الله علیه و آله (والعیاذ باللَّه) بعشقه لزوجة زید.

فی حین أنّ نفس الآیة تکذب هذا الإدّعاء، إذ تقول: إنّک أوصیت زیداً مراراً بعدم طلاق زوجته (لا یفوتک أنّ جملة «إذ تقول» هی

بصيغة المضارع الدالّ على الإستمرار)، ولو كانت المسألة كما توهّمها الأعداء لوافق النبى الأكرم صلى الله عليه و آله على الطلاق بكلّ رحابة صدر، أو لاختار السكوت على أقلّ تقدير، فكيف يعقل أن ينهاه عن ذلك والحالة هذه.

امّا فيما يتعلّق بالجملة الثانية فقد قالوا: بأىّ دليل يخاف النبى الأكرم صلى الله عليه و آله من الناس، واللَّه أحقّ أن يخافه ويخشاه؟ بالرغم من الإحتمالات الكثيرة التى اعطيت لتفسير هذه الآية، خصوصاً هاتين الجملتين، حتّى أنّ بعض المفسّرين المعروفين تورّط فى الإشتباه، فمجرّد إمعان النظر فى متن نفس الآية (خصوصاً الجمل السابقة واللاحقة لهاتين الجملتين) يُدرك المرء وضوح وجلاء مفهوم الآية، امّا لو لوحظت لوحدها مجرّدة عمّا يحيط بها فما أكثر الإبهامات التى ستحفّ بها.

---

(۱) لمن أراد مزيداً من الإطلاع على هذه القصص الموضوعة ونقدها، الرجوع إلى التفسير الأمثل، ذيل الآية مورد البحث.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۲۴

لو أخذنا الآية جملة جملة، وفسّرناها لكان معناها كما يلى أنعم اللَّه بالإيمان على «زيد» ابن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله بالتبنّى (الذى كان سابقاً عبداً للنبى صلى الله عليه و آله ثمّ أعتقه، وتبناه لذكائه ودرايته)، كما أنعم عليه النبى الأكرم صلى الله عليه و آله إذ أعتقه واعتبره كولده، وزوَّجه ابنة عمّته التى كانت لها شخصيّة مرموقة فى المجتمع، هذا هو مفهوم جملة «أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ».

كما يستفاد من الجملة الثانية وقوع سوء التفاهم بين زيد وزوجته حتّى جال فى ذهنه طلاقها، وأنّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله كان يحثّه على عدم الطلاق، ويدعوه للورع والتقوى: «أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ».

كان النبى الأكرم صلى الله عليه و آله هنا أمام محذورين: فهو من جهة يفكر فى أنّه لو انتهى الأمر بالطلاق لوجب عليه أن يتزوّجها، لِينهى كلم الناس السىّ الذى سيلحق بإبنة عمّته زينب، باعتبار أنّ العبد المعتق أيضاً لم يرض بها فطلّقها، ومن جهة أخرى كان يخشى الناس خصوصاً المنافقين، الذين كانوا يتربّصون به الدوائر والذرائع ليعيروه بهذا الأمر من جهتين:

الاولى تجاوزه لاحدى عادات عرب الجاهلية المتأصّلة، والتى كانت تعتبر زوجة الإبن بالتبنّى كزوجة الإبن الحقيقى وأنّ الزواج منها هو كالزواج من تلك.

الثانى: إعتقادهم بأنّ الزواج من مطلّقة العبد المعتق هو دون شأن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، وأنّه انتقاص من مكانته.

لكن شاء اللَّه أن يتحقّق هذا الزواج بعد ذلك الفراق؟ وأن تتحطّم تلك العادة السيّئة، كما جاء فى ذيل الآية: «لِكَىْ لَايَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِى أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً».

وبناءً على هذا، فالذى كان النبى الأكرم صلى الله عليه و آله يخفيه فى قلبه، وأعلنه اللَّه فى خاتمة المطاف هو الزواج من زوجة زيد فى حالة إصراره على طلاقها.

والذى كان يخشاه النبى الأكرم صلى الله عليه و آله هو ردّ الفعل نتيجة لقضائه على احدى عادات الجاهلية، كذلك زواجه من امرأة دون شأنه صلى الله عليه و آله، واستمرّ خوفه ما دام الأمر الإلهى القطعى

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۲۵

لم يصدر بحقّه، لكن بعد صدوره بلزوم زواجه منها وتحطيمه لكلتا العادتين الخاطئتين، بل حتّى أنّ صيغة عقد زواجه أجراها اللَّه تعالى كما فى متن الآية: «زَوَّجْنَاكَهَا»، لم يبق هناك بعد ذلك أى مجال لخوفه وتردّده بالنسبة لهذه المسألة.

اللطيف هو التأكيد على هذه المسألة فى الآية التى بعدها أيضاً: قال تعالى: «مَا كَانَ عَلَى النَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيما فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِى الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً».

هذه الآية تشير بصراحة إلى أن ما قام به النبى الأكرم صلى الله عليه و آله هنا، كان فريضة إلهية وسنّة كانت فى الأوّلين أيضاً، وأمراً إلهيّاً مقدّراً ينبغى وقوعه.

بديهى أنّ هذه المسألة لو كانت نابعة عن رغبة شخصية، لما كان لهذه التعابير النازلة بشأنها أى معنى يذكر، لكن لا الأعداء المغرضون يصغون لمثل هذه الحقائق، ولا البعض من رواة القصص المغفّلين الذين يرجّحون الأساطير المفتعلة الصاخبة فى مثل هذه الحوادث على الحقائق.

لكن ولحسن الحظّ فانّ تعابير القرآن هنا كافية وواضحة جدّاً، والملفت للنظر هو ما نقرأه فى حديث نقله «القرطبى» المفسِّر المعروف من أهل السنّة عن الإمام على بن الحسين عليه السلام حيث يقول: «إنّ النبى صلى الله عليه و آله كان قد أوحى اللَّه تعالى إليه أنّ زيداً يطلّق زينب، ويتزوّجها النبى صلى الله عليه و آله، فلمّا اشتكى زيد للنبى صلى الله عليه و آله خُلق زينب، وأنّها لا تطيعه، وأعلن أنّه يريد طلاقها، قال له رسول اللَّه صلى الله عليه و آله على جهة الأدب والوصيّة: (اتّق اللَّه فى قولك وأمسك عليك زوجك)، وهو يعلم أنّه سيفارقها ويتزوّجها، وهذا هو الذى أخفى فى نفسه، ولم يرد أن يأمره بالطلاق لما علم أنّه سيتزوّجها، وخشى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أن يلحقه قول من الناس فى أنّ يتزوّج زينب بعد زيد، وهو مولاه وقد أمره بطلاقها، فعاتبه اللَّه تعالى على هذا القدر من أن يخشى الناس لشيء قد أباحه اللَّه له، بأن قال (أمسك) مع علمه بأنّه يطلّق، واعلمه أنّ اللَّه أحقّ بالخشية أى فى كلّ حال».

ثمّ يضيف (القرطبى) قائلًا: «قال علماؤنا رحمة اللَّه عليهم وهذا القول أحسن ما قيل فى

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۲۶

تأويل هذه الآية، وهو الذى عليه أهل التحقيق من المفسّرين والعلماء الراسخين».

ثمّ يتابع كلامه هذا قائلًا: «يقول الترمذى فى نوادر الوصول (وضمن الإشارة إلى هذا الحديث) بأنّ على بن الحسين قد جاء بهذا من خزانة العلم جوهراً من الجواهر ودرّاً ثميناً من الدرر ...» «۱».

د) الآية الأخرى التى تثير الاستفهام حول النبى الأكرم صلى الله عليه و آله هى قوله تعالى: «وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِى آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ». (الانعام/ ۶۸)

السؤال هو: لو تمكّن الشيطان من النفوذ إلى روح النبى الطاهرة وأنساه الحكم الإلهى بعدم مجالسة أهل الباطل، فكيف يمكن أن يكون معصوماً من الخطأ؟ وبعبارة أخرى أنّه يفتقد أحد فرعى «العصمة» وهو الصون من السهو والخطأ والنسيان، ألا تخدش الآية أعلاه فى عصمة الرسول صلى الله عليه و آله؟

الجواب:

التأمّل فى الآية التى تليها يبيّن بكلّ وضوح أنّ الحديث وإن كان حسب الظاهر موجّهاً إلى النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، لكنّ المراد فى الواقع هو أصحابه، وأنّهم لو ابتلوا بالنسيان وشاركوا فى المجالس الملوثة بالذنوب، واستهزأ الكفّار بمقدساتهم فيجب عليهم ترك ومغادرة ذلك المكان فوراً، وذلك لكى يلتفتوا إلى أنفسهم، وهذا فى الحقيقة من قبيل المثل العربى المعروف: «ايَّاكَ اعْنِى وَاسْمَعِى يَاجَارَةٌ».

إذ انّنا نقرأ فى الآية التى تليها: «وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ». (الأنعام/ ۶۹)

---

(۱) تفسير القرطبى، ج ۸، ص ۵۲۷۲، ذيل الآيات مورد البحث.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۲۷

وكما نلاحظ فالكلام فى هذه الآية يخصّ المتّقين، والمقصود منه عامّة المسلمين لا شخص النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، وهذه الآية تكمل بحث الآية السابقة عليها.

نظير هذه الأبحاث يشاهد فى الكثير من الحوارات اليومية أيضاً وفى آداب مختلف اللغات، والتى توجّه الكلام إلى شخص معيّن وتقصد شخصاً غيره.

من جملتها ما نشاهده في القرآن الكريم وذلك عند التوصية في حقّ الأبوين:

«وَقَضى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْساناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيماً». (الاسراء/ ۲۳)

واضح أنّ الضمير في «ربّك» يعودإلى النبي الأكرم صلى الله عليه و آله، في حين أنّ خطاب «ألّا تعبدوا» موجّه إلى كافّة المؤمنين (لوروده بصيغة الجمع)، ثمّ أنّه في جملة: «إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ»، وإلى آخر الآية، فالضمائر كلّها مفردة والمخاطب فيها هو النبي الأكرم صلى الله عليه و آله مع علمنا بأنّه صلى الله عليه و آله كان قد فقد أبويه لسنين طويلة قبل النبوّة، وبناءً على هذا فمثل هذه الأوامر حول احترام الأبوين التي تخاطب النبي الأكرم صلى الله عليه و آله إنّما هي من قبيل المتقدّم: «ايَّاكَ اعْنِي وَاسْمَعِي يَاجَارَة».

وما ذهب إليه جمع من مفسّري أهل السنّة، من عدم المانع من كون النبي الأكرم صلى الله عليه و آله هو المخاطب في الآية مورد البحث، وجواز مثل هذا النسيان في حقّه، لا يبدو صحيحاً، حيث إنّ مورد آية النسيان هو أحكام اللَّه تعالى، وهل يصحّ أن ينسى النبي الأكرم صلى الله عليه و آله الأحكام الإلهيّة، وأي اعتماد واطمئنان بعد ذلك في كلامه عن الوحي الذي هو أساس دعوته والحالة هذه؟!

ه) البعض من آيات سورة «الضحى» هي من جملة الآيات التي تدعونا، نحن الذين نعتقد بلزوم عصمة النبي الأكرم صلى الله عليه و آله منذ ولادته، للإستفسار، يقول تعالى: «أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى* وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى* وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى». (الضحى/ ۶- ۸)

للمفسّرين آراء مختلفة حول تفسير هذه الآية وبيان محتواها: فالقليل منهم فسّر الآية بمعنى الكفر والضلال، بل حتّى أنّ بعض المفسرين الغافلين الذين يجهلون أدلّة العصمة

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۲۸

قالوا: إنّ نبي الإسلام صلى الله عليه و آله كان على دين قومه (الوثنية) أربعين سنة إلى أن هداه اللَّه.

لكن كلّ مفسّري «الشيعة» وجمهور مفسّري «السنّة» (كما اعترف بذلك الفخر الرازي) لم يقبلوا مثل هذا التفسير، بل متّفقون بالجملة على أنّ نبي الإسلام صلى الله عليه و آله لم يكفر طوال عمره، ولو لحظة واحدة ولم يشرك أبداً.

ولهؤلاء المفسّرين آراء عديدة حول تفسير الآية وقد بلغ عددها عشرين تفسيراً، جمعها الفخر الرازي في ذيل الآية مورد البحث، ومن التفاسير التي تلفت النظر وتتسق مع مضمون الآية وسائر آيات القرآن هي التفاسير التالية:

۱- مع الإلتفات إلى الآيتين السابقة واللاحقة لها واللتين تشيران إلى فترة طفولته صلى الله عليه و آله وشبابه، أي الإشارة إلى أنّك أيّها النبي الأكرم صلى الله عليه و آله قد تعرضت للضياع في تلك الفترة (مراراً) وتعرّضت حياتك للخطر (تارةً حينما جاءت بك امّك من مرضعتك «حليمة السعدية» وذلك بعد انقضاء فترة رضاعك إلى مكّة لتسلّمك إلى عبدالمطّلب فضعت في الوادي، وتارةً أخرى بين أودية مكّة حين كنت في كفالة عبدالمطّلب، وثالثة حينما كنت متّجهاً مع عمّك أبي طالب في قافلة إلى الشام، إذ ضللت الطريق في ليلة حالكة الظلام، وانقطع عنك رفاق طريقك)، فهداك اللَّه في كلّ هذه الموارد وأعادك إلى أحضان جدّك أو عمّك الحنونين.

الدليل على هذا التفسير هو إشارة الآية التي سبقتها إلى مسألة يُتم النبي الأكرم صلى الله عليه و آله، واللاحقة لها المشيرة إلى فقره المادّي، «الضلالة» و «الهداية» اللتين توسطتا هاتين الآيتين، هما تلك الهداية والضلالة المادّيّة والجسمية، وإلّا فثبوت الهداية المعنوية بين هذين الأمرين المادّيين لا يبدو مناسباً كثيراً (تأمّل جيّداً).

۲- المراد من الضلالة والهداية هو الإطّلاع وعدمه، على الأسرار النبوية وقوانين الإسلام ومعارف القرآن، أي أنّك لم تكن مطّلعاً أبداً على هذه الامور، بل قذف اللَّه هذا النور في قلبك لتهدي به الناس.

الدليل على هذا الإدّعاء هو آيات أخرى من القرآن، من جملتها الآية التي تقول: «مَا

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۲۹

كُنْتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِى بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا».

(الشورى/ ۵۲)

بديهى أنّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله وقبل بلوغه لمقام النبوّة والرسالة كان يفتقر إلى هذا الفيض الإلهى، أى مقام الرسالة والمعارف القرآنية رغم كونه موحّداً، فأخذ اللَّه بيده وهداه وبلغ به هذا المقام.

التعبير «نَهْدِى بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا» فى هذه الآية يبيّن أنّ المراد من الهداية هنا هو نفس الهداية إلى الإسلام.

ونقرأ فى ثالث آية من سورة يوسف أيضاً:

«نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ».

مع أنّ هذا التفسير قد أعطى الهداية والضلالة مفهومهما المعنوى الذى يتفاوت وكما قلنا مع الآية السابقة واللاحقة عليهما، لكنّه يعدّ قرينة لما ذكرنا مع الأخذ بنظر الاعتبار بأنّ الْقُرآن يُفَسِّرُ بَعْضُهُ بَعْضَاً، التفاتاً إلى الآيات الأخرى.

۳- المراد من «الضالّ» هنا هو «الضياع بين قومه وأهله من الناحية الشخصية» وذلك كما نقرأ فى حديث عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام أنّه قال: « «وَوَجَدَكَ ضَالّاً»، أى ضالّة فى قوم لا يعرفون فضلك فهداهم إليك» «۱».

و تفسير هذا المعنى جاء بتعبير آخر فى تفسير نور الثقلين عن عيون أخبار الرضا عليه السلام «۲».

إطلاق لفظة «الضالّ» و «الضالّة» على هذا المعنى شيء طبيعى، كما جاء فى الحديث:

«الحكمة ضالّة المؤمن» «۳».

إذن فهناك تفاسير مقبولة عديدة لهذه الآية لا تتنافى ومقام العصمة.

---

(۱) تفسير مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۵۰۶.

(۲) تفسير نور الثقلين، ج ۵، ص ۵۹۶.

(۳) نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ۸۰.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۳۰

۱۰- الأنبياء السابقون بشكل عامّ

هناك تعبير فى القرآن الكريم حول عامّة الأنبياء يثير الاستفهام حول مسألة العصمة، وذلك حينما يقول تعالى: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِى أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِى الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ».

(الحجّ/ ۵۲)

وهنا ربّما يطرح هذا السؤال، وهو أنّه كيف يكون الأنبياء معصومين فى حين أنّ قلوبهم- طبقاً للآية أعلاه- معرّضة للإغواء الشيطانى؟!

اسطورتا الآيات الشيطانية والغرانيق:

ذكروا حول هذا الموضوع قصّة عرفت ب «قصّة الغرانيق»، هذه القصّة تقول: إنّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله كان مشغولًا بقراءة سورة «النجم» أمام المشركين، فوصل إلى هذه الآية:

«أَفَرَأَيْتُم اللَّاتَ وَالْعُزَّى* وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى» وفى هذه الأثناء أجرى الشيطان على لسانه هاتين الجملتين: «تِلْكَ الْغَرانِيقُ الْعُلى وَانَّ شَفاعَتُهُنَّ لَتُرْتَجى «۱» فابتهج المشركون لسماعهم هاتين الجملتين، وقالوا: لم يذكر «محمّد» آلهتنا بخير إلى الآن أبداً، فسجد النبى

وسجدوا معه أيضاً فى تلك الحال، بعد ذلك تفرّق مشركو قريش فرحين، فلم يمض وقت حتّى نزل جبرائيل وأخبر النبى قائلًا: إنّى لم آتِك بهاتين الجملتين أبداًا، إنّه من القاء الشيطان!! ونزل بالآية: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ ...» كما حذّر النبى والمؤمنين أيضاً من هذا الشيء «۲».

مع هذا الحديث تكون عصمة الأنبياء حتّى فى تلقّى الوحى، معرّضة للخطر والإعتماد عليها غير ثابت.

---

(۱) «الغرانيق» جمع «غرنوق» نوع من الطيور المائية البيضاء أو السوداء اللون ... كما جاءت بمعانى أخرى أيضاً (نقلًا عن قاموس اللغة).

(۲) ذكر معظم المفسّرون هذا الحديث بتفاوت ضئيل وانتقدوه.

الجواب:

فى البداية يجب فصل نصّ الآية عن الروايات الموضوعة التى حيكت حولها ولننظر إلى ما تقول، ثمّ نتعرّض لنقد وتحقيق الروايات:

من المحقّق أنّ هذه الآية وبقطع النظر عن الهوامش المصطنعة، لا تخدش عصمة الأنبياء فحسب، بل تعدّ من الأدلّة على عصمتهم أيضاً: إذ يقول: حينما يتمنّى الأنبياء امنية صالحة («الامنية» تطلق على كلّ أنواع الأمل والرجاء، لكنّها هنا تعنى البعد الايجابى البنّاء لتحقيق أهداف الأنبياء، لأنها لو لم تكن ذات بعد إيجابى لما ألقى فيها الشيطان إلقاءاته)، كان الشيطان ينقض عليهم ويلقى القاءاته لكن اللّه كان يبطلها على الفور، ويحكم آياته قبل أن تترك تلك الوساوس أثرها السيء على إرادة الأنبياء وتصرّفاتهم.

(لا يخفى أنّ «الفاء» فى (فينسخ اللّه) إشارة إلى الترتيب المتصل، أى أنّ اللّه كان ينسخ ويزيل القاءات الشيطان مباشرة)، الدليل على هذا الكلام هو آيات القرآن الأخرى التى تقول بصراحة: «وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلًا». (الإسراء/ ۷۴)

نظراً إلى أنّ الآية (۷۳): «وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذاً لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا» من نفس سورة الإسراء والتى سبقت هذه الآية، تبيّن أنّ الكفّار والمشركين كانوا يسعون بوساوسهم إلى حرف النبى الأكرم صلى الله عليه و آله عن الوحى السماوى، فيتّضح أنّ اللّه تعالى لم يدع لهم المجال أبداً ليفلحوا بوساوسهم تلك (تأمّل جيّداً).

كما نقرأ أيضاً: «وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ». (النساء/ ۱۱۳)

هذه كلّها تبيّن أنّ اللّه قد حفظ نبى الإسلام من كلّ أنواع الإنحراف ولم يفسح المجال أبداً بمنّه وفضله من نفوذ وساوس شياطين الإنس والجنّ إليه.

هذا كلّه فيما لو حملنا «الامنية» على «الغاية» أو «الخطّة» أو «الشروع» (لأنّ جذور هذه الكلمة الأصيلة تعود إلى «التقدير والتصوّر والفرض»).

لكن لو حملنا «الامنية» على التلاوة، كما احتمله معظم المفسّرين، بل وحتّى استشهدوا

ببعض أشعار «حسّان بن ثابت» لإثبات هذا المدّعى «۱».

كما أنّ الفخر الرازى قال فى تفسيره: فالحاصل من هذا البحث أنّ الامنية إمّا القراءة وإمّا الخاطر «۲».

ففى هذه الصورة سيكون مفهوم الآية هو أنّ الأنبياء الإلهيين، عندما كانوا يقرأون آيات اللّه ومواعظه أمام الكفّار والمشركين كان الشياطين يلقون وساوسهم وسمومهم بين ثنايا كلماتهم لإغفال الناس، بالضبط كما طبّقوا هذا الشىء فى حقّ نبى الإسلام صلى الله عليه و آله أيضاً، أى كما نقرأ فى قوله تعالى «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَاتَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ». (فصلت/ ۲۶)

طبقاً لهذا المعنى يتّضح مفهوم الآية التى بعدها أيضاً والتى تقول: «لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ

قُلُوبُهُمْ». (الحجّ/ ۵۳)

كما أنّ من المتعارف اليوم أيضاً أنّه حينما يشرع مصلحو المجتمعات البشرية، بإلقاء خطبهم البنّاءة وسط جمهور من الناس يسعى المنحرفون الذين فى قلوبهم مرض، إلى محو آثار تلك الخطب بالقيل والقال والشعارات الفارغة والتعابير الشيطانية التافهة.

وهذا فى الحقيقة اختبار لأفراد المجتمع، وهنا ينحرف المرضى القاسية قلوبهم عن طريق الحقّ، فى حين يزداد إيمان المؤمنين شيئاً فشيئاً بحقّانية الأنبياء، والتمسّك بدعوتهم «وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ».

لكن تفسير الآية طبقاً للمعنى الأخير لا يخلو من إشكال، لأنّ الإلقاءات الشيطانية فى نفوس الأنبياء عليهم السلام مهما كانت تنسخ وتزال بالإمدادات الإلهيّة على الفور، لكنّها لا يمكنها

---

(۱) الشعر هو هذا:

تمنّى كتاب اللَّه أوّل ليلةوآخرها لاقى حمام المقادر

جاء تمنّى الكتاب بمعنى تلاوة الكتاب فى «تاج العروس» القاموس وكذلك فى متن «القاموس»، ثمّ ينقل الزهرى أنّ «الامنية» تطلق على التلاوة لكن القارىء كلّما انتهى بآية رحمة تمنّاها، وكلّما وصل إلى آية منها ذكر للعذاب تمنّى النجاة منه. لكن صاحب «مقاييس اللغة» يعتقد أنّ إطلاق هذه اللفظة على التلاوة إنّما هو لأجل وجود نوع من القياس ووضع كلّ آية فى مكانها.

(۲) تفسير الكبير، ج ۲۳، ص ۵۱.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۳۳

أن تكون أساساً لاختبار المنافقين والذين فى قلوبهم مرض لبداهة عدم تحقّق وجود خارجى لهذه الوساوس، إنّما هى القاءات عابرة فى نفوس الأنبياء.

إلّا أن يقال بأنّ المراد هو أنّه حينما يريد الأنبياء الإلهيون تجسيد (امنياتهم وخططهم) وتنفيذها فى الخارج، يشرع الشياطين بتحطيمها وإلقاء السموم والوساوس عليها، وهنا تتجسّد ساحة الإختبار الساخنة، وطبقاً لهذا البيان فالإنسجام والإرتباط بين الآيات الثلاث (الحجّ/ ۵۲ و ۵۳ و ۵۴) محفوظ وقائم.

العجيب أنّ بعض المفسّرين ذكروا للآية الاولى احتمالات وتفاسير مختلفة دون الحفاظ على انسجامها مع الآيتين اللتين تليانها (تأمّل جيّداً).

على أيّة حال نستنتج من مجموع ما تقدم عدم وجود ما ينفى مسألة عصمة الأنبياء من الخطأ والانحراف فى الآية مورد البحث، بل هى على العكس من ذلك تؤكّد على هذه المسألة لأنّها تقول إنّ اللَّه يحفظ أنبياءه من القاءات الشيطان حين تلقّى الوحى أو التصميم على إنجاز أعمال أخرى.

والآن يجب أن نلتفت إلى الروايات والأساطير التى ذكرت فى هذا القسم، والتى دفعت بالبعض من شياطين الإنس فى الأونة الأخيرة إلى تأليف كتاب «الآيات الشيطانية»، أملًا فى إيجاد الفتنة وإلقاء السموم والشبهات حول سيرة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، لنعرف ما قيمة مثل هذه الروايات والأساطير؟

نقد الروايات المرتبطة بأسطورة الغرانيق:

كما تقدّم القول إنّ الآيات السابقة لا تحتوى على ما يتنافى وعصمة الأنبياء، بل هى على العكس دليل على عصمتهم، لكن هناك قضايا عجيبة جدّاً يمكن مشاهدتها فى الروايات المذكورة فى بعض مصادر أهل السنّة من الدرجة الثانية والتى ينبغى التحقيق فيها على انفراد، هذه الروايات التى ذكرناها فى بداية البحث، منقولة تارةً عن ابن عبّاس وأخرى

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۳۴

عن سعيد بن جبير وثالثة عن البعض من الصحابة أو التابعين «۱».

مع أنّ هذه الروايات لم تشاهد فى أى مصدر لأتباع مذهب أهل البيت عليهم السلام، كما أنّه لا وجود لها أيضاً فى كتب الصحاح الستّة على حدّ قول بعض علماء أهل السنّة، حتّى أنّ المراغى يقول فى تفسيره: «وقد دسّ بعض الزنادقة فى تفسير هذه الآية أحاديث مكذوبة لم ترد فى كتاب من كتب السنّة الصحيحة، وأصول الدين تكذبها، والعقل السليم يرشد إلى بطلانها ... ويجب على كلّ العلماء طرحها وراء ظهورهم، ولا يضيعوا فى تأويلها وتخريجها، ولا سيّما بعد أن نصّ الثقات من المحدّثين على وضعها وكذبها» «۲».

كما ونقرأ نفس هذا المعنى بشكل آخر فى تفسير «الجواهر» ل «الطنطاوى» حيث يقول: «هذه الأحاديث لم تذكر فى أى واحد من كتب الصحاح الستّة مثل موطأ مالك، صحيح البخارى، صحيح مسلم، جامع الترمذى، سنن ابن داود، وسنن النسائى» «۳».

ولذا لم يذكره كتاب «تيسير الوصول لجامع الأصول» الجامع للروايات التفسيرية للكتب الستّة، وذلك عند تفسيره لآيات سورة النجم.

ومن هنا فليس من اللائق الإهتمام بهذا الحديث أو حتّى التحدّث به، فضلًا عن التعليق عليه أو ردّه ... هذا الحديث كذب واضح! «۴».

من الأدلّة التى يذكرها «الفخر الرازى» على كون هذا الحديث من الموضوعات قوله:

«وأيضاً فقد روى البخارى فى صحيحه أنّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله قرأ سورة النجم وسجد فيها المسلمون والمشركون والإنس والجنّ، وليس فيه حديث «الغرانيق»، وروى هذا الحديث من طرق كثيرة وليس فيها حديث الغرانيق بتاتاً» «۵».

ولم يقتصر الأمر على المفسّرين الذين ذكرناهم، بل هناك أفراد آخرون أيضاً مثل

---

(۱) لمزيد من الإطّلاع على طرق هذه الروايات عند أهل السنّة يمكن الرجوع إلى تفسير درّ المنثور، ج ۴، ص ۳۶۶- ۳۶۸ ذيل الآية ۵۲ من سورة الحجّ.

(۲) تفسير المراغى، ج ۱۷، ص ۱۳۰، ذيل الآيات مورد البحث.

(۳) يجب الإلتفات إلى أنّ سنن ابن ماجه هى من الصحاح الستّة لا موطأ مالك.

(۴) تفسير الجواهر، ج ۶، ص ۴۶.

(۵) تفسير الكبير، ج ۲۳، ص ۵۰.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۳۵

«القرطبى» فى تفسير «الجامع» وسيّد قطب فى تفسيره «فى ظلال القرآن» وغيرهما وعموم كبار مفسّرى الشيعة أيضاً، حيث اعتبروا هذه الرواية من الخرافات والموضوعات ونسبوها إلى أعداء الإسلام.

ومع كلّ هذا فلا عجب أن يضع أعداء الإسلام خصوصاً المستشرقون الحاقدون الأموال الطائلة فى خدمة نشر هذه الرواية ويقومون بالعمل عليها بكلّ جديّة، وقد رأينا فى الأونة الأخيرة كيف أنّهم شجّعوا كاتباً شيطانياً لتأليف كتاب تحت عنوان «الآيات الشيطانية»، حيث إنّه استفاد من عبارات ركيكة جدّاً ومن خلال قصّة خيالية لم يقتصر على هتك مقدّسات الإسلام ووضعها فى معرض الشكّ والترديد فحسب، بل أهان الأنبياء العظام الذين تكنّ لهم كلّ الأديان السماوية الاحترام أيضاً (مثل إبراهيم على نبيّنا وآله وعليه السلام).

وليس عجيباً أيضاً أن يترجم النصّ الانكليزى لهذا الكتاب إلى مختلف اللغات وبسرعة خيالية، ويوزّع فى كلّ أنحاء العالم، وحينما أصدر الإمام الخمينى قدس سره فتواه التأريخية بارتداد كاتب هذا الكتاب أى «سلمان رشدى» ولزوم قتله، بادرت الدول الاستعمارية وأعداء الإسلام إلى حمايته بشكل منقطع النظير. هذه الحركة العجيبة أثبتت أنّ هناك من يقف وراء سلمان رشدى وأنّ المسألة هى أكبر من مجرّد تأليف كتاب معادٍ للإسلام، وأنّها فى الواقع خطّة مدروسة من قبل الغرب المستعمر والصهيونية لضرب الإسلام من

خلال وقوفهم معه بكلّ حزم.

لكن الصمود القوى للإمام الخمينى قدس سره فى فتواه، واستمرار نهجه من قبل نوّابه، وما نالته تلك الفتوى من القبول والترحاب من قبل غالبية الشعوب المسلمة فى العالم خيّب آمال المفتعلين، بل لا زال مؤلّف هذا الكتاب وإلى لحظة تدويننا لهذا البحث يعيش متخفياً فى محلّ مجهول بالكامل، تحت رقابة مشدّدة من قبل الدول الاستعمارية، ويبدو أنّه مضطرّ للعيش هكذا إلى آخر لحظات حياته إن لم يقتل على أيدى نفس تلك الدول، فيما لو أرادت غسل ذلك العار الذى لحق بها نتيجة دفاعها عنه.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۳۶

وبناءً على هذا فالدافع ل «وضع» هذه الرواية المزورة سيكون هو السبب فى بقائها أيضاً، وبعبارة اخرى هناك محاولة من قبل أعداء الإسلام كانت قد بدأت فى السابق، ثمّ واصلت مسيرها بعد الف سنة أو أكثر مدعومة من قبل طائفة أخرى وبصورة مكثفة.

ومن هنا فلا حاجة لنقل التبريرات التى اثيرت بشأن هذا الحديث كالتى وردت فى تفسير «روح المعانى» بشكل موسّع، أو فى تفاسير أخرى بشكل مركّز.

وكما أكد كبار علماء الإسلام فان الحديث الذى يكون أساسه خاوياً فإنّه لا يستحق أن يعطى اهمية فى تفسيره أو تسليط الأضواء عليه.

لكن هناك بعض الملاحظات ينبغى ذكرها لتوضيح المطلب ليس إلّاوهى:

۱- الصراع المرير لنبى الإسلام صلى الله عليه و آله ورفض المساومة مع عبدة الأصنام والأوثان عند بدء الدعوة وإلى آخر عمره، وهو أمر لا- يخفى على أحد من الأعداء والأصدقاء، وأهمّ شىء لم يساوم عليه أبداً ولم يتصالح أو يزيغ عنه هو هذا الموضوع، فكيف يمكن والحالة هذه أن يمدح أصنام المشركين بهذه الأوصاف ويذكرها بخير؟

وقد أكدت التعاليم الإسلامية أنّ الذنب الوحيد الذى لم يغفر أبداً هو الشرك وعبادة الأوثان، ولذا اعتبر مسألة ضرب أماكن عبادة الأصنام واجبة على كلّ مكلّف مهما كلفه الأمر، كما أنّ القرآن من ألفه إلى يائه شاهد على ذلك ويشكل بنفسه قرينة واضحة على وضع حديث الغرانيق الذى ذكر فيه تمجيد ومدح الأوثان والوثنية.

۲- فضلًا عن أنّ الذين وضعوا اسطورة الغرانيق لم يلتفتوا إلى هذا الموضوع وهو أنّ مروراً بسيطاً على آيات سورة النجم يبطل هذه الخرافة، ويثبت عدم وجود الإنسجام بين مدح وتمجيد الأوثان فى جملة «تلك الغرانيق العلى، وأنّ شفاعتهنّ لترتجى» وبين الآيات التى تحفّ بها، إذ قد صرّح فى بداية نفس هذه السورة بأنّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله لم ينطق عن هوى النفس أبداً وأنّ كلّ ما يقوله بالنسبة لعقائد وقوانين الإسلام إنّما هو من الوحى الإلهى «وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى* إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى». (النجم/ ۳- ۴)

وتصرّح الآيات بأنّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله لم ينحرف أبداً عن طريق الحقّ «مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى».

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۳۷

وأى ضلال وانحراف أعظم من يأتى بحديث عن الشرك والثناء على الأصنام بين آيات التوحيد؟ وأى منطق أسوء من أن يضيف كلام الشيطان (تلك الغرانيق العلى) إلى كلام اللَّه تبعاً للهوى.

والمثير هنا أنّ الآيات التى تتلوها تذمّ الأصنام والمشركين وتقول «إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ». (النجم/ ۲۳)

أى عاقل يصدّق أنّ شخصاً رزيناً حكيماً وفى مقام النبوّة وإبلاغ الوحى، يمدح الأصنام فى الجملة السابقة ويذمّها بشدّة وعنف فى جملتين بعدها؟! كيف يمكن توجيه هذا التناقض الصارخ بين الجملتين تباعاً؟

ومن هنا يجب الإعتراف بأنّ الإنسجام القائم بين آيات القرآن هو بشكل يرفض كلّ شبهة تضاف إليها من قبل المعاندين والمغرضين، ويثبت كونها جملة غريبة وإضافة غير متجانسة وأنّها ليست فى محلّها، هذا هو المصير الذى ابتلى به حديث الغرانيق بين طيّات آيات

سورة النجم.

وهنا يبقى سؤال واحد، وهو البحث عن السرّ وراء كلّ هذه الشهرة، التى لاقاها موضوع تافه لا أساس له كهذا؟

جواب هذا السؤال ليس بتلك الصعوبة أيضاً، إذ إنّ الفضل فى شهرة هذا الحديث يعود بالدرجة الاولى إلى مساعى الأعداء والمرضى، الذين يظنّون أنّهم قد عثروا على اداة جديدة للطعن فى مقام عصمة نبى الإسلام واصالة القرآن، وبناءً على هذا التحليل يتّضح شهرته بين الأعداء وهو ممّا لا يخفى، امّا شهرته بين المؤرخّين الإسلاميين المسلمين فعلى حدّ قول بعض علماء الإسلام، ناتج من كون هؤلاء المؤرخّين يبحثون عن كلّ ما هو مثير وغريب وفريد من نوعه وإن كان يفتقر إلى الاصالة التأريخيّة لدرجه بين طيّات كتبهم، ليزيدوا من جاذبيتها قدر المستطاع، ونظراً لكون قصّة كأسطورة الغرانيق حادثة غريبة تنسب إلى حياة نبى الإسلام صلى الله عليه و آله فلم تخلُ منها كتبهم التأريخية، بل وحتّى الروائية منها

نفحات القرآن، ج٧، ص: ١٣٨

بغضّ النظر عن ضعف أسانيدها وتفاهة محتواها. كما أنّ البعض أيضاً قد ذكرها للنقد والتحليل.

ثمرة البحث:

يتّضح من مجموع ما مرّ أنّ آيات القرآن تشكّل دليلًا واضحاً يؤكّد على عصمة الأنبياء، فضلًا عن خلوّها عما يتنافى وتلك المنزلة الرفيعة.

نفحات القرآن، ج٧، ص: ١٣٩

أقوال وآراء حول عصمة الأنبياء عليهم السلام

اشارة

نفحات القرآن، ج٧، ص: ١۴١

أقوال وآراء حول عصمة الأنبياء عليهم السلام

مسألة تنزيه الأنبياء من الذنب والخطأ يتفق عليها أغلب المسلمين، بل وحتى أصحاب الملل والشرائع الاخرى لكن هناك اختلافات كثيرة وآراء وأقوالًا متنوّعة فيما يتعلّق بخصوصياتها، قد تناولتها كتب العقائد والتفسير، والحديث بالشرح والتفصيل.

المرحوم العلّامة الحلّى فى كتابه «نهج الحقّ وكشف الصدق» «١» وكذلك هو وكل من شرح «تجريد العقائد» فى شرح كلام الخواجة الطوسى «ويجب فى النبى العصمة»، وكذلك «ابن أبى الحديد» فى شرح نهج البلاغة «٢»، حيث تناولوا كلّهم هذه الأقوال بشكل مطوّل، لكن المرحوم «العلّامة المجلسى» قام بشرح وترتيب هذا البحث بشكل أفضل من غيره، وهو ما سنذكر خلاصته أدناه على أمل الإحاطة بكل الأقوال المتعلقة بهذه المسألة، (إضافات وضعناها بين قوسين تخللت كلام هذا المحقّق العظيم).

يقول فى بحث عصمة الأنبياء عليهم السلام:

اعلم أنّ الاختلاف الواقع فى هذا الباب بين علماء الفريقين يرجع إلى أربعة أقسام:

أحدها، ما يقع فى باب العقائد. وثانيها، ما يقع فى التبليغ. وثالثها، ما يقع فى الأحكام والفتيا.

ورابعها، فى أفعالهم وسيرهم عليهم السلام. وأمّا الكفر والضلال فى الإعتقاد، فقد أجمعت الامّة على عصمتهم عنها قبل النبوّة وبعدها، غير أنّ الأزارقة من الخوارج جوّزوا عليهم الذنب.

وكلّ ذنب عندهم كفر، فلزمهم تجويز الكفر عليهم، بل يحكى عنهم أنّهم قالوا: يجوز أن

---

(۱) دلائل الصدوق، ج ۱، ص ۳۶۸.

(۲) شرح نهج البلاغة لإبن ابى الحديد، ج ۷، ص ۷- ۲۰.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۴۲

يبعث اللّه نبيّاً علم أنّه يكفر بعد نبوّته! (لكن ضعف هذا الكلام هو بدرجة لا يمكن اعتباره ضمن أقوال العلماء المتقدّمين، وكذلك تعبير بعض مفسّرى أهل السنّة فى ذيل الآية:

«وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى». (الضحى/ ۷)

وذيل الآية: «مَا كُنْتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ». (الشورى/ ۵۲)

وذيل الآية: «وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ». (الشرح/ ۲)

والآية: «قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ». (البقرة/ ۱۳۱)

يبيّن أنّ البعض منهم يقول بجواز مسألة الكفر والشرك قبل النبوّة، لكن- وكما قلنا- لا- يمكن اعتبار هذا الكلام من أقوال علماء الإسلام).

وامّا النوع الثانى وهو ما يتعلّق بالتبليغ فقد اتّفقت الامّة، بل جميع أرباب الملل والشرائع على وجوب عصمتهم عن الكذب والتحريف، فيما يتعلّق بالتبليغ عمداً أو سهواً إلّا «القاضى أبو بكر الباقلانى»، فإنّه جوّز ما كان من ذلك على سبيل النسيان وفلتات اللسان، (هذا القول نادر بدرجة بحيث لا يعتبر شيئاً فى مقابل القول بالإجماع).

أمّا النوع الثالث وهو ما يتعلّق بالفتيا فأجمعوا على أنّه لا يجوز خطأهم فيها عمداً وسهواً، إلّاشرذمة قليلة من العامّة (التى خرقت هذا الإجماع، والتى لا يعتدّ بها أيضاً) (ينقل ابن أبى الحديد هنا عن الكرامية والحشوية «۱» بأنّهم لم يقتصروا على القول بجواز الخطأ فقط فى هذا القسم، بل استدلّوا باسطورة الغرانيق الموضوعة لإثبات هذا المقصود بالنسبة للنبى الأكرم صلى الله عليه و آله «والعياذ باللّه»).

وامّا النوع الرابع وهو أفعالهم، فقد اختلفوا فيها على خمسة أقوال:

۱- مذهب الشيعة الإمامية وهو أنّه لا يصدر عنهم الذنوب الصغيرة أو الكبيرة ولا العمد والنسيان والخطأ فى التأويل ولا للإسهاء من اللّه سبحانه، ولم يخالف فيه (وفى مورد واحد فقط) إلّاالشيخ الصدوق وشيخه محمّد بن الحسن بن الوليد فانّهما جوّزا الإسهاء لا السهو،

---

(۱) «الكرامية» هم أتباع محمّد بن كرام الذى ظهر فى القرن الثالث وقال بالتجسيم، و «الحشوية» (بفتح الشين أوسكونها) طائفة من المعتزلة الذين ذهبوا وراء ظواهر القرآن وقالوا بالتجسيم، وقال البعض إنّ هذه الفرقة الضالّة شاركت أوّلًا فى درس الحسن البصرى، وحينما سمع الحسن منهم كلاماً يخالف الإسلام أمر بإخراجهم.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۴۳

الذى يكون من الشيطان وكذا القول فى الأئمّة الطاهرين عليهم السلام.

۲- أنّه لا- يجوز عليهم فعل الكبائر، ويجوز عليهم فعل الصغائر إلّاالصغائر التى تشمئز منها النفوس، وكلّ ما ينسب فاعله إلى الدناءة والضعّة، وهذا قول أكثر المعتزلة «۱».

۳- أنّه لا- يجوز أن يأتوا بصغيرة ولا- كبيرة بشكل عمد، لكن يجوز على سبيل الخطأ أو السهو، وهو قول «أبى على الجبائى» أحد متكلّمى المعتزلة ومن أقطابهم «۲».

۴- أنّه لا ـ يقع منهم الذنب إلّاسهواً اوخطأً، لكنّهم مسؤولون عما يقع منهم سهواً، وإن كان موضوعاً عن أممهم، لقوّة معرفتهم وعلو رتبتهم وكثرة دلائلهم، وأنّهم يقدرون من التحفّظ على ما لا ـ يقدر عليه غيرهم .. وهو قول النظام «۳» (الذى هو من علماء المعتزلة المعروفين فى عهد بنى العبّاس) وجعفر بن مبشّر ومن تبعهما.

۵- أنّه يجوز عليهم الكبائر والصغائر عمداً وسهواً وخطأً، وهو قول «الحشوية» (الاخباريين من أهل السنّة، لكن لا يُعلم فى الوقت الحاضر أحد منهم مؤيّد لهذا المذهب) وكثير من أصحاب الحديث من العامّة.

ثمّ يضيف المرحوم «العلّامة المجلسى» قائلًا:

ثمّ اختلفوا فى وقت عصمة الأنبياء على ثلاثة أقوال.

الأوّل: إنّهم معصومون منذ ولادتهم إلى أن يلقوا اللّه سبحانه، وهو مذهب أصحابنا الإمامية.

الثانى: إنّ عصمتهم تبدأ من حين بلوغهم، ولا يجوز عليهم الكفر والكبيرة قبل النبوّة، وهو مذهب كثير من المعتزلة.

الثالث: إنّ عصمتهم تبدأ من وقت «النبوّة»، وأمّا قبل ذلك فيجوز صدور المعصية عنهم،

---

(۱) «المعتزلة» أتباع «واصل بن عطاء» الذى هو من تلاميذ الحسن البصرى ثمّ أعلن عن مخالفته إيّاه واعتزله، ولذا عرف أصحابه بالمعتزلة ولهم مؤيّدون كثيرون بين أهل السنّة.

(۲) «جبا» كان إسماً لإحدى مناطق خوزستان.

(۳) إسمه «إبراهيم بن سيّار» ولقّب ب «النظام» لأنّه كان يمتهن حرفة ترتيب الأختام وبيعها فى سوق البصرة، أو لأنه كان يتحدّث بشكل منظّم.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۴۴

وهو قول أكثر «الأشاعرة» ومنهم الفخر الرازى، وبه قال «أبو هذيل» «وأبو على الجبائى» من المعتزلة «۱».

والملفت للنظر أنّ المصدر الرئيس لهذه الأقوال المتفرقة يعود بالدرجة الاولى إلى عاملين كما يبدو:

۱- عدم وضوح البعض من ظواهر آيات القرآن التى يشمّ منها للوهلة الاولى نفى العصمة فى بعض امورهم، فى حين أنّ التدقيق فى هذه الآيات، وتفسيرها على ضوء آيات القرآن الاخرى ينفى هذا التوهّم بالمرّة، ولكن نظراً لأنّ أهل الظاهر والجمود لم يكلّفوا أنفسهم عناء التحقيق والتدقيق فقد ابتلوا بمثل هذه العقائد.

۲- فريق اعتبر بعض افراده الأدلّة العقليّة دخيلة فى هذه المسألة، وفسّر آيات القرآن أفضل من صاحبه، كلّ اعتمد أحد الأقوال المتقدّمة، نظراً لتوهّمهم بأنّ الهدف من البعثة إنّما يتحقّق بالعصمة بعد النبوّة، أو العصمة فى خصوص نطاق دائرة التبليغ، أو من الذنوب الكبيرة.

لكن الحقّ هو أنّ الأنبياء معصومون بشكل عامّ من الذنوب العمدية وغيرها، كبيرة كانت أم صغيرة، قبل «البلوغ» و «النبوّة» أم بعدها، وكذلك من الخطأ سواء أكان فى العقيدة، أو تبليغ النبوّة وأداء الرسالة، أو بيان الأحكام أو غيرها.

هذه هى عقيدة علماء الشيعة، عقيدة أصحابنا فى تنزيه الأنبياء والأئمّة عليهم السلام من كلّ ذنب ودناءة ومنقصة قبل النبوّة وبعدها، ودليلهم على ذلك روايات أئمّة الهدى عليهم السلام الثابتة قطعاً عن طريق إجماع الأصحاب، والروايات المتظافرة، حتّى صار ذلك من قبيل الضروريات فى مذهب الإمامية» (انتهى كلام العلّامة المجلسى) «۲».

ومع هذا فمن المثير للعجب ما ينسبه بعض أعداء الشيعة لهذا المذهب بما يتنفّرون منه فى كلماتهم، كقولهم مثلًا: إنّ الشيعة يجوّزون تظاهر الأنبياء بالكفر تقيّة خوفاً على حياتهم!

---

(۱) بحار الأنوار، ج ۱۱، ص ۸۹- ۹۱.

(۲) المصدر السابق، ۹۱.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۴۵

ثمّ إنّهم انهالوا على هذه العقيدة بكلّ عنف! «۱».

فى حين أنّه لم يقُل أى من علماء الشيعة أى شىء حول هذا الموضوع، وكم كان مناسباً لو أنّ هذا القائل ذكر ولو اسم شخص واحد، أو كتاباً واحداً على أقلّ تقدير تذكر فيه مثل هذه العقيدة، وحسب قول المرحوم «العلّامة المظفّر» إنّ هذا الكلام كذب جلى، وربّما يكون السبب وراء هذه النسبة هو جعل عقيدة الشيعة فى التقيّة محوراً لاستنباطهم الخاطىء، فمع أنّ إظهار الكفر بل وحتّى ما دونه غير جائز للأنبياء أبداً، مهما تعرّضت حياتهم المقدّسة للخطر فى هذا الطريق، وغدت قرباناً للدين والعقيدة.

لكن التقية العملية، كالتى ظهرت من نبى الإسلام صلى الله عليه و آله فى مسألة الهجرة، حين خروجه من مكّة سرّاً حتّى وصل المدينة فلا محذور فيها، ولا ربط لهذا بما قالوه.

الأدلّة العقليّة على عصمة الأنبياء عليهم السلام:

اشارة

ذكر أقطاب علماء الكلام أدلّة كثيرة على لزوم عصمة الأنبياء عن طريق العقل، والتى يمكن دمج البعض منها فى البعض الآخر، واستبدال الضعيفة منها بالقوية، بحيث ينتج من مجموعها، أدلّة أربعة تستحقّ القبول والذكر:

۱- العوامل الداخلية- النفسية-

بتحليل مختصر يمكن القول بسيطرة العوامل المانعة عن الذنب على العوامل الدافعة إليه فى نفوس الأنبياء.

بيان ذلك: للذنوب التى يقترفها الأنسان عوامل ومصادر شتّى لكنّها تعود بالدرجة الاولى إلى عاملين مهمين:

۱- الجهل وعدم تصور سوء عاقبة الأمر.

۲- سيطرة الشهوات والأهواء بشكل، بحيث يستسلم لها العلم والعقل مع قدرتهما على إدراك الآثار السيّئة للذنوب.

---

(۱) الشيخ روزبهان فى كتاب إبطال الباطل، طبقاً لما نقله فى كتاب دلائل الصدوق، ج ۱، ص ۳۶۹.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۴۶

فالشخص الذى تتلوث يداه بدماء ضحيّة بريئة مثلًا، أو يختار طريق السرقة والسقوط والرشوة، أو يبتلى بلعب القمار وشرب الخمور وتعاطى المواد المخدّرة، لا يخرج عن أحد حالين: إمّا أنّه لا يعلم بمفاسد هذه الأمور بشكل تامّ، أو أنّه عالم بها إلّاأنّه لا يستطيع الصمود أمام ثورة الشهوات والأهواء وعنفوانهما.

وبناءً على هذا فالعلم والإطّلاع لوحدهما غير كافيين للردع عمّا هو غير مرغوب فيه، بل لابدّ- إلى جانب ذلك- من التسلّط على النفس والأهواء.

إن الثمرة التى يمكن أن نجنيها من هذا البحث هى أنّ الإنسان لو كان له اطّلاع كافٍ بقباحة عمل ما، وتسلّط كامل على نفسه وميوله، فيستحيل صدور هذا العمل منه (المراد هنا بطبيعة الحال هو المحال العادى لا العقلى كاجتماع الضدّين) (تأمّل جيّداً).

ويمكن بيان هذه الحقيقة ببعض الأمثلة، وهى أنّ الكثير منّا يمتلك حالة شبيهة بالعصمة فى قبال البعض من الذنوب، (أمام البعض

منها فقط) مثلًا، لا نجد بيننا من يوافق على الخروج إلى الأزقّة عارياً فى وضح النهار، ولو صادف أن قام أحدنا بمثل هذا العمل فسوف نقطع بزوال عقله ورشده، وإلّا فيستحيل الإقدام على هذا الشىء مع وجود العقل والوعى.

شرب مياه المجارى القذرة والملوّثة حرام قطعاً، فهل ياترى يوجد بيننا عاقل يُقدم على عمل كهذا؟

الطبيب الماهر المتبحّر فى أسرار علم الطب وخطورة أنواع الأمراض المعدية، لا يوافق أبداً على شرب غسالة ملابس المرضى المبتلين بالأمراض والأوبئة المعدية.

وبهذا يمكن القول باختصار: إنّ لنا حصانة ومناعة أمام مثل هذه الأعمال القبيحة، وذلك لوقوفنا عن كثب على مفاسدها، بل إنّ قوّة عقولنا ومعارفنا وإيماننا ستحطّم تلك الميول والرغبات، لو حاولت فى يوم ما إيقاعنا فى مخالب مثل هذه الأمور، إذن فلو وجد هناك من له اطّلاع كاطّلاعنا على قبح الذنوب والمعاصى، فمن المسلّم أنّه سيتجنّبها بجديّة.

وبعبارة أخرى، إنّ الدوافع نحو المعصية- أعمّ من الجهل أو غلبة الشهوات والأهواء- وقد انتهت وتلاشت فى وجود الأنبياء والأئمّة المعصومين فى ظلّ علمهم ومعرفتهم وتقواهم.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۴۷

ولا يخفى أنّ الأنبياء- وبفضل ارتباطهم بعالم الغيب وبحر علم البارى اللامتناهى- لهم إحاطة كافية بحجم مفاسد الذنوب، وقبح مثل هذه الأعمال وفلسفة النهى عنها، ومن جهة أخرى فنفس هذا الإرتباط الذى يكون على مستوى الشهود ومشاهدة عالم الغيب، يخلق فيهم حالة من التقوى بحيث تعدّ رادعاً قويّاً أمام دوافع تلك الأهواء والميول.

خلاصة القول هى: إنّ الوقوف على دوافع المعصية من جهة، وعلى مستوى معرفة وتقوى الأنبياء الناتج من ارتباطهم بعالم الغيب من جهة أخرى، يدعونا للتصديق بحصانتهم وابتعادهم عن كلّ أنواع المعصية.

ورد فى رواية عن أمير المؤمنين عليه السلام الإشارة باختصار، مع دلالة تامّة إلى الملاحظة الأولى، حيث يقول: «قرنت الحكمة بالعصمة» «۱».

مع أنّ العصمة هنا قد جاءت بمعناها العام، أى كلّ أنواع الحصانة من المعصية وفى كلّ مراحلها، لكنّها على أيّة حال تعدّ شاهداً على مرادنا.

وجاء فى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال «المعصوم هو الممتنع باللَّه من جميع المحارم، وقد قال اللَّه تبارك وتعالى ومن يعتصم باللَّه فقد هدى إلى صراط مستقيم» «۲».

و يمكن أن يكون هذا الحديث إشارة إلى الملاحظة الثانية أو كلتيهما، كما ورد نفس هذا المعنى فى حديث هشام بن الحكم بشكل أوفى، فعن ابن أبى عمير- الذى يعدّ من كبار أصحاب الإمام الصادق عليه السلام- أنّه قال: «ما سمعت ولا استفدت من هشام بن الحكم فى طول صحبتى إيّاه شيئاً أحسن من هذا الكلام فى صفة عصمة الإمام، فانّى سألته يوماً عن الإمام أهو معصوم؟ قال نعم، قلت له: فما صفة العصمة فيه؟ وبأى شىء تُعرف؟ قال:

إنّ جميع الذنوب لها أربعة أوجه لا خامس لها: الحرص والحسد والغضب والشهوة، فهذه منتفية عنه. ثمّ أضاف قائلًا:

---

(۱) غرر الحكم.

(۲) بحار الأنوار، ج ۵، ص ۱۹۴، ح ۶؛ والآية من آل عمران ۱۰۱.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۴۸

لا يجوز أن يكون حريصاً على هذه الدنيا وهى تحت خاتمه، لأنّه خازن المسلمين فعلى ماذا يحرص؟

ولا يجوز أن يكون حسوداً لأنّ الإنسان إنّما يحسد من هو فوقه وليس فوقه أحد، فكيف يحسد من هو دونه.

ولا يجوز أن يغضب لشىء من أمور الدنيا، إلّاأن يكون غضبه للّهعزّوجلّ ...
ولا يجوز أن يتّبع الشهوات ويؤثر الدنيا على الآخرة، لأنّ اللّه عزّوجلّ حبّب إليه الآخرة، كما حبّب إلينا الدنيا فهو ينظر إلى الآخرة كما ننظر إلى الدنيا، فهل رأيت أحداً ترك وجهاً حسناً لوجه قبيح؟ وطعاماً طيّباً لطعام مرّ؟ وثوباً ليّناً لثوب خشن؟! ونعمة دائمة باقية لدنيا زائلة فانية؟» «۱».

مع أنّ «هشام بن الحكم» لم ينسب هذا الحوار إلى أئمّة أهل البيت عليهم السلام مباشرة، لكن نظراً لكونه من ألمع تلاميذ الإمام الصادق عليه السلام، وتصريحه قائلًا: «كلّ ما عندى فهو من الإمام الصادق عليه السلام»، فيبدو أنّه قد استلهم تحليله اللطيف والمنطقى هذا، والذى يمكن أن يكون أحد الأدلّة العقلية على مسألة عصمة الأنبياء والأئمّة، من إمامه الإمام الصادق عليه السلام.

۲- دليل الإعتماد

من الواضح أنّ الهدف من بعثة الأنبياء هو هداية البشرية على ضوء التعاليم الإلهيّة، هذا الهدف الذى يمكن ضمانه حيث لا يبقى هناك أدنى مجال للشكّ والترديد، يساور الناس فيما يتعلّق بأقوالهم وأفعالهم، بشكل بحيث يعتبرون كلامهم كلام اللّه، وتعاليمهم تعاليم إلهية، حتّى يتقبّلوها قلباً وقالباً ويسلّموا لها تسليماً ويعتمدوا عليها.

ومن البديهى أنّ احتمال الكذب، وتحريف الحقائق والخطأ والإشتباه سيجد طريقه إلى كلماتهم إن لم يكونوا معصومين عن «الذنب» و «المعصية»، وبالتالى يسلب الاعتماد عليهم

---

(۱) بحار الأنوار، ج ۲۵، ص ۱۹۲، ح ۱.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۴۹

حتّى لو كانوا أناساً طيبين، لأنّ فقدان منزلة العصمة يستلزم احتمال تعلقهم فى يوم ما بالمظاهر المادية ومغرياتها، أو أن يرتكبوا الخطأ والزلل من حيث لا يشعرون وبلا سبب يذكر.

هذا الاحتمال يبعث على التشويش الفكرى لأتباعهم على الدوام، كما أنّه سيكون أساساً للشكّ والريبة، فضلًا عن بقاء مسألة «إتمام الحجّة» ناقصة أيضاً، نظراً لوجود ذريعة بيد المخالفين على الدوام مفادها أنّ سبب عدم اتّباعهم لتعاليم النبى يكمن فى احتمال صدور الخطأ والزلل (لا سمح اللّه) منه.

خلاصة القول: إنّ رأس المال الحقيقى للنبوّة هو كسب ثقة طلّاب الحقيقة، ولا يتحقق هذا المعنى بفقدان منزلة العصمة والصيانة من الذنب والخطأ.

ويمكن القول: أنّ الناس عموماً إنّما يتّبعون العلماء الأتقياء، ويأخذون منهم أحكام دينهم ويثقون بهم، مع علمهم بعدم عصمتهم من الذنب والخطأ.

لكن ينبغى الإلتفات إلى أنّ أصل الدين يختلف عن فروعه وجزئياته، ويمكن إرساء أصل الدين وأساسه على الشكّ أو الظنّ، ولا يمكن قبول الوحى الإلهى مقروناً بالاحتمال والشكّ والترديد، فى حين أنّ احتمال الخطأ والإشتباه فى الفروع والجزئيات لا يؤثّر فى أساس العقيدة، إذن فلابدّ من القول هناك بالعصمة والإكتفاء بالعدالة هنا، وذلك لإمكان غضّ الطرف عن احتمال الخطأ فى هذه الجهة، دون الخطأ والإشتباه فى الوحى وإبلاغ الرسالة، حيث لا يمكن غض البصر والتسامح فى هذا المورد، كما يثار هنا سؤال آخر أيضاً وهو أنّ آخر شىء يمكن أن يستفاد من هذا الدليل هو تنزيههم من الخطأ والكذب والتحريف فى تبليغ الرسالة، لكن هذا الدليل قاصر عن شمول كافّة الذنوب والمعاصى.

لكن الإنصاف هو اشتراك معظم الذنوب باسس مشتركة، فالكذب والإتّهام والسرقة والإبتلاء بشرب الخمر ولعب القمار والسقوط

الأخلاقى، نابعة من اتباع هوى النفس واتّباع الشهوات وحبّ الدنيا، فكيف يمكن ألا يكذب أبداً من يبتلى بأنواع المعاصى؟

وعلى فرض وجود مثل هذا الشخص ولو نادراً، فإنّه لن يفلح مع ذلك فى كسب ثقة

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۵۰

نفحات القرآن ج۷ ۱۹۹

الناس، إذ سيقولون كيف يمكن الإعتماد على كلام الشخص الفلانى الخائن والظالم والمنحرف؟ لأنّ الفصل فى هذه المسائل وعلى فرض إمكانه فى الواقع مرفوض عند عامّة الناس (تأمّل جيّداً).

فكيف يمكن لشخص يخطىء فى امور الحياة اليومية أن يكون مورد اعتماد فى إبلاغ الوحى الإلهى؟ وسيقول الناس حتماً: إنّه ربّما ابتُلى عند إبلاغ الوحى بنفس تلك الإشتباهات التى يقع بها فى حياته الشخصية.

خلاصة القول أنّ مسألة تجزئة وفصل الأخطاء والذنوب مرفوضة عند السواد الأعظم من الناس، وأنّ من يرتكب ذنباً أو خطأً لا يمكن أن يكون مورد اعتماد فى تبليغ الوحى (تأمّل جيّداً).

۳- مخالفة الغاية وعدم تحقق أهداف البعثة

من المسلّم أنّ الشخص العاقل الحكيم لا يقدم أبداً على عمل يخالف هدفه وغايته، وإلّا فلا يصح أن ينعت بالحكمة والوعى، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى، فنحن نعلم أنّ اللَّه عزّوجلّ قد أرسل أنبياءه لهداية العباد وتربيتهم، فلو لم يكونوا معصومين عن الذنب والمعصية لأضلّوا الناس بدل هدايتهم، وهذا هو الجانب المنافى للهدف من بعثة الأنبياء بالضبط.

بالإضافة إلى أنّ الدور الرئيسى فى تربية الناس، إنّما يعود للبرامج العملية للأنبياء، لأنّ كيفية تصرّف المربّين وصفاتهم وحالاتهم تعدّ النموذج الأمثل لمن يتبعهم ويتولّاهم، وإنّ الأدلّة العقليّة والخطب الحماسية والبيان الجيّد مهما كان لها دور مهم فى توعية الناس، إلّا أنّها لا- تعدّ شيئاً أمام النماذج العملية، خصوصاً لو ظهر هناك تضادّ بين القول والفعل، وبين النظرية والتطبيق، فانّ حالة من الشلل ستسرى إلى تلك البيانات والنداءات وتعدم تأثيرها!

ومن هنا ينبغى أن يكون الأنبياء عليهم السلام قدوة حسنة للناس فى كافّة أبعاد الحياة، وأن تنعكس دروسهم الدينية للناس من خلال تصرّفاتهم.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۵۱

ولو كانوا أفراداً مثقلين بالذنوب، مبتلين بالكذب والخيانة والظلم واتّباع أهوائهم لفقدوا اعتبارهم تماماً، ولاصبح الهدف من بعثتهم غير مجدٍ ولا مفيدٍ.

كيف يعقل أن يضع اللَّه هذا المنصب الخطير الذى يعدّ أسمى منصب دينى ومعنوى واجتماعى، فى عهدة شخص قد تمكنت منه الذنوب ووقع فى أسر الهوى والشهوات، ولم يسيطر على نفسه؟ هل يمكن لشخص كهذا ياترى أن يكون قائداً ربّانياً وروحياً للناس؟!

وهنا يجب الإذعان بأنّ هذا الهدف الحسّاس لا يمكن ضمان القيام به، إلّافى حالة تنزيههم عن كلّ أنواع الذنوب صغيرها وكبيرها، بل مطلق الخطأ والإشتباه.

ولذا نقرأ فى حديث عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام أنّه قال فى وصف الإمام عليه السلام:

«هو معصوم مؤيّد موفّق مسدّد قد أمن الخطايا والزلل والعثار يخصّه اللَّه بذلك ليكون حجّته على عباده وشاهده على خلقه» «۱».

۴- لا يمكن الإغراء بالجهل والتشجيع على الخطأ

بديهى أنّ اللَّه تعالى ولغرض هداية عباده لا يقدم على أدنى شىء يكون سبباً فى انحرافهم وركونهم للباطل وسلوكهم سُبل الضلال لأنّ صدور عمل كهذا من أى كان فهو قبيح فكيف بذاته تعالى؟

لو وضع اللَّه أسرار النبوّة- الشاملة للاعجاز والأدلّة العلمية- تحت تصرف غير المعصوم، أى فى خدمة من يحتمل كذبه وخطأه وارتكابه للمعاصى، فقد أوقع عباده فى الضلال، وهذا بالضبط يشبه قيام شخص معروف بانتخاب شخص مخادع منحرف وكيلًا عنه، أليس هذا العمل قبيحاً؟

كيف نحتمل صدور مثل هذا العمل من اللَّه تعالى، أن يضع المعجزات وأسرار النبوّة بيد شخص مذنب كذاب منحرف وعاصٍ؟!

---

(۱) اصول الكافى، ج ۱، ص ۲۰۳، باب النادر الجامع فى فضل الإمام وصفاته، ح ۱.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۵۲

وقد صرح القرآن بكلّ جلاء بهذا الموضوع قائلًا: «وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ* لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ* ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ» (أى فلا أحد منكم يقدر على منعنا من ذلك أو الدفاع عنه). (الحاقة/ ۴۴- ۴۶)

هذه الآيات تؤكّد على نفس الحقيقة التى تمّت الإشارة إليها، وهى أنّ من يمتلك الآيات والحجج الإلهيّة والمجهّز بسلاح الإعجاز القوى، فقد وعده اللَّه تعالى بقوله، لو انحرف حتّى للحظة واحدة عن المسير الإلهى، فلن يمهله اللَّه تعالى، بل سيضربه فى أخطر نقطة من بدنه أى شريان قلبه ويقضى عليه، وفيما عدا ذلك فانّ اللَّه هو السبب وراء إضلال الناس وإغرائهم بالجهل، وهذا بنفسه يعدّ دليلًا صارخاً على مسألة العصمة.

ومع أنّ مسألة الخطأ خارجة عن إرادة الإنسان فلا يمكن معاقبة أحد على الأخطاء التى يستحيل اجتنابها، ولكن بما أنّ هفوة النبى وخطأه يترك نفس الأثر الذى يتركه افتراؤه على اللَّه، أى يكون السبب وراء إضلال خلق اللَّه، إذن يمكن الاستفادة من مضمون هذه الآية أنّ النبى مصون من مثل هذا الخطأ أيضاً.

وكدليل على ذلك نقرأ هذا الحديث عن على بن موسى الرضا عليه السلام حيث قال للمأمون:

«من دين الإمامية، لا يفرض اللَّه طاعة من يعلم أنّه يضلّهم ويغويهم، ولا يختار لرسالته ولا يصطفى من عباده من يعلم أنّه يكفر به وبعبادته، ويعبد الشيطان دونه» «۱».

و نقرأ فى حديث آخر عن الإمام على عليه السلام أنّه قال:

«إنّ اللَّه إنّما أمر بطاعة رسوله لأنّه معصوم مطهّر لا يأمر بمعصية اللَّه وإنّما أمر بطاعة اولى الأمر لأنّهم معصومون مطهّرون لا يأمرون بمعصية اللَّه، فهم اولو الأمر، والطاعة لهم مفروضة من اللَّه ومن رسوله، لا طاعة لأحد سواهم» «۲».

---

(۱) بحار الأنوار، ج ۱۱، ص ۷۶، ح ۳، باب عصمة الأنبياء.

(۲) من كتاب بحرالمناقب المخطوط ص ۱۰۰ طبقاً لما نقله صاحب إحقاق الحقّ، ج ۱۳، ص ۷۸.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۵۳

۵- عدم أهلية غير المعصوم لتلقّى الوحى

إنّ كلّ مأمورية- كما نعلم تتطلّب فى نفسها استعداداً وأهلية مناسبتين لها، وأنّه يستحيل أن يقوم بأدائها على أتمّ وجه من لا أهلية ولا قابلية له عليها، كما نعلم أيضاً أنّ أنبياء اللَّه يتلقّون كلام اللَّه عن طريق الوحى، وهو ذلك النداء الملىء بالنور والمعنوية، والمتضمّن

لكلّ درجات الإيمان والتقوى ويبلغونه للناس. ومن البداهة أنّ التلقّى لمثل هذا الوحى ينبغى أن يكون منزّهاً طاهراً، بدرجة بحيث يتمكّن من الإتّصال بعالم ما وراء الطبيعة، وذات البارى الطاهرة المنزّهة من كلّ عيب ونقص، واستلام الرسالة المشحونة بالطهارة والتقوى ..

كيف يستطيع الملوّث بالذنوب صاحب القلب المظلم أن يجد الطريق إلى عالم النور؟

كيف يصير القلب الملىء بالشهوات والأهواء مهبطاً للوحى الإلهى ومحلًا للعلم الربّانى؟

هل يُعقل تحقّق هذا المعنى بدون وجود التجانس والسنخية بينهما؟

ثمّ أنّ وكيل كلّ شخص إنّما يعكس وجود موكّله وصفة من صفاته، ولذا لا يسمح مرجع دينى كبير لنفسه أبداً بانتخاب وكلائه من بين الأفراد المشبوهين، ولو اتّفق وفعل ذلك لعابه الناس كلّهم، واعتبروا تصرّفه هذا قبيحاً، ولخرجوا على أمره أيضاً.

فهل يمكن أن ينتخب اللَّه الذى هو مصدر القدسيّة والتقوى والطهارة، وخليفته من بين المذنبين، ويوكل هذه المسؤولية العظيمة لغير المعصوم؟

نرى أنّ القرآن وفى معرض إجابته على المشركين حينما صرّحوا: «قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِىَ رُسُلُ اللَّهِ». يقول: «اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ». (الأنعام/ ١٢٤)

۶- أدلّة اخرى

ذكر بعض من العلماء العظام أدلّة أخرى فى هذا الباب لها صبغة فرعية وتعود أحياناً إلى الأدلّة المتقدّمة، من جملتها:

۱- أنّه لو صدر عن النبى ذنب لزم اجتماع الضدّين، أى صدور أمرين متضادّين، الأول

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۵۴

وجوب الامتثال له فى كلّ شىء من جهة، ووجوب مخالفته عند الخطأ من جهة أخرى، ونعلم باستحالة صدور أمرين متضادّين من اللَّه الحكيم.

۲- لو أقدم النبى على المعصية لوجب أن يكون مردود الشهادة، لأنّ شهادة الفاسق وأخباره غير مقبولة، فكيف يمكنه والحالة هذه أن يكون شاهداً على الوحى الإلهى فى الدنيا أو على الأمم يوم القيامة؟!

۳- لو صدر من الأنبياء ذنب فهذا يعنى أنّ منزلتهم أقلّ من عصاة الأمّة، إذ إنّ مقام النبوّة فى غاية الرفعة والسمو، فارتكابهم للمعاصى، والإعراض عن أوامر ربّهم ونواهيه من أجل لذّة فانية أقبح وأشنع من عصيان هؤلاء، وهذا ما لا يقرّه عاقل.

۴- أنهم لو كانوا يأمرون الناس بصالح الأعمال واجتناب قبيحها، ولم يلتزموا هم بذلك لدخلوا تحت قوله تعالى: «أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ». (البقرة/ ۴۴)

وهو غير معقول.

۵- لو صدر عن النبى ذنب صار مصداقاً للظالم (ظلم الآخرين أو ظلم نفسه) ولجاز لعنه، إذ يقول القرآن: «أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ». (هود/ ۱۸)

فكيف يمكن لعن النبى؟ وهل يتناسب هذا مع مقام نبوّته؟

۶- أنّ القرآن الكريم صرح بأنّ الشيطان أقسم بعزةّ اللَّه تعالى على إغواء جميع الناس، إلّا المخلَصين: «فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ* إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ». (ص/ ۸۲- ۸۳)

فلو صدر من النبى ذنب لوجب أن يكون من حزب الشيطان، مع بداهة كونه من المخلَصين.

هذه الأدلّة الستّة قويّة ومتينة، وبالرغم من أنّها ترجع إلى الأدلّة الرئيسية المتقدّمة، لكنّها فروع يانعة من تلك الأصول المعطاءة.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۵۵

أسئلة متعدّدة:

اشارة

هنالك عدّة أسئلة مطروحة فى بحث عصمة الأنبياء والأئمّة عليهم السلام نشير إلى أهمّها:

۱- هل لعصمة الأنبياء صفة «جبريّة»؟

الكثير من الأشخاص حينما يقرأون بحث عصمة الأنبياء، يتبادر إلى أذهانهم فوراً هذا السؤال وهو أنّ مقام العصمة موهبة إلهيّة مفروضة على الأنبياء والأئمّة، وكلّ من نال هذه «الموهبة» فقد حُفظ من المعصية والخطأ، ومن هنا فلن تعد معصوميتهم فضيلة وفخراً، لكونها أمراً إلهيّاً مفروضاً كما تقدّم.

وبناء على هذا فارتكاب الخطأ مع وجود مقام العصمة مستحيل، وواضح أنّه لا فضيلة فى ترك المحال، فعدم ظلمنا مثلًا للناس الذين سيأتون بعد مائة عام أو الذين عاشوا قبل مائة عام لا يعدّ لنا فضيلة وفخراً، لأنّ أداء مثل هذا العمل بالنسبة لنا محال!

الجواب:

بالرغم من أنّ هذا الإشكال لا- يتعرّض إلى عصمة الأنبياء عليهم السلام، بل إلى كونها فضيلة أم لا- مع ذلك فالتمعّن فى عدّة ملاحظات يمكن أن يزيح الستار عن الغموض المحيط بهذا السؤال:

۱- إنّ الذين يثيرون هذا الإشكال لا يلتفتون إلى جذور عصمة الأنبياء عليهم السلام، بل يتصوّرون أنّ مقام العصمة مثلًا هو كالمناعة من بعض الأمراض والتى تحصل للإنسان عن طريق بعض اللقاحات، فكلّ من يلقّح بمثل هذا اللقاح لن يبتلى بذلك المرض شاء أم أبى.

لكنّنا عرفنا فى الأبحاث السابقة أنّ مصونية المعصومين من المعاصى نابعة من مقام معرفتهم وعلمهم وتقواهم، بالضبط كاجتنابنا لقسم من الذنوب لعلمنا وإحاطتنا بسلبياتها، كعدم الخروج إلى الزقاق عراةً، وهكذا بالنسبة لمن له اطّلاع تامّ بالآثار السلبية للمواد المخدّرة ويعلم بأنّ الإدمان عليها يتسبّب فى موت تدريجى بطىء، فسوف يتجنب تعاطيها.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۵۶

فمن المسلّم أنّ تركه هذا يعدّ فضيلة حتّى لو كان الدافع له على تركها هو علمه بمفاسدها، وذلك لقدرته على استعمالها، إذ لا إجبار فى البين.

ولهذا السبب نسعى لرفع مستوى معرفة وتقوى الأفراد عن طريق التربية والتعليم، لنضمن ابتعادهم عن الذنوب الكبيرة والأعمال الشنيعة على أقل تقدير.

أفلا يعدّ ترك البعض لقسم من هذه الأعمال نتيجة للتربية والتعليم فضيلة؟!

وبعبارة أخرى إنّ ترك الأنبياء للذنوب محال عادى لا- عقلى، ونعلم بعدم المنافاة بين المحال العادى وبين الإختيار، وكمثال على المحال العادى هو: أن يصطحب عالم جليل معه خمراً إلى المسجد ويشربه بين صفوف الجماعة، فهذا محال عادى لا عقلى كما لا يخفى.

خلاصة القول: إنّ المستوى الرفيع للإيمان ومعرفة الأنبياء عليهم السلام والذى يعدّ بنفسه فضيلة وافتخاراً، هو السبب فى فضيلة أخرى، ألا وهى مقام العصمة (تأمّل جيّداً).

ولو قيل من أين لهم هذا الإيمان وتلك المعرفة؟، لقلنا من الألطاف الإلهيّة، إلّاأنّها لا تعطى لأىشخص اعتباطاً، بل لوجود الأهلية الكامنة فيهم، بالضبط كما يقول القرآن الكريم بالنسبة لإبراهيم الخليل إنّه لم يبلغ مقام الإمامة إلّابعد اجتيازه للإمتحانات الإلهيّة الخطيرة: «وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً». (البقرة/ ۱۲۴)

أى أنّ إبراهيم وبعد طيّه لهذه المراحل بمحض إرادته واختياره، نال تلك الموهبة الإلهيّة العظيمة.

وكما يقول تعالى بالنسبة ليوسف عليه السلام: «وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ». (يوسف/ ۲۲)

وذلك بعد تكامله البدنى والروحى واستعداده لتلقّى الوحى.

إنّ جملة «وَكَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ» تعدّ شاهداً قويّاً على مرادنا، إذ يقول القرآن: إنّ أعمال يوسف الإيجابية ولياقته هى التى هيّأته لتلك الموهبة الإلهيّة العظيمة، كما أنّ هناك

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۵۷

تعابير توضّح هذه الحقيقة بالنسبة لموسى عليه السلام حيث يقول القرآن: «وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِى أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى». «(۱)» (طه/ ۴۰)

ومن الواضح وجود مؤهلات وقابليات كامنة فى نفوس هؤلاء العظماء، لكن تنميتها وتقويتها ليس فيه صفة إجبارية مطلقاً، بل إنّهم قد قطعوا هذا الطريق بمحض اختيارهم وإرادتهم، وما أكثر اولئك الذين يتمتّعون بالقابليات لكنّهم مع ذلك لا يسعون لتطويرها ورفع مستواها، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى، فتمتّع الأنبياء عليهم السلام بمثل هذه المواهب، قد وضع بالمقابل فى اعناقهم مسؤوليات خطيرة، وبعبارة أخرى إنّ اللَّه تعالى إنّما يهب الشخص قدرة وطاقة بحيث تتناسب والمسؤولية التى يضعها على عاتقه، ثمّ يختبره فى أداء وظيفته.

۲- الجواب الآخر لهذا السؤال هو أنّه ومع فرض كون الأنبياء منزهين من ارتكاب أى ذنب وخطأ، بالعناية الإلهيّة اجبارياً لغرض كسب ثقة الخلق، وليكونوا مشعلًا ينير الطريق لهدايتهم، فلا زال الطريق فى «ترك الأولى» أى العمل الذى لا يتناسب وشأنهم مع عدم كونه معصية، مفتوحاً أمامهم بالرغم من كلّ ذلك.

ففضيلتهم تعود إلى عدم تركهم حتّى للأولى مع كونه اختيارياً بالنسبة إليهم، وتعرّض البعض من الأنبياء للخطاب والعتاب الإلهى الشديد اللهجة والإبتلاء بالحرمان فى بعض الأحيان، إنّما هو لاحتمال تركهم للأولى نادراً، وأيّة فضيلة أسمى من اجتنابهم لترك الأولى طاعة لأوامر الحقّ؟

إنّ فخر الأنبياء يكمن فى تحمّلهم للمسؤولية بحجم هذه المواهب، واجتنابهم حتّى لترك الأولى، ولو حدث أن صدر منهم ترك للأولى استثناءً فسرعان ما يبادرون إلى جبران ذلك.

---

(۱) جملة «ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى» فسّرت أحياناً بالإستعداد لتلقّى الوصيّة وأحياناً أخرى بالمعنى الزمانى أى أنّه ولغرض تلقّى الرسالة كان من المقدّر أن تأتى إلى هنا.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۵۸

۲- هل تنسجم العصمة مع التقيّة؟

يقال أحياناً: كيف يمكن أن يكون الأنبياء والأئمّة معصومين مع جواز التقيّة لهم، وجواز الكذب وأمثاله فى مقام التقيّة، أليست تلك ذنوباً؟ فلو جازت التقيّة لهم لاستحالت عصمتهم من الذنب والمعصية.

الجواب:

يجب الإلتفات إلى ملاحظتين دقيقتين:

۱- الشبهة الخطيرة التى راودت البعض من المغفلين حول «التقيّة» والتى غدت مصدراً لشبهات جمّة أخرى، هى توهّمهم بأنّ «التقيّة» تعنى إبداء موقف الضعف أمام الآخرين، واسدال الستار على الحقائق، وانحصار مؤيّديها فى أتباع المذهب الشيعى فقط.

فى حين أنّ «التقيّة» بمعناها الحقيقى قانون عقلائى معروف وواضح يتّبعه كلّ العقلاء فى الوقت المناسب، وهى فى الحقيقة نوع من التكتيك لمحاربة العدو أو مواجهة الأحداث الخطيرة.

بيان ذلك: هناك أحداث فى تاريخ الجهاد الدينى والاجتماعى والسياسى، يتعرّض أتباع الحقّ ومذهبهم للخطر فيما لو قاوموا بشكل علنى، ومن هنا نرى أنّ وجه الصراع يتغيّر وتستبدل المقاومة المباشرة بغير المباشرة والعلنية بالسرّية، والهدف هو توجيه «ضربات أكثر للعدو ب «خسائر أقل»، وبعبارة أخرى الحدّ من ضياع القوى، وهذا النوع من الصراع والعمل السرّى ليس سوى «التقيّة» ولكن بأسلوب آخر.

إنّ النشاط السرّى مقابل العدو يعتبر فى كلّ حروب العالم على طول التاريخ (خصوصاً اليوم) من أهمّ أصول المقاومة، الخطط الحربية كلّها سرّية، كلّ ملابس الجنود وأنواع العتاد والسلاح بعيدة عن أنظار العدو، وهذه كلّها صور أخرى من «التقية».

لو وقع أحد الضبّاط الكبار فى أسر العدو، واحتمل أن يستفيد العدو كثيراً من معلوماته،

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۵۹

لوجب عليه كتمان أمره وعدم إخبار العدو بالحقيقة، بل لو تمكّن من إغوائهم بعباراته لوجب ذلك، وهذه أيضاً من أوجه التقيّة.

لِمَ نذهب بعيداً، ففى صدر الإسلام حين كان المسلمون يشكّلون الأقلّية، كانوا يكتمون عقائدهم حين وقوعهم فى قبضة العدو، لئلّا تذهب الطاقات سدى، فالكل قد سمع قصّة عمّار وأبيه، كما أنّ القرآن أجاز هذه المسألة فى العديد من الآيات «۱».

ومؤمن آل فرعون الذى وردت قصّته بالتفصيل فى القرآن كمثال على ذلك، حيث استخدم أسلوب التقيّة، وعبّر عنه القرآن صراحةً ب «رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ». (غافر/ ۲۸)

ولا- يجيز أى عاقل أن يكشف المجاهدون عن أنفسهم فى مثل هذه الظروف الحسّاسة وهم قلّة، لئلّا يتعرّف عليهم العدو بسهولة ويقضى عليهم.

اللطيف هو أنّ «التقيّة» قد اعتبرت بمثابة الدرع الواقى بالنسبة للمؤمن فى الروايات الإسلامية، كما ورد ذلك عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «التقيّة ترس المؤمن» «۲».

فلو أنّ أحداً لجأ إلى مكان منيع فى ساحة المعركة ليقى نفسه من ضربات العدو، هل يعدّ مرتكباً لعمل مخالف ياترى؟!

ومن هنا يتّضح أنّه كلّما ابتلى أحد بموارد التقيّة وكتم أمره وعقيدته التى يؤمن بها لمصلحة أهمّ، أو تحدّث على خلافها، فهو فضلًا عن عدم ارتكابه للذنب يكون عاملًا بالمباح أو الواجب، وشأن ذلك شأن الكذب لإصلاح ذات البين، أو لإنقاذ حياة مؤمن.

واللطيف هو أنّ القرطبى المفسّر السنّى المعروف، وفى ذيل الآية (۱۰۶) من سورة النحل حينما يصل إلى مبحث «التقيّة» يقول: «يعتقد كلّ علماء الإسلام أنّه لو أجبر أحد على التفوّه بعبارات الكفر خوفاً على حياته، فلا حرج عليه فى ذلك مع اطمئنان قلبه بالإيمان، ولا تبين منه زوجته، ولا يحكم بأحكام الكفر» وبعد تعرّضه لقول ضعيف حول

---

(۱) راجع (آل عمران/ ۲۸) و (النحل/ ۱۰۶).

(۲) وسائل الشيعة، ج ۱۱، ح ۶، من الباب ۲۴ من أبواب الأمر بالمعروف ص ۴۶۱.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۶۰

الإرتداد الظاهرى لشخص كهذا يقول: «هذا كلام ينفيه الكتاب والسنّة والقرآن وحديث النبى الأكرم صلى الله عليه و آله».

طبعاً الأنبياء عليهم السلام فى موقع لا يسمح لهم بالتقيّة أبداً، أى إنّهم لا يكتمون حقائق الدين بأىّ ثمن، ولا يقولون خلاف الواقع فى هذا الطريق، وإلّا لبقيت حقائق دعوتهم خفيّة، ولزال الإعتماد على كلامهم، ولفقد إخبارهم عن الوحى السماوى اعتباره، لكنّهم لو ابتلوا بمشاكل شخصية فيحتمل كتمانها من قبلهم، وقد اختفى النبى الأكرم صلى الله عليه و آله فى غار ثور أثناء هجرته من مكّة إلى المدينة وسلك الأودية والبوادى، وسار ليلًا واختفى نهاراً لئلا يعثر عليه العدو وتتعرّض حياته المباركة للخطر، هذه كلّها كانت تقية ولا معصية فى ذلك كلّه، كما إنّه لم يصدر منه صلى الله عليه و آله ما يخالف الحقّ.

وبهذا نكون قد وصلنا إلى خاتمة مبحث عصمة الأنبياء عليهم السلام.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۶۱

المنزلة العلمية للأنبياء عليهم السلام

اشارة

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۶۳

المنزلة العلمية للأنبياء عليهم السلام

لا شكّ أنّ قادة المجتمعات البشرية عموماً، والقادة الإلهيين خصوصاً ينبغى لهم أن يتمتّعوا بقسط وافر من العلم والمعرفة، وفى شتّى المجالات، وبما أنّ دائرة رسالة الأنبياء عليهم السلام تشمل بدن الإنسان وروحه، وبعبارة أخرى إنّها تسع جميع البشر فى دنياهم وآخرتهم، فلابدّ لهم من معلومات جمّة لا تشوبها شائبة الخطأ والسهو، لكى لا يقودوا الناس إلى طرق الضلال تحت عنوان نيابتهم عن اللّه، وليثق بهم عباد اللّه ولا ينحرفوا.

ولهذا السبب فقد جهزهم اللّه وقبل كلّ شىء بسلاح العلم والمعرفة، كما شهدت بذلك آيات القرآن الكريم، فالآيات أدناه دليل واضح على هذا المعنى ابتداءً بآدم وانتهاءً بالخاتم.

۱- لقد وهب اللّه آدم عليه السلام علماً ومعرفة حتّى أنّ الملائكة بمقامهم العلمى وإحاطتهم بأمور العالم قد سجدوا له:

«وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِى بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاء إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ* قَالُوا سُبْحَانَكَ لَاعِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ* قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ». (البقرة/ ۳۱- ۳۳)

ولغرض إكمال هذا البحث لابدّ لنا من معرفة أمور:

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۶۴

ما هو علم الأسماء؟

للمفسّرين كلام طويل حول ماهية علم الأسماء هذا، الذى يعدّ من أعظم المواهب الإلهيّة لآدم عليه السلام، والمنشأ لفضيلته وافتخاره ولياقته لتسلّم مقام الخلافة الإلهيّة.

فتارة قيل: إنّ المراد به هو علم اللغات، فى حين أنّ معرفة مجموعة من اللغات لا يمكن أن تكون المنشأ لفضيلة كهذه، فضلًا عن عدم تناسب هذا المعنى مع التعبير الوارد فى هذه الآيات، لأنّ التعبير ب: «غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» يبيّن عودة هذا العلم إلى أسرار السماوات والأرضين الخفيّة، التى بقيت خافية عن أنظار الملائكة.

وقالوا تارةً اخرى إنّ المراد هو أسماء حجج اللّه، خصوصاً الأئمّة المعصومين الذين كانت أرواحهم مخلوقة من قبل، وقد ورد مثل هذا

التفسير فى بعض الروايات.

لكن من المسلّم أنّ مثل هذه الروايات ليست أكثر من إشارة إلى البعض من المصاديق المهمّة لهذا العنوان الكلّى، كما عليه أسلوب الروايات التفسيرية، لا أنّ «علم الأسماء» يختصّ بها.

لكن الكثير من المفسّرين قالوا: إنّ المراد من «الاسم» هنا هو «المسمّى»، أى أنّ اللَّه علّم آدم كلّ العلوم المرتبطة بالأرض والسماء، وأنواع الصناعات واستخراج المعادن وغرس الأشجار وخواصها ومنافعها، (أو أنّه تعالى وضعها فى كيانه ووجوده بشكل مركّز).

وعلى هذا فقد تعرّف آدم على كلّ أسرار العالم، وهيّأ الأرضية لذرّيته للإحاطة بكلّ هذه الأسرار. فأيّة فضيلة أسمى وأرفع من التمتّع بمثل هذا العلم، وكذلك جعل القابلية على نيله فى متناول أولاده أيضاً.

ولذا نقرأ فى حديث الإمام الصادق عليه السلام حو تفسير هذه الآية قال: «الأرضين والجبال والشعاب والأودية ثمّ نظر إلى بساط تحته فقال هذا البساط ممّا علمه» «١»، (وباختصار كلّ موجودات العالم).

هذا التعبير يبيّن أنّ آدم عليه السلام كان عالماً بكلّ هذه العلوم.

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج ١، ص ٧٦.

نفحات القرآن، ج٧، ص: ١۶۵

وهناك كلام للمرحوم «العلّامة الطباطبائى» فى «الميزان» حاصله: «أوّلًا يستفاد من تعابير الآية أنّ هذه «الأسماء» سلسلة أمور غائبة عن العالم السماوى والأرضى، خارج محيط الكون، ولها مفهوم عام واسع أشير إليه بلفظة «كلّها» كما أنّ الضمير «هم» بصيغة الجمع، مشعر بأنّ كلّ هذه الأسماء كانت موجودات حيّة عاقلة مستورة فى عالم الغيب»، ثمّ يضيف قائلًا: «وإذا تأمّلت هذه الجهات أعنى عموم الأسماء، وكون مسمّياتها لها حياة وعلم، وكونها غيب السموات والأرض، قضيت بانطباقها بالضرورة على ما أشير إليه فى قوله تبارك وتعالى: «وَإِنْ مِنْ شَىْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ».

(الحجر/ ٢١)

وأخيراً يقول العلّامة: «فتحصّل أنّ هؤلاء الذين عرضهم اللَّه على الملائكة موجودات عالية محفوظة عند اللَّه، محجوبة بحجب الغيب، أنزل اللَّه كلّ اسم فى العالم بخيرها وبركتها، واشتقّ كلّ ما فى السموات والأرض من نورها وبهائها» «١».

على أيّة حال فقد كان «علم الأسماء» علماً واسعاً محيطاً بكلّ الحقائق المهمّة لهذا العالم.

٢- يقول اللَّه تعالى حول موسى بن عمران عليه السلام:

«وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ». (القصص/ ١۴)

٣- ويقول عن داود عليه السلام:

«وَقَتَلَ دَاوُدُ (الذى كان فى ذلك الزمان فتى فى ريعان الشباب) جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ». (البقرة/ ٢۵١)

۴- ويقول عن داود وسليمان عليهما السلام:

---

(١) تفسير الميزان، ج ١ ذيل الآيات مورد البحث، يمكن أن يكون مراد العلّامة من هذا الكلام المجمل شيئاً شبيهاً بالمثل الافلاطونية أو العقول العشرة.

نفحات القرآن، ج٧، ص: ١۶۶

«وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً». (الأنبياء/ ٧٩)

۵- ويقول عن النبى لوط عليه السلام:

«وَلُوطاً آتَیْنَاهُ حُکْماً وَعِلْماً». (الأنبياء/ ۷۴)

۶- كما يكرّر نفس هذا المعنى فى حقّ يوسف عليه السلام إذ يقول:

«وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَیْنَاهُ حُکْماً وَعِلْماً». (يوسف/ ۲۲)

و لابدّ من الإلتفات هنا إلى هذه النكتة، وهى أنّ لفظة «علماً» قد وردت فى هذه الآيات بصيغة «النكرة» وذلك لبيان العظمة التى لا نعرف لها حدّاً وحدوداً.

البعض فسّر لفظة ال «حكم» فى هذه الآيات بمعنى مقام «القضاء» والبعض فسّرها بمعنى مقام «النبوّة»، وحملها البعض الآخر على معنى العلم الخاصّ الذى يساعد الإنسان على تميز الحقّ من الباطل، وبعبارة أخرى أن المراد هو العقل والفهم والقدرة على القضاء الصحيح، والفصل بين الحقّ والباطل «۱»، لكن بالنتيجة يمكن لكلّ واحدة من هذه المعانى أن تكون شاهداً على المراد.

۷- ويقول حول السيّد المسيح عليه السلام:

«وَإِذْ عَلَّمْتُکَ الْکِتَابَ وَالْحِکْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِیلَ». (المائدة/ ۱۱۰)

۸- ويقول حول نبى الإسلام صلى الله عليه و آله:

«وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَیْکَ الْکِتَابَ وَالْحِکْمَةَ وَعَلَّمَکَ مَا لَمْ تَکُنْ تَعْلَمُ وَکَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَیْکَ عَظِیماً». (النساء/ ۱۱۳)

۹- وفى موضع آخر وبعد الإشارة إلى فريق من الأنبياء العظام، أى إبراهيم وإسحاق ويعقوب ونوح وداود وسليمان وأيّوب ويوسف وموسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس واسماعيل واليسع ويونس ولوط يقول:

«أُوْلَئِکَ الَّذِینَ آتَیْنَاهُمُ الْکِتَابَ وَالْحُکْمَ وَالنُّبُوَّةَ». (الأنعام/ ۸۹)

وبناءً على هذا فقد وهب اللَّه ثلاثة امتيازات مهمّة لهؤلاء الأنبياء العظام الثمانية عشر،

---

(۱) راجع تفسير مجمع البيان، ج ۵، ص ۲۲۲، ذيل الآية ۲۲ من سورة يوسف.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۶۷

لكنّها لم تكن تختصّ بهم فقط بل كانت شاملة لكلّ الأنبياء الإلهيين ببداهة الحال، وهى:

«الكتاب السماوى» و «الحكم» و «النبوّة»، طبعاً ينبغى ألّا يفهم من هذا الكلام أنّ كلّ واحد منهم كان يمتلك كتاباً مستقلًا، بل إنّ فريقاً منهم كان قد اوحى إليه كتاب، وفريقاً آخر كان حافظاً لكتب السلف.

۱۰- هناك تعبير بليغ آخر يشاهد فى آيات القرآن حول هذا الموضوع بالنسبة للنبى الأكرم صلى الله عليه و آله، وخلفائه المعصومين، وهو تعبير «الرَّاسِخُونَ فِی الْعِلْمِ» حيث يقول القرآن، وبعد تقسيمه للآيات القرآنية إلى «المحكمات» (الآيات الصريحة والواضحة) و «المتشابهات» (الآيات التى ليست كذلك):

«وَمَا یَعْلَمُ تَأْوِیلَهُ (أى المتشابهات) إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِی الْعِلْمِ، (ونظراً لفهمهم أسرار آيات القرآن) یَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ کُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا یَذَّکَّرُ إِلَّا أُوْلُوا الْأَلْبَابِ».

(آل عمران/ ۷)

ومعلوم أنّ هناك حديثاً مفصّلًا بين المفسّرين حول تفسير هذه الآية، وأنّه هل يجب الوقوف بعد لفظ الجلالة «اللَّه» وفصل جملة «وَالرَّاسِخُونَ فِی الْعِلْمِ»، ليفهم منها أنّ الراسخين فى العلم يؤمنون إجمالًا بالآيات المتشابهة وإن لم يكن لهم إلمام كافٍ بها، أم أنّ جملة «الراسخون فى العلم» معطوفة على لفظ الجلالة «اللَّه» ليفهم منها أنّ كلًا من اللَّه وكذلك الراسخين فى العلم لهم اطّلاع بتأويل هذه الآيات، وقد اخترنا فى التفسير الأمثل الشقّ الثانى، وذكرنا هناك أربعة أدلّة على مدّعانا «۱».

على أيّة حال فعبارة «الراسخون فى العلم» تدلّ على أنّ لهؤلاء القادة العظام سهماً وافراً من العلم، لأنّ لفظة «الرسوخ» وعلى حدّ قول

صاحب المفردات تعنى ثبات الشىء متمكّناً، وأنّ الراسخ فى العلم هو المحقّق به الذى لا تعترضه شبهة.

فنستنتج من مجموع هذه الآيات بكلّ وضوح، أنّ للأنبياء الإلهيين حصّة كبيرة من العلوم والمعارف.

---

(١) يرجى مراجعة التفسير الأمثل، ذيل الآية مورد البحث.

نفحات القرآن، ج٧، ص: ١٦٨

توضيحان

١- حدود علم الأنبياء عليهم السلام

لا- شكّ فى ضرورة تمتّع الأنبياء عليهم السلام بمعرفة تامّة بكلّ أصول الدين وفروعه، وما يرتبط بالمعارف الإلهيّة، والأحكام، والأخلاق وأسباب سعادة الإنسان وشقائه، وطرق نجاته وهدايته، وذلك لاستلزام مهمّة إبلاغ هذه الأمور، ونيل أهداف النبوّة السامية لمثل هذه العلوم. ومن البديهى عدم إحاطتهم التامّة بهذه الأمور يحول دون تحقّق المقصود، وحسب التعبير المعروف، فهذه المسائل من القضايا التى تكون قياساتها معها.

كما يجب أن يكون لهم إلمام بالمسائل التنفيذية والامور المرتبطة بإدارة المجتمع، وتشكيل الحكومة الإلهيّة ومسائل من هذا القبيل، وذلك لأنّ للأنبياء مقام الولاية فضلًا عن جانب التربية والتعليم، ولو لم نتمكّن من تعميم حكم هذه المسألة على كلّ الأنبياء عليهم السلام، فهذا المقام ممّا يمكن إثباته لكبار الأنبياء على أقلّ تقدير، فإبراهيم كان إماماً وقائداً للناس، وكان كلّ من سليمان وداود وموسى بن عمران ويوسف متصدّياً للحكومة عمليّاً، كما أنّ نوحاً كان شبيهاً برئيس الحكومة وذلك فى ظروف خاصّة بعد مسألة الطوفان، والأوضح من الكلّ هو مقام ولاية وحكومة نبى الإسلام صلى الله عليه و آله الذى شكّل حكومة إلهية كاملة بكافّة أبعادها.

إنّ ضرورة تمتّعهم بالمعلومات الكافية لإدارة هذه الحكومات هو ممّا لا يخفى، لأنّ أى خطأ واشتباه منهم فى أمر الحكومة سيترك أثراً سلبيّاً فى مسألة دعوتهم إلى اللّه، وعلى العكس فالقيادة الصحيحة للحكومة ستكون السبب فى نجاحهم فى هذه المهمّة.

ويمكن إثبات هذين القسمين من العلوم والمعارف- الدينية والحكومية بالدليل العقلى، باعتبار عدم ضمان الهدف من البعثة لو لم يكن للأنبياء اطّلاع عليهما.

لكن هل يلزم عقلًا أن يكون الأنبياء والأئمّة المعصومون مطّلعين على العلوم الأخرى، التى لا ترتبط بأهدافهم مباشرةً؟ مثلًا هل يجب أن يكون لهم اطّلاع بعلم الطبّ والرياضيات والأعشاب والنجوم والهيئة وسائر العلوم؟

نفحات القرآن، ج٧، ص: ١٦٩

بعبارة أخرى هل يلزم أن يكون لهم إلمام بكافّة العلوم على مستوى إلمام الأخصائى وما فوقه- الدكتوراه وما فوق ذلك- لا مجرّد المعلومات العامّة التى يحتاجها كلّ قائد؟

يعتقد البعض بعدم وجود أدلّة عقلية على إثبات مثل هذه العلوم الكثيرة للأنبياء، مهما تمّ الإستشهاد بالآيات والروايات كأدلّة نقلية على اتّساع دائرة علومهم فى شتّى المجالات.

وبعبارة أخرى: فعلوم الأنبياء عليهم السلام الضرورية لهم هى ما تمّت الإشارة إليها طبقاً للأدلّة العقلية، لكن عند الاستدلال بالأدلّة النقلية تتّسع مسألة علومهم بشكل أكبر ولا مانع من عدم لزوم هذه العلوم لهم عقلًا، لأنّ الأدلّة النقلية تثبت لهم هذه العلوم من باب الفضيلة والكمال، نظراً لإمكان هذه العلوم من إضفاء عظمة أكبر عليهم، ومن الإسراع فى تقبّل الناس لدعوتهم.

٢- القرآن والعلوم الأخرى للأنبياء عليهم السلام

ومن جهة أخرى فلا يمكن إنكار هذه الحقيقة وهى ارتفاع الحجب عن قلوب الأنبياء، بسبب سمو نفوسهم وتهذيبهم الكامل للنفس وتصفية قلوبهم من الشوائب، وأنّ هذه المعرفة وان لم تكن ضمن شروط النبوّة لكنّها تعتبر ضرورية فى سلّم الكمال كما لا يخفى.

وبعبارة أخرى، فان مسألة نقض الغرض شىء، ومسألة قدرة نفوس وعقول الأنبياء يمثل شيئاً آخر، ولو أنّنا عجزنا عن إثبات ما زاد عمّا له علاقة بعالم الشريعة والتربية وإدارة المجتمع الإنسانى، فبالإمكان إثباته بالطريق الثانى.

ويمكن لآيات القرآن أن تكون دليلًا حسناً على هذه المسألة أيضاً، إذ قد تمّت الإشارة فى القرآن، بالإضافة إلى مسألة الأسماء التى وهبت لآدم والتى اتّسع نطاقها بما يفوق الحدّ- كما علمنا- إلى موارد أخرى من علوم مختلف الأنبياء الإلهيين، والتى لا تبدو حسب الظاهر لازمة لمسألة التشريع وبيان أحكام الدين، لكنّها تعدّ الأساس لكمالها. لاحظ الآيات الآتية المرتبطة بهذا الموضوع.

١- نقرأ عن داود عليه السلام: «وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ». (الأنبياء/ ٨٠)

نفحات القرآن، ج٧، ص: ١٧٠

ال «لبوس» يعنى فى الأصل كلّ أنواع الألبسة، لكنّه استعمل هنا فى خصوص ملابس المعركة كالدرع مثلًا، ولكن بعض أرباب اللغة كابن منظور فى لسان العرب وبعض المفسّرين كالمرحوم الطبرسى فى مجمع البيان قالوا فى ذيل هذه الآية: كلّ أنواع السلاح (الأسلحة الهجومية والدفاعية)، إذ إنّه يصدق بحقّها استعمالها للدفاع فى الحروب التى اشير إليها فى الآية وإن كانت ظاهرة فى الدرع كما هو واضح.

ذكر بعض المفسّرين أنّهم وقبل داود عليه السلام كانوا يربطون بأبدانهم صفحات حديدية رقيقة لوقاية أنفسهم من ضربات الأعداء، (وأنّ هذا العمل كان شاقّاً وصعباً للغاية، وأنّ أوّل من صنع الدرع من الحلقات الصغيرة المرتبطة ببعضها البعض هو نبى اللَّه داود الذى خطر على باله هذا الشيء بإلهام إلهى «١».

وقد ورد نفس هذا المعنى بتعبير أشمل فى موضع آخر إذ يقول تعالى: «وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ* أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً». (سبأ/ ١٠- ١١)

«السابغات» جمع «سابغ» الذى يعنى الدرع الكامل العريض بالضبط، كما أنّ «إسباغ النعمة» يعنى وفورها و «إسباغ الوضوء» يعنى كثرة ماء الوضوء.

«السرد» يعنى فى الأصل غزل الأشياء الخشنة، وقد ورد فى جملة «وقدّر فى السرد» الأمر برعاية الأحجام الملائمة لحلقات الدرع وكيفية غزلها.

وبهذا تبيّن أنّ اللَّه قد ألآن له الحديد بالإضافة إلى تعليمه لفنون غزل الدرع الكامل.

هل كان الحديد يلين فى يد داود كالشمع؟ أم أنّ اللَّه قد علّمه طريقة إذابة الحديد وصناعة القضبان الحديدية الدقيقة والمتينة؟ وبعبارة أخرى هل يمكن أن يكون لين الحديد فى يده معجزة إلهية، أم أنّ اللَّه علّمه الأسلوب الخاصّ لإذابة الحديد، والذى لم يكن معروفاً حينذاك؟ أيّاً كان فقد علّم اللَّه داود كيفية صناعة القضبان المناسبة واستبدالها بحلقات الدرع القويّة ونسجها، وكانت نتيجة ذلك هى صناعة ثوب يسهل ارتداؤه مع مرونة حركته، طبقاً لحركات بدن الإنسان وأعضائه، لا كصفحات الحديد القويّة التى يتعذر

(١) تفسير روح المعانى، ج ١١، ص ٢١؛ و تفسير فى ظلال القرآن، ج ٥، ص ٥٥٢.

نفحات القرآن، ج٧، ص: ١٧١

تطويعها والتى تقيّد المقاتلين فتجعلهم وكأنّهم فى قفص.

وهنا ملاحظة لابدّ وأن تؤخذ بنظر الإعتبار وهى أنّ داود عليه السلام حينما كان يلين الحديد بيديه كان يرجّح صناعة المعدّات

الدفاعية على الهجومية كالسيف مثلًا.

على أيّة حال فمع أنّ عدم الإلمام بصناعة آلية دفاعية مهمّة ومصيريه، فى حروب ذلك الزمان لم يكن بتلك الأهميّة، بحيث يحدث خللًا فى دعوة النبى الدينية، لكن اللَّه علّمه هذه الصنعة وبقيت رائجة بين الناس.

۲- نقرأ فيما يتعلّق بسليمان عليه السلام: «وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ». (النمل/ ۱۶)

هذا فى الواقع جزء من العلم العظيم الذى وهبه اللَّه لداود وسليمان، والذى جاء فى الآية السابقة: «وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمانَ عِلْماً».

بديهى أنّ الإطّلاع على منطق الطير (محاورات الطيور) بأى معنىً كان ليس من شروط النبوّة، وفى نفس الوقت فالقرآن يصرّح بأنّ اللَّه تعالى كان قد وهب سليمان عليه السلام علماً كهذا، بل أشار أيضاً فى آيتين لاحقتين إلى معرفة سليمان بمنطق النمل: «حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَايَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ* فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِى أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِى أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ». (النمل/ ۱۸- ۱۹)

وكما نقرأ حوار سليمان مع الهدهد فى الآيات اللاحقة كذلك: «وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ ...». (النمل/ ۲۰- ۲۸)

مع أنّ هناك أبحاثاً كثيرة تبحث فى تفسير هذه الآيات، أنّه هل لهذه الطيور كالهدهد والحشرات كالنمل ذلك المستوى من العقل والشعور، بحيث تدرك مفاهيم الكلمات

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۷۲

والجمل وتتحدّث بشكل منطقى؟ وهل أنّ اسلوب محاوراتها يتمّ بالألفاظ أم من خلال حركات تعكس المراد؟ (ذكرنا ذلك مفصّلًا فى التفسير الأمثل) «۱».

لكن تفسير هذه الآيات أيّاً كان فلن يؤثّر على الهدف الذى نبغيه هنا، لأنّ المراد هو وجود سلسلة من المعلومات التى تخرق العادة عند الأنبياء، وعدم وجودها عند الناس العاديين، مع عدم كونها من شروط النبوّة فى نفس الوقت.

۳- وحول يوسف عليه السلام جاء فى العديد من الآيات أنّ له علماً خارقاً للعادة فى تفسير الأحلام.

ففى أحد المواضع يبشّره أبوه يعقوب عليه السلام بأنّ اللَّه سيختارك ويعلّمك من تفسير الأحلام:

«وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ». (يوسف/ ۶)

وفى موضع آخر حينما يدور الحديث حول مجيء يوسف عليه السلام إلى قصر عزيز مصر يقول القرآن الكريم: «وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ». (يوسف/ ۲۱)

ويتحدّث فى موضع آخر عن تفسير يوسف عليه السلام لرؤيا السجينين، وقوله لهما: «ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّى». (يوسف/ ۳۷)

وأخيراً حينما يدور الحديث عن ابتهال يوسف عليه السلام ومناجاته لخالقه بعد تصدّيه لمقام الحكومة، ولقائه بأبيه وامّه واخوته، يقول القرآن الكريم على لسان يوسف عليه السلام: «رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِى مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ». (يوسف/ ۱۰۱)

مع أنّ البعض من المفسّرين قد ذكروا احتمالًا آخر غير تفسير الأحلام فيما يتعلّق بعبارة «تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ» وقالوا: إنّ المراد هو تعليمه أسرار الكتب الإلهيّة ودقائق سنن

---

(۱) راجع التفسير الأمثل، ذيل الآيات مورد البحث.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۷۳

الأنبياء عليهم السلام «۱»، لكن ومع الأخذ بنظر الإعتبار مجموع الآيات الأربع أعلاه ولفظة «التأويل» التى تتلاءم كثيراً مع تفسير

الأحلام، بالإضافة إلى قرائن اخرى يكون المراد هو نفس علم تفسير الأحلام وهو مختار الكثير من المفسّرين أيضاً «۲».

ومع أنّ علم تفسير الأحلام لم يحض بتلك الأهميّة عند البعض، لكنّه يعدّ من الحقائق، وذلك للشواهد والقرائن العينية الكثيرة التى تحفّ بهذا الموضوع، كما أنّ بإمكانه كشف اللثام عن بعض الغوامض لمن له إلمام به. وقد تناولنا هذا الموضوع بالشرح والتفصيل فى التفسير الأمثل ذيل الآية السادسة سورة يوسف عليه السلام.

كما أنّ القرآن قد أيّد صحّة ذلك أيضاً وذكر لذلك مثالًا عجيباً، وبيّن أنّ مستقبل بلاد كبيرة كمصر قد تغيّر عن طريق تفسير يوسف عليه السلام للرؤيا بصورة دقيقة، كما أنّ نفس هذا التغيّر قد ترك أثره فى مستقبل يوسف عليه السلام أيضاً وأوصله إلى أرفع المناصب الحكومية فى مصر.

و لا شكّ أنّ علم تفسير الأحلام بنظر المنطق العقلى ليس بذلك الشيء الذى ترتكز عليه اسس الرسالة، لكن مع ذلك فقد وهب اللَّه قسطاً وافراً منه ليوسف عليه السلام.

۴- وحول موسى عليه السلام أيضاً يشاهد هذا المعنى بوضوح فى القرآن، حيث أن قصّة «الخضر» و «موسى» وبذلك التفصيل الرائع والبليغ، الذى جاء فى سورة الكهف (وان لم يصرّح القرآن باسم الخضر) تبيّن وجود علوم لدى الخضر كانت غائبة عن ذهن موسى، وأنّه جاء إلى «الخضر» ليتعلّم قسماً منها.

---

(۱) تفسير روح المعانى ج ۱۲، ص ۱۸۶، نقل هذا التفسير عن البعض من المفسّرين كما أنّ المفسّر الكبيرالطبرسى ذكر ذلك كأحد الأقوال فى ج ۵، ص ۲۱۰، ذيل الآية السادسة من سورة يوسف.

(۲) تفسير مجمع البيان ذيل الآية ۱۰۱؛ وتفسير روح المعانى ذيل الآية ۲۱؛ وتفسير القرطبى ذيل الآية ۶؛ وتفسير روح البيان ذيل الآية ۶؛ وأخيراً تفسير فى ظلال القرآن ذيل الآية ۱۰۱ من سورة يوسف.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۷۴

هذه العلوم ليست اموراً مرتبطة بالشريعة وأصول الدين وفروعه، بل هى حقائق مرتبطة بتكوين الإنسان وحياته، مثل تلك السفينة التى كانت لفريق من المستضعفين، والتى خرقها الخضر ليحول دون غصبها من قبل الملك الظالم، أو الشاب الذى قتله الخضر لأنّه سوف يكون سبباً فى انحراف أبويه المؤمنين مستقبلًا، أو الجدار الذى كاد ينقضّ حيث قام الخضر بترميمه حفاظاً على كنز الأيتام الموجود تحته.

فالخضر كان يسعى دائماً بأسلوبه الخاصّ لمساعدة المظلومين والمؤمنين، فى حين كان تصرّفه هذا بنظر موسى خاطئاً وغير مطابق للموازين الشرعية، وذلك بسبب عدم اطلاعه على بعض الحقائق التى كانت محجوبة عنه، ولذا كان يغضب كثيراً حتّى أنّه نسى أكثر من مرّة عهده الذى أعطاه للخضر، بعدم الإعتراض على ما يفعله قبل بيانها واعترض عليه بشدّة، ثمّ اعتذر منه بعد التفاته إلى ذلك.

هذه القصّة بكلّ نكاتها اللطيفة تؤكّد على حقيقة أنّ موسى عليه السلام كان بصدد تعلّم مثل هذه العلوم من الخضر عليه السلام بأمر من اللَّه، فى حين أنّ هذه العلوم لم يكن لها دخل فى مسألة إبلاغ النبوّة، بل تعتبر سبباً فى تكاملها لأنّها تعنى التعمّق فى المسائل بشكل أكبر.

ولو اعتبرنا الخضر نبيّاً (نظراً لوجود الخلاف بين المفسّرين والمحدّثين حول نبوّته) فسنصل إلى هذه النتيجة أيضاً وهى أنّ هناك علوماً لدى الخضر وراء علوم الشريعة، وبديهى أنّ اطّلاع الأنبياء عليهم السلام على هذه الحقائق يعنى أنّ اللَّه تعالى قد جهّزهم بعلوم كثيرة، لتكون لهم قدرة أكبر على هداية الخلق ورسم الطريق لنيل المطلوب، وإن كانت هذه العلوم بعيدة كلّ البعد عن الشروط القطعية للنبوّة.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۷۵

مصادر علم الأنبياء عليهم السلام

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۷۷

مصادر علم الأنبياء عليهم السلام

۱- يتلقّى أنبياء اللّه عليهم السلام حقائق علومهم بالدرجة الاولى عن طريق الوحى، الذى ينزل عليهم أحياناً عن طريق «ملك الوحى»، كما نقرأ ذلك فى الآية (۱۹۲- ۱۹۵) من سورة الشعراء: «وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ* نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ* عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ* بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ»، أو عن طرق أخرى، فهناك أنواع وطرق متعدّدة للوحى وسيأتى تفصيلها فى محلّه إن شاء اللّه.

۲- الطريق الآخر لعلوم الأنبياء عليهم السلام هو الإرتباط الروحى والمعنوى بعالم الغيب، فلقد جعل اللّه تعالى حقيقة أبصارهم قويّة بدرجة أنّها اخترقت حجب عالم الغيب لتجد سبيلها إلى ما وراء ذلك، كما يقول تعالى بالنسبة لإبراهيم الخليل عليه السلام: «وَكَذَلِكَ نُرِى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ». (الأنعام/ ۷۵)

أجل فقد كانت لهم معرفة بعالم «الملكوت»، فضلًا عن معرفتهم بعالم «الملك»، وقد تلقّوا الكثير من علومهم عن طريق المشاهدة النفسية والباطنية للملكوت، وبعبارة أخرى فإدراكاتهم وأبصارهم هى غير تلك الظاهرية التى عندنا، وقد توصّلوا عن طريقها إلى حقائق كثيرة.

۳- الطريق الثالث هو السير ومشاهدة الآفاق الذى عرض للبعض من الأنبياء بأمر من اللّه عزّوجلّ، حيث اطّلعوا عن هذا الطريق على العوالم المختلفة لهذا الكون، بالضبط كما حدث ذلك لنبى الإسلام صلى الله عليه و آله فى مسألة المعراج، يقول القرآن:

«سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِى

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۷۸

بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ». (الاسراء/ ۱)

كان هذا فى الواقع القسم الأوّل من المعراج، امّا القسم الثانى فهو الذى يبدأ من المسجد الأقصى باتّجاه السماوات، والذى أشير إليه فى آيات سورة النجم إذ يقول تعالى: «لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى». (النجم/ ۱۸)

وهو مضافاً إلى هذه الآيات الشريفة التى تذكر المعراج بشكل مجمل، نجد أنّ الأحاديث الإسلامية قد ذكرته بشكل تفصيلى، إذ يتبيّن من مجموعها بكلّ وضوح الحجم العظيم من المعلومات التى حصل عليها رسول اللّه صلى الله عليه و آله، من ذلك السفر الليلى السماوى وهو المعراج.

وكذلك الأنوار البهيّة التى أشرقت على قلبه، فرفعت مقامه العلمى ممّا هو عليه إلى أعلى علّيين.

۴- الطريق الرابع وهو المستفاد من عدّة آيات فى القرآن بأنّ هناك حقيقة باسم «روح القدس» كان برفقة الأنبياء يؤيّدهم ويقوّيهم ويرشدهم فى مسيرهم.

وردت لفظة «روح القدس» فى القرآن المجيد أربع مرّات، مرّة فى حقّ عيسى وأخرى فى حقّ نبى الإسلام صلى الله عليه و آله. يقول القرآن فى حقّ السيّد المسيح عليه السلام «وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ». (البقرة/ ۸۷)

وحول تكلّم عيسى عليه السلام فى المهد يقول: «إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِى الْمَهْدِ وَكَهْلًا». (المائدة/ ۱۱۰)

ونقرأ عن نبى الإسلام صلى الله عليه و آله: «قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ». (النحل/ ۱۰۲)

لقد ذكر المفسّرون معنيين لكلمة «روح القدس»، أحدهما أنّه ملك الوحى جبرئيل عليه السلام.

والآخر هو القوّة الغيبية المجهولة التى ترافق الأنبياء عليهم السلام، فالآية المرتبطة بنبى الإسلام صلى الله عليه و آله تناسب المعنى الأوّل، والآيات المرتبطة بالسيّد المسيح تناسب المعنى الثانى، فهو الذى أيّد المسيح عليه السلام فى تكلّمه بالمهد أو فى إحيائه

للموتى.

هذا الروح المقدّس والطاهر، كان المنبع لإلهامات عظيمة للأنبياء عليهم السلام، بل وحتّى

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۷۹

يستفاد من بعض تعابير الروايات أنّ روح القدس يرافق الأفراد المؤمنين أيضاً (طبقاً لسلسلة مراتب الإيمان)، وهو الذى يؤيّد الخطباء الصالحين والشعراء المؤمنين فى خطبهم وقطعهم النثرية وقصائدهم العملاقة، كما يمدّ المؤمنين الحقيقيين بالعزم على اتّخاذ التصاميم المصيرية.

ويبدو فى الكثير من الروايات أنّ روح القدس حقيقة عند الأنبياء والأئمّة المعصومين عليهم السلام، وأنّهم قد أدركوا بواسطته الكثير من الحقائق، من جملتها ما جاء فى الكثير من الروايات أنّ الأئمّة المعصومين عليهم السلام كانوا يستمدّون العون من روح القدس عند القضاء والإفتاء.

هذا التعبير ورد بحقّ «حسّان بن ثابت» حيث قال له النبى الأكرم صلى الله عليه و آله: «لن يزال معك روح القدس ما ذبت عنّا» (سفينة البحار، مادّة كميت).

كما جاء فى حقّ الكميت شاعر أهل البيت عليهم السلام المعروف، من أنّ الإمام الباقر عليه السلام قال له: «لا- تزال مؤيّداً بروح القدس» «۱»، وورد نظير هذا المعنى فى حقّ دعبل الخزاعى أيضاً، وذلك عندما ألقى القصيدة المعروفة «مدارس آيات» فى مجلس الإمام الرضا عليه السلام، وحينما وصل إلى هذا البيت حول ظهور المهدى عليه السلام:

خروج إمام لا محالة واقع‌يقوم على اسم اللّه والبركات!

بكى الإمام الرضا عليه السلام كثيراً ثمّ قال: يادعبل نطق روح القدس على لسانك، هل تعلم من هذا الإمام؟ قال دعبل: كلّا، لا أعلم سوى ما سمعته من أنّ إماماً منكم سيظهر ويملأ الأرض قسطاً وعدلًا. فأيّد الإمام الرضا عليه السلام كلامه وتحدّث بشىء من التفصيل عن ظهور المهدى، باعتباره الخليفة الثانى عشر للرسول صلى الله عليه و آله (الغدير الجزء ۲ الصفحة ۳۵۵).

وفى حديث عن الإمام الصادق عليه السلام نقرأ أنّ أحد أصحابه سأله: تسألون عن الشىء فلا يكون عندكم علمه؟! قال الإمام عليه السلام: «ربّما كان ذلك!».

قال الراوى: كيف تصنعون؟

---

(۱) الغدير، ج ۲، ص ۲۰۲، حالات الكميت.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۸۰

قال الإمام عليه السلام: «تلقّانا به روح القدس؟» «۱» (بمعنى لقينا).

نقرأ فى حديث آخر: أنّ أحد أصحاب الإمام الباقر عليه السلام قال: سألته عن علم العالم (المراد به النبى والإمام المعصوم).

فقال عليه السلام: «يا جابر إنّ فى الأنبياء والأوصياء خمسة أرواح: روح القدس، وروح الإيمان ... فبروح القدس ياجابر عرفوا ما تحت العرش إلى ما تحت الثرى» «۲».

كما ورد فى رواية أخرى عن الإمام الباقر عليه السلام أيضاً حول تفسير الآية: «وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا ...» أنّه عليه السلام قال: «منذ أنزل اللّه ذلك الروح على نبيّه ما صعد إلى السماء وإنّه لفينا» «۳».

هذا التعبير يبيّن أنّ الروح الذى يشكّل أحد المنابع الرئيسية لعلوم ومعارف النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، والأئمّة المعصومين عليهم السلام ليس جبرئيل، وأنّه حقيقة كامنة فى وجودهم قد انتقل من النبى الأكرم صلى الله عليه و آله إليهم واحداً بعد الآخر.

۵- الطريق الخامس لمنابع علومهم هو العقل الخارق والذى أودعه اللّه عزّوجلّ عند الأنبياء وأوصيائهم المعصومين عليهم السلام، نظراً

لإمكانية إدراك الكثير من الحقائق عن طريقه، عقل ومعرفة الناس العاديين يضيء شعاعاً خاصّاً فى حين أنّ عقول الأنبياء والأوصياء لها امتداد واسع جدّاً، وهذا هو السبب فى كشفهم لحقائق لا يدركها الآخرون.

لذا نقرأ فى قصّة ليلة المبيت (الليلة التى هاجر فيها النبى سرّاً من مكّة إلى المدينة وترك عليّاً عليه السلام فى فراشه) أنّه: حينما اقتحم أشراف قريش المنزل عند الفجر، ووجدوا عليّاً عليه السلام فى فراش النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، صاحوا: أين محمّد؟

قال عليه السلام: أجعلتمونى عليه رقيباً؟ ألستم قلتم نخرجه من بلادنا؟ فقد خرج عنكم، وهنا قال «سراقة بن مالك المخزومى»: الآن حيث لا يوجد محمّد صلى الله عليه و آله فلا تتركوا عليّاً عليه السلام

---

(۱) بحار الأنوار، ج ۲۵، كتاب الإمامة، ص ۵۶، ح ۱۹، كما ورد نفس هذا المضمون فى، ح ۱۸ و ۲۰ و ۲۱ و ۲۲ و ۲۳ أيضاً.

(۲) المصدر السابق، ص ۵۵، ح ۱۵، كما ورد نفس هذا المعنى بتفاوت ضئيل فى الأحاديث ۱۴ و ۲۵ و ۲۶.

(۳) المصدر السابق، ص ۶۱، ح ۳۷.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۸۱

وأريحوا العالم من وجوده، قال أبو لهب: كفّوا عنه، فهو مخدوع من محمّد وقد أفدى نفسه له.

حينئذ التفت على عليه السلام إلى أبى جهل وقال: «ياأبا جهل بل اللّه قد أعطانى من العقل ما لو قسّم على جميع حمقاء الدنيا ومجانينها لصاروا به عقلاء، ومن القوّة ما لو قسّم على جميع ضعفاء الدنيا لصاروا به أقوياء، ومن الشجاعة ما لو قسّم على جميع جبناء الدنيا لصاروا به شجعاناً، ومن الحلم ما لو قسّم على جميع سفهاء الدنيا لصاروا به حلماء» «۱».

فحينما يتمتّع على عليه السلام بهذه المرتبة من العقل والمعرفة فمن المسلّم أن يتمتّع النبى الأكرم صلى الله عليه و آله بمثل هذه الموهبة العظيمة بطريق أولى.

كما أنّ حياة الأنبياء تبيّن أنّ لهم من العقل والمعرفة ما يخرق العادة، وهذا بنفسه هو أحد المنابع المهمّة لعلومهم ومعارفهم.

۶- الطريق السادس والمصدر الأخير هو العلوم التى ورثوها خلفاً عن سلف، ولدينا أدلّة كثيرة على أنّ الأنبياء عليهم السلام قد نقلوا علومهم ومعارفهم إلى الأنبياء الآخرين أو إلى أوصيائهم وأورثوها إيّاهم.

قال فريق من المفسّرين فى تفسير الآية: «وَوَرِثَ سُلَيْمانُ دَاوُدَ». (النمل/ ۱۶)

إنّ «الإرث» هنا يعنى إرث علم ومعرفة ذلك النبى، أو أنّه يعنى مطلق التوارث الشامل للعلم والمعرفة أيضاً.

كما أنّ بعض المفسّرين اعتبر توارث العلم فى قصّة زكريا عند تفسير الآية ۶ من سورة مريم: «يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ» داخلًا فى المفهوم الجامع للآية «۲».

كما نقرأ فى العديد من الروايات: أنّ العلوم التى وهبها اللّه لآدم (علم الأسماء) لم تغب عن الوجود، بل ورثها أولاده المنتجبون!

من جملتها ما نقرأه فى رواية عن الإمام الباقر عليه السلام: «إنّ العلم الذى نزل مع آدم لم يرفع

---

(۱) بحار الأنوار، ج ۱۹، ص ۸۳.

(۲) من جملتهم الآلوسى فى تفسير روح المعانى؛ والسيّد قطب فى تفسيره فى ظلال القرآن.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۸۲

والعلم يتوارث، وكان على عالم هذه الامّة، وأنّه لم يهلك منّا عالم قطّ إلّاخلّفه من أهله من علم علمه أو ما شاء اللّه» «۱».

وفى حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السلام نقرأ أنّه قال: «أما إنّ محمّداً صلى الله عليه و آله ورث علم من كان قبله من الأنبياء والمرسلين» «۲».

كانت هذه المصادر الستّة بمجموعها السبب وراء اطّلاع الأنبياء الإلهيين، ليس فقط على المسائل المرتبطة بمعارف الدين وأحكام الشريعة، بل وكذلك على العلوم والمعارف الأخرى الأعمّ من كونها ذات تأثير مباشر فى أداء مهمّة الرسالة، أو غير مباشر فى تكميل أهداف النبوّة (تأمّل جيّداً).

---

(۱) أصول الكافى، ج ۱، ص ۲۲۲، (باب أنّ الأئمّة عليهم السلام ورثة العلم) ح ۲، كما ورد نفس هذا المعنى فى ح ۴ و ۵ و ۸ من نفس ذلك الباب، وبنفس هذا المنوال الحديث المتظافر المنقول عن أئمّة أهل البيت بأسانيد مختلفة.

(۲) المصدر السابق، ص ۲۲۴ (باب أنّ الأئمّة ورثوا علم النبى)، ح ۲.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۸۳

الأنبياء عليهم السلام وعلم الغيب

اشارة

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۸۵

تمهيد:

لفظة «الغيب» تقابل «الشهود»، والشهود يطلق على الموارد التى يكون فيها الشىء قابلًا للإحساس والمشاهدة، وبهذا فالغيب يطلق على كلّ الامور الخافية عن شعور الإنسان، ولذا ورد فى البعض من الآيات القرآنية تعبير «الإيمان بالغيب» عند التطرّق للإيمان باللَّه واليوم الآخر: «الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ». (البقرة/ ۳)

وفى موضع آخر يصف القرآن المتّقين: «الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ». (الأنبياء/ ۴۹)

بل وحتّى يمكن أن يعدّ الشىء واضحاً محسوساً لفرد وغير محسوس لآخر وذلك لعدم حضوره فى ذلك المكان حيث يطلق «الغيب» على ذلك أيضاً، كما نقرأ فى قصّة يوسف عليه السلام أنّ امرأة عزيز مصر حينما اعترفت بطهارة يوسف فى غيابه أضافت قائلة: «ذَلِكَ لِيَعْلَمَ (يوسف) أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ». (يوسف/ ۵۲)

بعد هذا يدور الكلام حول الأنبياء الإلهيين وهل أنّهم مطّلعون على أسرار الغيب والامور الخافية عن حواس الإنسان (الشاملة للمحسوس غير الحاضر، أو غير المحسوس أصلًا) أم أنّ علم الغيب يختصّ بذاته تعالى، وأنّه لا سبيل لسواه إليه أبداً؟

تبدو آيات القرآن وللوهلة الاولى وكأنّها على قسمين متفاوتين: القسم الأوّل يعتبر علم الغيب خاصّاً به تعالى، والقسم الآخر يقول بإمكانه لغيره أيضاً، ولغرض الإجابة على السؤال أعلاه لابدّ من مراجعة هذه الآيات أوّلًا، ثمّ التطرّق لكيفية الجمع بينها.

أمّا بالنسبة للقسم الأوّل فالآيات الآتية ملفتة للنظر:

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۸۶

۱- «وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَايَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ». (الأنعام/ ۵۹)

۲- «فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ». (يونس/ ۲۰)

۳- «قُلْ لَايَعْلَمُ مَنْ فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ». (النمل/ ۶۵)

۴- «قُلْ لَاأَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ». (الأنعام/ ۵۰)

۵- «وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ السُّوءُ». (الأعراف/ ۱۸۸)

٦- «عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ». (الأنعام/ ٧٣)

جمع الآيات و تفسيرها

اعتبر علم الغيب فى هذا القسم من الآيات التى وردت بتعابير شتّى خاصّاً باللّه تعالى وأنّه لا سبيل لغيره إليه.

قال تعالى فى الآية الاولى: «وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَايَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ».

إنّ تقديم ظرف المكان (عنده) فى أوّل الآية دليل على الإنحصار، وكذا ذيل الآية الذى يصرّح قائلًا: لا يعلمها إلّاهو.

المفاتح جمع «مِفْتَح» (على وزن مِنْجل) بمعنى المفتاح، وجمع «مَفْتَح» (على وزن دفتر) بمعنى الخزانة ومحلّ حفظ الأشياء «(١)، وقد ذكر المفسّرون كلا المعنيين للآية، إذ قالوا تارةً: إنّ كلّ خزائن الغيب عند اللّه، واخرى كلّ مفاتيح الغيب، لكن نتيجة كليهما واحدة وإن اختلفت العبارات.

وقد اعتبرها بعض المفسّرين، واستناداً إلى ما جاء فى صحيح البخارى فى تفسير الآية، إشارة إلى الامور الخمسة الواردة فى آخر سورة لقمان، لكن لايخفى أنّ مفهوم الآية أوسع من ذلك بكثير، بحيث يشمل كل خزائن الغيب ومفاتيحه.

ويبدو أنّ ما جاء فى الرواية حول آخر سورة لقمان كان بياناً لمصاديق جليّة له، ولذا أشار فى ذيل الآية مورد البحث إلى كلّ الأوراق الساقطة من الأشجار، والحبوب فى باطن

---

(١) تفسير الكبير، ج ١٣، ص ٨، ذيل الآية مورد البحث.

نفحات القرآن، ج٧، ص: ١٨٧

الأرض، وكلّ رطب ويابس فى عالم الوجود، واعتبرها ثابتة فى اللوح المحفوظ، لوح علم البارى تعالى.

وفى الآية الثانية كان الخطاب موجّهاً إلى نبى الإسلام صلى الله عليه و آله: «فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ».

وكان هذا فى معرض الجواب عن سؤال المشركين الذين يتحججون على النبى الأكرم صلى الله عليه و آله بإظهار المعجزات (المعجزات التى كانوا يقترحونها هم بأنفسهم من باب الإصرار والعناد للتذرّع بها متى ما مشاءوا)، وبناءً على هذا فالقرآن يقول للنبى صلى الله عليه و آله: تخلى عن مسؤولية مثل هذه الامور، إنّها من أسرار الغيب التى لا يعلمها إلّااللّه، ومتى ما شاء فسيصدر أمره، فلا تستسلم أبداً لرغبات المتذرّعين الحمقى

ونفس هذا المعنى جاء فى ثالث آية وبتعبير آخر، حيث إنّ اللّه تعالى يعلّم نبيّه صلى الله عليه و آله ماذا يقول لأهل الحجج الذين يصرّون على السؤال عن موعد يوم القيامة، فيأمره أن يقول لهم: إنّ هذا من أسرار الغيب وأنّه لا أحد فى السماوات والأرض يعلم الغيب، وموعد يوم القيامة ومتى يكون البعث؟: «قُلْ لَايَعْلَمُ مَنْ فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ».

صحيح أنّ مورد نزول هذه الآية هو يوم القيامة، لكن مفهومها أوسع بل شامل لكلّ الغيوب.

وفى رابع آية يأمر اللّه نبيّه بصراحة: «قُلْ لَاأَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ ... إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ».

نفحات القرآن، ج٧، ص: ١٨٨

هذا الكلام أيضاً كان ردّاً على المشركين المعاندين، الذين يطلبون منه كلّ يوم معجزة ثمّ لم يقتنعوا حتّى بمشاهدتها، كما كانوا يطلبون منه أن يطلعهم على أسرار الغيب.

واعلم جيّداً أنّ جملة «إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ» الواردة فى ذيل الآية هى إحدى المفاتيح لحلّ غوامض علم الأنبياء عليهم السلام، والتى سنتكلّم عنها بالتفصيل ان شاء اللّه.

كما ورد نظير هذا المعنى وبتفاوت ضئيل فى الآية: «وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ». (هود/ ٣١)

هذا التفاوت هو أنّ الاولى كانت على لسان نبى الإسلام صلى الله عليه و آله والثانية على لسان نوح عليه السلام.
و نلاحظ فى الآيـة الخامسـة تعبيراً جديـداً حول هـذا الموضوع، حيث يؤمر النبى بنفى علم الغيب عن نفسه باستدلال لطيف، إذ يأمره تعالى: «قُلْ لَاأَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعاً وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ السُّوءُ».
مع أنّ هـذه الآيـة قـد جاءت بعد الآية التى تتحدّث عن موعد يوم القيامة، وانحصار علمه باللَّه تعالى، لكن مفهومها واستدلالها أوسع كثيراً.
ومن البديهى أنّ الكثير من المنافع التى تفوت الإنسان أو الأضرار التى تلحق به ناشئة من عدم وقوفه على عاقبة الامور وأسرار الغيب، ولو كان له اطّلاع عليها لتجنّب شرّها ولجلب لنفسه خيرها، فعجزه عن ذلك دليل على عدم اطّلاعه على أسرار الغيب.
فى سادس آية يعتبر علم الغيب إحدى الصفات الخاصّة باللَّه تعالى حيث يقول: «عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ».
هذا التعبير الذى ورد فى عدّة آيات من القرآن «۱» باعتباره إحدى الصفات البارزة للَّه

---

(۱) الأنعام، ۷۳؛ التوبة، ۹۴ و ۱۰۵؛ الرعد، ۹؛ المؤمنون، ۹۲؛ السجدة، ۶؛ الزمر، ۴۶؛ الحشر، ۲۲؛ الجمعة، ۸؛ التغابن، ۱۸.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۸۹

تعالى، يبيّن أنّ اللَّه وحـده هو المحيط بغيب وشـهود الكون، حيث إنّها ذكرت كصـفة خاصّة وفى مقام الحصـر، فيستفاد منها أنّ غيره تعالى حتّى الأنبياء لم يكونوا مصاديق ل «عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ».
ومع أنّ المفسّـرين قد ذكروا عدّة احتمالات لتفسير هذه الآيه، إذ فسّـرها بعضـهم ب «عالم السِّرِّ والعَلانِيةِ»، والبعض الآخر ب «ما كان ومـا يكون»، وثالث ب «العالم بالـدنيا والآخرة»، ورابع ب «العالم بما هو ظاهر لخلقه وما هو خفى عنهم» «۱»، لكن من الواضح أنّ كلّ هـذه قد وردت حول معنى الآية بصيغة الجمع، لأنّ كلمتى «الغيب» و «الشهادة» اللتين تعنيان هنا العموم، والمذكورتين ب (الف ولام الجنس)، شاملة لكلّ الغيوب والشـهود الأعمّ من السابقة واللاحقـة، الـدنيا والآخرة، السرّ وأخفى، السـماوات والأرض، الماديـات والمجردات.
ومع أنّ هذا التعبير فى الآيات العشـر المشار إليها، قد ذكر فى كلّ مناسبة لغرض معيّن، وأنّ القرآن استنتج من كلّ مورد نتيجة، لكن مفهومه فى كلّها واحد، وهو الإحاطة العلمية للَّه بأسرار الغيب والشهادة الخاصّة بذاته المقدّسة.

النتيجة:

يمكن الإسـتنتاج بوضوح من مجموع العبارات الستّ أعلاه والتى تكرّر بعضـها فى القرآن أنّ علم الغيب والإحاطة بالأسـرار الغامضة خاصّ بذاته تعالى.
والآن نذهب وراء القسم الثانى من الآيات والتى تعطى الأنبياء عليهم السلام سـهماً من علم الغيب، إذ ينبغى التحقيق فيها جيّداً ليتّضح الدليل على عدم تضادّها مع آيات القسم الأوّل

---

(۱) تفسير القرطبى، ج ۹، ص ۶۵۲۴، ذيل الآية ۲۲ من سورة الحشر.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۹۰

المخفية بين ثنايا نفس هذه الآيات:
۱- «عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَـداً* إِلَّا مَنِ ارْتَضَـى مِنْ رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْـلُكُ مِنْ بَيْنِ يَـدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَـداً* لِيَعْلَمَ أَنْ قَـدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً». (الجنّ/ ۲۶- ۲۸)

٢- «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِى مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ».

(آل عمران/ ١٧٩)

٣- «وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ». (آل عمران/ ٤٩)

جمع الآيات وتفسيرها

وصف اللَّه فى أوّل آية بأنّه: «عَالِمُ الْغَيْبِ» المطلق، أى المطلع على كلّ الأسرار الخفيّة، يقول تعالى: «عَالِمُ الْغَيْبِ» ثمّ يستثنى قائلًا: «إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ».

أى أنّ اللَّه يطلع مثل هؤلاء الرسل على ما شاء من أسرار الغيب، وبناءً على هذا فهم بأنفسهم لا يعلمون شيئاً عن الغيب، لكنّهم يطّلعون عليه بتعليم إلهى.

ثمّ يضيف: «فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً (ليحفظه من كلّ انحراف)».

هذا التعبير دليل على مقام عصمة الأنبياء، وكذلك تأكيد على علمهم بأسرار الغيب.

هذا طبعاً فى حالة كون «رَصَداً» بمعنى «المراقب» أو «المراقبين» من الملائكة الإلهيين، لكن هناك تفاسير اخرى أيضاً لهذه الجملة، من جملتها أنّ المراد ب «رصداً» هو الطرق التى رسمها للماضين، أو الذين سيأتون فى المستقبل و (جملة «مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ» إشارة إلى الحوادث السابقة و «وَمِنْ خَلْفِهِ» إشارة إلى الحوادث اللاحقة).

وقيل أحياناً إنّه إشارة إلى الحفظة من الملائكة الذين يحفظون الأنبياء من شرّ الأعداء «١».

---

(١) يجب ألّا يفوتنا أنّ «الرصد» يعنى فى الأصل المراقب الذى يكمن فى موضع ليراقب الأحداث عن كثب أى الإستعداد للترقّب وربّما كان إطلاق هذه اللفظة على الطريق لنفس هذا السبب، وإلّا فأصلها هو ما قيل أعلاه طبقاً لقول صاحب مقاييس اللغة؛ والراغب فى المفردات.

نفحات القرآن، ج٧، ص: ١٩١

لكن على أيّة حال فلا شكّ فى دلالة الآية على اطّلاع الأنبياء على أسرار الغيب عن طريق التلقين الإلهى.

أمّا فيما يتعلّق بجملة «لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا ...»، التى جاءت بعد هذه الآية، وكيفية ارتباطها بالآية التى قبلها، فللمفسّرين احتمالات كثيرة معظمها على خلاف ظاهر الآية، وتؤدّى إلى انعدام الإنسجام بين الضمائر، بل وحتّى بين الجمل فى الآية.

والذى يبدو أقرب إلى الصواب هو أنّ الضمائر فى «لِيَعْلَمَ» و «أَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ» و «أَحْصَى كُلَّ شَىْءٍ عَدَداً» عائدة كلّها إلى لفظ الجلالة «اللَّه»، وأنّ الضمير فى «أَبْلَغُوا» إمّا إشارة إلى الأنبياء أو إلى الملائكة الإلهيين المأمورين بإبلاغ الوحى، وبناءً على هذا فمفهوم الآية بمجموعها هو: «إنّ الهدف من تعليم أسرار الغيب أو مراقبة الملائكة لكى يعلم اللَّه أنّ رسله قد أبلغوا رسالات ربّهم، وأنّه تعالى قد أحاط بما لديهم وأحصى كلّ شىء عدداً».

طبعاً ليس المراد من جملة «لِيَعْلَمَ» أنّه لم يكن يعلم شيئاً ثمّ علم، بل المراد هو التحقّق العينى لعلم اللَّه والذى يُعبّر عنه بالعلم الفعلى، أى أنّ الهدف كان حصول علم اللَّه حول إبلاغ الرسالة وتجسّده خارجاً.

فالنتيجة هى أنّ علم الأنبياء عليهم السلام بأسرار الغيب عن طريق اللَّه تعالى أو الملائكة، يكون السبب وراء إكمال إبلاغ الرسالة وتحكيم اسس النبوّة (تأمّل جيّداً).

والآية الثانية وبعد نفيها لاطّلاع عامّة الناس على الغيب استثنت الأنبياء عليهم السلام، يقول تعالى: «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِى مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ».

مع أنّه لم تبد هناك إشارة صريحة فى هذه الآية إلى مسألة اطّلاع الأنبياء عليهم السلام على أسرار الغيب للوهلة الاولى، لكن نظراً لكون جملة «ولكِنَّ اللَّه ...» مشعرة بالإستدراك والإستثناء، فسيكون مفهوم الآية هو أنّه ينتخب فريقاً من الرسل ويعلّمهم من أسرار الغيب «(۱)».

---

(۱) جمهور المفسّرين اتّخذوا هذا المعنى فى تفسير الآية، لكن البعض ذكر احتمالات واهية لتلك الآية لا علاقة لها بمسألة اطّلاع الأنبياء على علم الغيب، وسبب النزول الذى ورد فى البعض من التفاسير مثل روح المعانى شاهد على ذلك التفسير المشهور أيضاً.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۹۲

صحيح أنّ بداية الآية إشارة إلى الحوادث التى ميّزت صفوف المنافقين عن فريق المؤمنين، وفضحت ما يكنّونه فى قلوبهم، لكن من الواضح أنّ شأن النزول هذا لا يحدّد المفهوم الكلّى للآية، لأنّ الكلام إنّما هو عن عدم اطّلاع عامّة الناس على الغيب، واطّلاع الأنبياء على ذلك التعليم الإلهى.

كما ويستفاد من هذه الجملة أنّ الإطّلاع على الغيب مقام رفيع يمنح للأنبياء الإلهيين فقط، وهو فى الواقع مكمّل لبرامجهم وسبب لتحقّق أهدافهم (تأمّل جيّداً).

وهنا يرد سؤالان:

۱- إنّ هذه المرتبة لا تنحصر بالأنبياء والأئمّة المعصومين عليهم السلام فحسب، بل أن بعض الصلحاء ذوى القلوب النورانية الذين بلغوا درجات سامية من الشهود، مطّلعون على زاوية من أسرار الغيب، فكيف يتلاءم هذا الشىء مع النفى المطلق لاطّلاع عامّة الناس على أسرار الغيب الواردةِ فى الآية الآنفة الذكر؟

الجواب:

نظراً لكون هذا الإطّلاع محدوداً غير ذى شأن قياساً باطّلاع الأنبياء عليهم السلام، فلم يؤخذ فى الآية بنظر الإعتبار، وبعبارة اخرى أنّ المراد هو نفى المعرفة الواسعة عن أسرار الغيب، وهو ما يصدق فى حقّ غير الأنبياء عليهم السلام.

كما يحتمل أيضاً أن يكون لهاتين الآيتين مفهوم واسع بحيث يشمل كلًا من الأنبياء وكذلك الملائكة وأصحاب الكشوف والشهود، الذين بلغوا مقاماً عالياً عن طريق المجاهدات النفسية والرياضات المشروعة وإرشادات المعصومين، لأنّهم إنّما يحصلون على معارفهم عن طريق الإرتباط بالأنبياء والأئمّة أو الملائكة، وبناءً على هذا فانّ اللَّه يضع

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۹۳

علم غيبه عند أنبيائه فقط ثمّ يستعين الآخرون بهم، أى بالضبط مثلما أنّ «مريم» مثلًا، أو امرأة إبراهيم «سارة» اطّلعتا عن طريق الملائكة الإلهيين على البعض من أسرار الغيب فيما يتعلّق بولادة عيسى أو إسحاق ويعقوب عليهم السلام.

كما ويحتمل أيضاً كون العلوم العينية على ثلاثة أقسام: قسم منها خاصّ بذاته تعالى، لم يطّلع عليها سواه حتّى الأنبياء المرسلين والملائكة المقرّبين (كالعلم بزمان قيام الساعة وأمثالها).

الثانى: العلوم الغيبية الخاصّة التى يودعها اللَّه عند المعصومين (الأنبياء والأئمّة والملائكة المقرّبين)، والقسم الثالث: العلوم التى يودعها عند فريق من الأتقياء الذين يبلغون مقام الشهود، وتزال الحجب عن قلوبهم كما ورد عن بعض أصحاب النبى الأكرم صلى الله عليه و آله وأصحاب أئمّة الهدى عليهم السلام، مثل سلمان وأبى ذرّ وميثم التمّار ورشيد الهجرى وأمثالهم، أو ما نقل فى عصرنا عن فريق من العلماء المتقدّمين أو المتأخّرين، وبالإمكان إطلاق اسم «خاصّ الخاصّ» على القسم الأوّل و «الخاصّ» على الثانى و «العام» على الثالث.

ويمكن أن تكون العبارات من قبيل «فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ» إشارة إلى نفس هذا المعنى، لأنّ لفظة «غيبه» لها دلالة على الأسرار الغيبية الخاصّة.

۲- إنّه فضلًا عمّا قیل عن الصلحاء من أرباب الکشف والشهود، فلقد سمعنا مراراً وتکراراً أنّ فریقاً من الکهنة فی العصر الجاهلی، أو المرتاضین فی عصرنا، الذین لم یکونوا من أهل الإیمان والتقوی، یخبرون أحیاناً عن أسرار الغیب أو الامور الخافیة عن أنظار الناس، ویتوقّعون اموراً تحدث بعد ذلک، ألیس هذا منافیاً لما قیل آنفاً حول تفسیر الآیات؟

لکن الإلتفات إلی نکتة واحدة یکشف الإجابة عن هذا السؤال، وهی إنّ توقّعات المرتاضین وإخبارات الکهنة الغیبیة لم تکن أبداً إخبارات یمکن الإعتماد علیها، فضلًا عن عدم خلوّها من الإشتباه بأی حال من الأحوال، فقد تصدق أحیاناً وقد تکون کاذبة أحیاناً اخری، وهناک أمثلة کثیرة جدّاً علیها، وبناءً علی هذا فلا یمکن أبداً اعتبار هذه الأخبار والمعلومات من علم الغیب، بل إنّهم یعترفون بأنفسهم أحیاناً بأنّ هذه الأخبار هی تلقین

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۹۴

الشیاطین الذین لا یصدقون القول معهم أبداً!

وبعبارة اخری أنّ هناک أشباحاً تتراءی فی افق أذهانهم بسبب ریاضتهم، فیفسّرون هذه الأشباح من عندهم، لتقع تارةً صحیحة واخری خاطئة، مثل الأحلام التی یراها الناس، والتی تکون تفاسیرهم لها صحیحة أحیاناً واخری غیر صحیحة.

هذه المعلومات والمواضیع الخاطئة والتی یخالطها الشکّ لا یمکنها أبداً أن تعدّ من علم الغیب، أو أن تخدش فی تفسیر الآیة.

اما فی الآیة الثالثة فیدور الکلام عن معرفة المسیح علیه السلام بأسرار الغیب، وإظهاره لها صراحةً کمعجزة، وقوله لمن شکّ فی دعوته: «... أَنِّی قَدْ جِئْتُکُمْ بِآیَةٍ مِنْ رَبِّکُمْ أَنِّی أَخْلُقُ لَکُمْ مِّنَ الطِّینِ کَهَیْئَةِ الطَّیْرِ فَأَنفُخُ فِیهِ فَیَکُونُ طَیْراً بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَکْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْیِ الْمَوْتَی ...». (آل عمران/ ۴۹)

ثمّ یضیف قائلًا: «وَأُنَبِّئُکُمْ بِمَا تَأْکُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِی بُیُوتِکُمْ».

وبهذا فلقد وضع مسألة خلق الطائر الحی من الطین، ومعالجة المرضی الذین یستحیل علاجهم، وإحیاء الموتی، إلی جانب الإخبار عن أسرار الغیب واعتبرها جمیعاً أدلّة علی نبوّته.

وبدیهی أنّ الطعام الذی یأکله الناس، أو الذی یدّخرونه فی بیوتهم یتعلّق بحیاتهم الشخصیة، فلیس للآخرین اطّلاع علیه عادةً، فاطّلاع أحد علی هذه الجزئیات، والحالة هذه دلیل علی اطّلاعه علی الغیب.

قال بعض المفسّرین إنّ هذین الموردین هما مجرّد مثال، ولا یمکن أن تتحدّد بهما معرفة المسیح علیه السلام أبداً، فقد کان یعلم الکثیر من أسرار الغیب.

مضافاً إلی ما قیل، فهناک العدید من آیات القرآن تعدّ مصداقاً جلیّاً لإطّلاع نبی الإسلام صلی الله علیه و آله علی بعض أحداث المستقبل، والتی تعتبر من أسرار الغیب، کالآیات الاولی

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۹۵

من سورة الروم: «غُلِبَتِ الرُّومُ* فِی أَدْنَی الْأَرْضِ وَهُمْ مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَیَغْلِبُونَ* فِی بِضْعِ سِنِینَ». (الروم/ ۲- ۴)

ومن الواضح أنّ الإخبار عن انتصار دولة مغلوبة علی أمرها فی المستقبل القریب (خلال بضع سنین) وبکلّ هذه الصراحة والثقة، لیس بالشیء الذی یمکن الإحاطة به بالطرق الإعتیادیة، ولهذا فهو مصداق بارز لعلم الغیب.

وفی موضع آخر یخاطب القرآن الکریم المسلمین «لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِینَ». (الفتح/ ۲۷)

وکان هذا الکلام فی وقت أحکم فیه المشرکون سیطرتهم علی مکّة، وقویت شوکتهم بدرجة بحیث تمکّنوا من فرض شروط صلح الحدیبیة علی النبی الأکرم صلی الله علیه و آله بحسب الظاهر، إذن فالإخبار عن النصر السریع للمسلمین علیهم بشکل یمکنهم من إزالة أکبر عقبة تعترض طریقتهم، ودخول مکّة بکل اطمئنان لم یکن سوی إخبار غیبی.

وفی موضع آخر حینما علم النبی الأکرم صلی الله علیه و آله بأنّ إحدی زوجاته قد أطلعت الاخریات سرّاً علی أمر کان أودعه عندها،

سألته قائلة: «مَنْ أَنْبأَکَ هَذَا».

قال صلى الله عليه و آله: «نَبَّأَنِیَ الْعَلِیمُ الْخَبِیرُ». (التحريم/ ٣)

وكذلك حينما أخفى فريق من المنافقين أعمالهم الشنيعة، وجاءوا بأعذار واهية لغرض عدم الإشتراك فى غزوة تبوك، قال لهم الرسول: «لَاتَعْتَذِرُوا لَنْ نُّؤْمِنَ لَکُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِکُمْ». (التوبة/ ٩۴)

كما يخبر تعالى فى موضع آخر عن حتمية هزيمة المشركين صراحةً، مع أنّهم كانوا بكامل قوّتهم، حيث يقول: «أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنْتَصِرٌ».

ويضيف على الفور: «سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ». (القمر/ ۴۴- ۴۵)

لا شكّ أنّ المسلمين كانوا قلّة قليلة حين نزول هذه الآيات والعدوّ فى أوج القدرة والغطرسة، وتوقّع مثل هذا النصر المؤزّر والسريع غير ممكن بالطرق الإعتيادية، ولكن لم يمض وقت حتّى وجّهوا ضربة قاصمة إلى العدو فى أوّل حرب طاحنة معه، أى فى معركة

نفحات القرآن، ج٧، ص: ١٩۶

(بدر) ثمّ توالت الإنتصارات الواحدة تلو الاخرى، وأصبحت كلّ الجزيرة العربية تحت راية الإسلام خلال فترة قصيرة.

ونظير هذا المعنى جاء فى قوله تعالى: «قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ* وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ». (التوبة/ ١۴- ١۵)

وورد نفس هذا المعنى فى القرآن الكريم حيث يخاطب أصحاب النبى الأكرم صلى الله عليه و آله ويقول: «وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَايُنْصَرُونَ». (آل عمران/ ١١١)

كلّ التعابير التى فى هذه الآيات تخبر بشكل قاطع عن انتصار المسلمين وهزيمة الأعداء، ذلك الإخبار الذى لم يكن يصدّق به أحد فى ذلك الزمان.

ونفس هذا المعنى ورد بقالب آخر فى سورة القصص الآية ٨۵، عندما اضطرّ الرسول صلى الله عليه و آله إلى ترك أرض مكّة المقدّسة، نتيجة للضغط الشديد الذى تعرض له من قبل المشركين، الذين كانوا بكامل قدرتهم فى ذلك الوقت حيث نزلت الآية: «إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ».

هذه البشارة القطعية فى تلك الفترة العصيبة حين كان المسلمون أضعف ما يكونون بحسب الظاهر لم تكن سوى خبر غيبى.

وفى آية اخرى حينما كان يستبشر الأعداء بانقراض ذرّية النبى، وعدم وجود من يحافظ على دينه باعتبار انحصار عقبه فى ابنته فاطمة الزهراء عليها السلام فقط، وقالوا: إنّ «محمّداً أبتر»، نزلت سورة الكوثر وبشّرت النبى الأكرم صلى الله عليه و آله بخبر حتمى بأنّنا أعطيناك خيراً كثيراً ... وأنّ عدوّك هو الأبتر الذى لا عقب له بكلّ تأكيد: «إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ... إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ».

واليوم نجد أنّ نسل ذلك العظيم قد انتشر عن طريق ابنته فاطمة الزهراء عليها السلام فى كلّ أرجاء المعمورة، وظهر منهم الكثير من القادة الذين وظّفوا أنفسهم لخدمة الإسلام طيلة عمرهم.

فى حين أنّ من كان يؤذى النبى ويعيره صلى الله عليه و آله بذلك وهم (مشركو قريش)، قد اضمّحلوا ولم يبق لهم اليوم أثر يذكر، ولو بقى شىء على سبيل الفرض فهو غير معروف. وبهذا فقد

نفحات القرآن، ج٧، ص: ١٩٧

أمسى كلّ واحد منهم أبتراً، والنبى الأكرم صلى الله عليه و آله ذا نسل عظيم.

ونلاحظ فى قوله تعالى ملاحظة اخرى تعدّ من إخبارات القرآن الغيبية، حيث قال:

«وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَاتَعْلَمُونَ». (النحل/ ٨)

مع أنّ الكثير من المفسّرين يعتبرون جملة «وَيَخْلُقُ مَا لَاتَعْلَمُونَ» إشارة إلى الحيوانات التى ستخلق مستقبلًا، أو التى ستؤلف عند

الإنسان، أو كلّ الأشياء الضرورية التى سيخلقها اللَّه فى المستقبل سواء الحيوانات أم غيرها، ولكن إدراك مفهوم هذه الجملة بالنسبة لنا نحن الذين نعيش فى عصر التكنلوجيا المتطورة يعد أمراً يسيراً- كما أشار إلى ذلك بعض المفسّرين المتأخّرين كالمراغى والسيّد قطب فى تفسير «فى ظلال القرآن»، بل هو إخبار القرآن عن عصرنا، ولا منافاة بين عبارة (يخلق) مع اختراعها من قبل الإنسان، إذ إنّ عمل الإنسان ليس سوى تركيب المواد التى خلقها اللَّه تعالى، هذا أوّلًا.

وثانياً: إنّ إبتكار الإنسان فى صنع هذه الوسائل ناتج من الإستعداد الذى وهبه اللَّه تعالى له! كلّ هذه الآيات تبيّن أنّ اللَّه قد وضع بعضاً من العلم الغيبى تحت تصرّف نبيّه صلى الله عليه و آله.

الثمرة من مجموع آيات علم الغيب:

أوضحنا إلى الآن طائفتين من الآيات التى تتحدّث عن علم الغيب، طائفة تنفى علم الغيب عن الأنبياء عليهم السلام على الإطلاق والاخرى تُثبِتُه. وحينما نضعهما إلى جانب بعضهما البعض، ونجمع بينهما ندرك مفهومهما الأصلى النهائى (وهذا ما يمكن أداؤه عن طريق التفسير الموضوعى بسهولة) وهو الطريق الأوّل للجمع بينهما.

أجل، يستفاد من مجموع هذه الآيات بوضوح أنّ علم الغيب بإطلاقه وبلا قيد أو شرط مختصّ ب «الذات» المقدّسة فحسب.

هو المحيط بكلّ عالم الغيب والشهود، وهذا العلم قائم بذاته المقدّسة غير منفكّ عنها أبداً.

نفحات القرآن، ج٧، ص: ١٩٨

أمّا الآخرون (كالأنبياء والأئمّة المعصومين والملائكة) فالطريق الوحيد لاطّلاعهم على علم الغيب هو الالهام الإلهى فحسب.

وبعبارة اخرى أنّ أشهر طريق للجمع بين هذه الآيات هو القول: إنّ المراد باختصاص علم الغيب باللَّه تعالى هو «العلم الذاتى الإستقلالى»، ولذا فلا اطّلاع لأحد غيره على أسرار الغيب مستقلًا، بل لابدّ أن يكون منه تعالى وعن طريق تعليمه ولطفه وعنايته، وهذا فى الواقع له «ميزة غير استقلالية».

الأدلّة على الجمع بين الآيات المذكورة كثيرة يمكن الإحاطة بها بالتحقيق والتدقيق فيها ثانية.

كما أنّ الأحاديث الشريفة أيضاً تشير إشارة لطيفة إلى هذا الأمر:

منها: ما ورد فى نهج البلاغة أنّ عليّاً عليه السلام خلال حديثه للإخبار عن وقائع المستقبل (وتوقّعه لهجوم المغول على الدول الإسلامية) قال: كأنّى أراهم قوماً كأنّ وجوههم المجان المطرّقة ... فقال أحد أصحابه: لقد أعطيت ياأمير المؤمنين علم الغيب.

فابتسم عليه السلام وقال: ليس هو بعلم غيب، وإنّما هو تعلّم من ذى علم (أى من النبى الأكرم صلى الله عليه و آله) «١».

الطريق الثانى: للجمع بين هذين القسمين من الآيات هو القول: إنّ علم الغيب الذى يختصّ باللَّه هو الإطّلاع على اللوح المحفوظ، الذى يتحقّق كلّ ما فيه بلا زيادة ولا نقيصة لا محالة، (وهو فى الواقع علم بالعلل التامّة للأشياء التى لا تنفكّ أبداً عن معلولاتها).

وأمّا الأنبياء والأئمّة المعصومون عليهم السلام فلهم اطّلاع على لوح المحو والإثبات القابل للتبديل والتغيير، لأنّه علم ب «العلل الناقصة» لا «العلل التامّة».

وبعبارة اخرى: إنّ من المحتمل أن تتواجد هناك موانع تعترضها وتغيّرها، أو تغيب شروط تكاملها، كما جاء فى حديث عن الإمام على بن الحسين عليه السلام أنّه قال: «لولا آية فى كتاب اللَّه لحدثتكم بما كان وما يكون إلى يوم القيامة! فقلت له: أيّة آية؟ فقال: قول اللَّه:

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٢٨.

نفحات القرآن، ج٧، ص: ١٩٩

يمحو اللّه ما يشاء ويثبت وعنده امّ الكتاب» (أي اللوح المحفوظ)» «١».

الطريق الثالث: للجمع بين هذه الآيات هو القول بانقسام أسرار الغيب إلى قسمين:

أحدهما يختصّ به تعالى ولا يعرفه أحد سواه، والآخر هو الذى يعلّمه لأنبيائه وأوليائه، كما جاء فى نهج البلاغة ذيل الخطبة المتقدّمة أنّه عليه السلام قال: «وَانّما عِلْمُ الغَيبِ عِلْمُ الساعَةِ وَما عَدَّدَهُ اللّه سُبْحانَهُ بِقَولِهِ: إنَّ اللّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزلُ الْغَيث (آخر آية من سورة لقمان)، (لا- اطّلاع لأحد على كمّه وكيفه وجزئياته وإن كان أصل نزوله قابلًا للإحتمال) وَيَعْلَمُ ما فِى الأرْحام (لم يكن اطّلاعه على جنسيته وهل أنّه ذكر أو انثى فحسب، بل على كلّ القابليات والمميّزات التى تكمن فى جسمه وروحه) وَما تَدْرِى نَفْسٌ ماذا تَكْسِبُ غَدَاً وَما تَدرى نَفْسٌ بِايِّ ارضٍ تَمُوتُ» (المراد هو العلم التفصيلى بهذه الامور).

ثمّ يضيف فى خاتمة هذا الكلام: «فيعلم اللّه سبحانه ما فى الأرحام من ذكر أو انثى وقبيح أو جميل، وسخى أو بخيل، وشقى أو سعيد، ومن يكون فى النار حطباً، أو فى الجنان للنبيين مرافقاً، فهذا علم الغيب الذى لا يعلمه أحد إلّااللّه، وما سوى ذلك فعلم عَلَّمه اللّه نبيّه فعلَّمنيه، ودعا لى بأن يَعِيَهُ صدرى، وتضطَمُّ عليه جوانحى» «٢».

وعلى هذا فالذى يختصّ بالذات المقدّسة هو العلم بكلّ خصوصيات وتفاصيل الأجنّة الروحية والبدنية.

نفس هذا الكلام يمكن تطبيقه على نزول المطر وأعمال الإنسان أو مكان موته والذى لا يعلم جزئياته إلّااللّه تعالى.

الطريق الرابع للجمع بين هذه الآيات هو التفريق بين «العلم الفعلى» و «العلم الشأنى والإستعدادى»، إذ لا- يخفى شيء عن علمه اللامحدود، فى حين أنّ الكثير من أسرار الغيب يمكن أن تغيب عن الأنبياء والأولياء فعلًا، لكن اللّه يعلمهم ذلك متى ما أرادوا (طبعاً هذه

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٥١٢، ح ١٧٠.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة ١٢٨.

نفحات القرآن، ج٧، ص: ٢٠٠

نفحات القرآن ج٧ ٢٤٩

الإرادة لا تتحقّق إلّابإذنه تعالى ورضاه (تأمّل جيّداً).

هذا المطلب يشابه حالة كون كلّ الأسرار العسكرية لدولة ما مدوّنة فى كتاب ضخم محفوظ عند شخص أو أشخاص منتخبين من قبل الدولة بحيث يمكنهم الإطّلاع عليه بإذن من القائد العام للقوات المسلحة، فالقائد هنا له إحاطة تامّة بهذا الكتاب كما ويمكن للآخرين أيضاً الإطّلاع عليه متى شاؤا (على فرض كون مراجعتهم للكتاب مرهونة بإذن القائد وإجازته طبعاً).

الدليل على هذا الكلام هو الروايات التى جمعها المرحوم الكلينى فى كتاب الكافى فى فصل تحت عنوان «إنّ الأئمّة إذا شاؤا أن يعلموا علموا» «١».

نستنتج من مجموع ما قيل أنّ للأنبياء والأولياء اطّلاعاً على عالم الغيب بلا شكّ، كما ويمكن استخلاص طرق الجمع بين الروايات المرتبطة بعلم الغيب بأربعة:

١- العلم الذاتى المستقلّ خاصّ باللّه، وعلم الأنبياء والأولياء يرتبط به تبعاً.

٢- العلم التفصيلى هو من شأنه تعالى، والعلم الإجمالى من شأن الأولياء والأنبياء.

٣- العلم باللوح المحفوظ خاصّ باللّه، والعلم بلوح المحو والإثبات من شأن الأنبياء والأولياء عليهم السلام.

٤- العلم الفعلى خاصّ باللّه، والعلم بالقوّة من شأن الأنبياء والأولياء.

روايات علم الغيب:

إنّ لمسألة «علم الغيب» بالنسبة إلى الأنبياء والأولياء عليهم السلام بحثاً موسّعاً فى الروايات الإسلامية أيضاً، وقد ذكرت كلّ الفرق الإسلامية نماذج كثيرة عن علم الغيب فيما يرتبط

---

(۱) اصول الكافى، ج ۱، ص ۲۵۸.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۰۱

بالنبى الأكرم صلى الله عليه و آله، أو أئمّتهم وقادتهم، ونسبة مسألة علم الغيب إلى الشيعة من قبل بعض المغفّلين، أو القول بأنّهم يعتبرون أئمّة أهل البيت عليهم السلام شركاء مع اللَّه فى هذه الصفة، هو اشتباه عظيم لا يمكن جبرانه، لأنّه:

أوّلًا: لا يرى أى أحدٍ من علماء الشيعة أى إنسان لا نبى الإسلام صلى الله عليه و آله ولا الأئمّة عليهم السلام نظراء لله تعالى بأيّة صفة أبداً، واعتقادهم بعلمهم بالغيب إنّما هو من باب «تعلّم من ذى علم» (الأئمّة من النبى والنبى من اللَّه العظيم).

وبعبارة اخرى، كما أنّ كلّ ما لدينا هو من عند اللَّه وانّنا محتاجون إليه ومتعلّقون به فى كافّة شؤون حياتنا، فكذلك علم غيب النبى الأكرم صلى الله عليه و آله والأئمّة عليهم السلام إنّما هو من عند اللَّه ومرتبط بعلمه.

ثانياً: اطّلاع الأنبياء والأولياء عليهم السلام على الغيب مسألة واردة بشكل كبير فى الروايات أيضاً، فضلًا عن الآيات القرآنية، وحسبنا ما فى كتب أهل السنّة من أنّ لبعض الصحابة وغيرهم فضلًا عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، اطّلاع على كلّ أسرار الغيب أو جلّها!

ويكفى هنا ذكر خلاصة البحث التحقيقى الذى ذكره العلّامة الأمينى فى كتابه «الغدير» الجزء ۵، (بالإضافة إلى التطرّق لبعض الروايات الاخرى إكمالًا للبحث):

۱- جاء فى الكثير من المصادر المعروفة لأهل السنّة أنّ «حذيفة» قال: «إنّ النبى صلى الله عليه و آله علّمنى علم ما كان وما يكون إلى يوم القيامة» «۱».

۲- وجاء فى حديث آخر عن «حذيفة» أيضاً أنّه قال: «واللَّه انّى لأعلم الناس بكلّ فتنة هى كائنة فيما بينى وبين الساعة» «۲».

۳- نقرأ فى حديث آخر فى صحيح مسلم أنّ أبا زيد أى «عمرو بن أخطب» قال: صلّى النبى الأكرم صلى الله عليه و آله صلاة الصبح، ثمّ ارتقى المنبر وخطب خطبة دامت إلى الظهر ثمّ صلّى الظهر وصعد المنبر إلى صلاة العصر ثمّ نزل وصلّى العصر وصعد المنبر ثانية وخطب إلى

---

(۱) صحيح مسلم (كتاب الفتن باب إخبار النبى الأكرم صلى الله عليه و آله فيما يكون إلى قيام الساعة)، مسند أحمد، ج ۵، ص ۳۸۶ وكتب اخرى.

(۲) مسند أحمد، ج ۵، ص ۳۸۸.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۰۲

غروب الشمس، «فأخبرنا بما كان وبما هو كائن فأعلمنا أحفظنا» «۱».

ثمّ يذكر أحاديث أخرى متعرّضة لمسائل الغيب فى بعض الأحيان عن بعض من الصحابة وأمثالهم، من جملتها قوله: وذكر الخطيب البغدادى فى تأريخه عن أبى الحسن المالكى قال: كنت أصحب- محمّد بن إسماعيل- سنين كثيرة، ورأيت له من كرامات اللَّه تعالى ما يكثر ذكره، إنّه قال لى قبل وفاته بثمانية أيّام، إنّى أموت يوم الخميس المغرب فادفنّى يوم الجمعة قبل الصلاة ... قال أبو الحسن: فنسيته إلى يوم الجمعة فلقينى من خبّرنى بموته، فخرجت لأحضر جنازته فوجدت الناس راجعين، فسألتهم لِمَ رجعوا فذكروا أنّه يدفن بعد الصلاة، فبادرت ولم ألتفت إلى قولهم فوجدت الجنازة قد اخرجت للدفن قبل الصلاة!

ثمّ يضيف العلّامة الأمينى رحمه الله: توجد فى طى كتب الحفّاظ ومعاجم أعلام القوم قضايا جمّة فى اناس كثيرين، عدّوها لهم فضلًا وكرامة تنبىء عن علمهم بالغيب وبما تخفى الصدور ولا يراها أحد منهم شركاً وهو ما يدعو للعجب «۲».

كما نشاهد مسائل علم الغيب فى روايات أهل البيت عليهم السلام بكثافة أيضاً، من جملتها الباب الذى عقده المرحوم العلّامة المجلسى فى «بحار الأنوار» الجزء ۲۶ حول هذا الموضوع، وجاء بالعشرات من الروايات حول اطّلاع الأئمّة المعصومين عليهم السلام على علم الغيب، من جملتها الرواية التى وردت بتعابير شتّى، ومن مختلف الطرق من أنّ الإمام الصادق عليه السلام قال: «أترى من جعله اللَّه حجّة على خلقه يخفى عليه شىء من أمورهم؟».

ونقرأ عبارة اخرى لهذا الإمام نفسه عليه السلام: «أنّ اللَّه أحكم وأكرم وأجلّ وأعلم من أن يكون احتجّ على عباده بحجّة ثمّ يغيّب عنه شيئاً من امورهم» «۳».

كما نجد فى نهج البلاغة أيضاً على العديد من الجمل التى تخبر عن الإطّلاع الواسع

---

(۱) صحيح مسلم، ج ۴، ص ۲۲۱۷ (باب إخبار النبى فيما يكون إلى قيام الساعة من كتاب الفتن) يتبيّن من هذا الحديث أنّه صلى الله عليه و آله كان مشغولًا ببيان إخبار الغيب لأصحابه يوماً بأكمله من طلوع الفجر إلى غروب الشمس.

(۲) الغدير، ج ۵، ص ۵۹- ۶۲ (باختصار) وورد الحديث الأخير فى تاريخ بغداد، ج ۲، ص ۴۹.

(۳) بحار الأنوار، ج ۱۶، ص ۱۳۷- ۱۵۴.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۰۳

لعلى عليه السلام على علم الغيب، لكن وكما قال هو بنفسه فى الخطبة ۱۲۸ فهذه ليست علم غيب (إستقلالى ذاتى)، بل هى تعلّم من ذى علم (أى نبى الإسلام صلى الله عليه و آله الذى تعلّم هو بدوره من اللَّه تعالى).

هذه الإخبارات الغيبية جاءت فى عدّة خطب من جملتها الخطبة ۱۳ حول أحداث البصرة القادمة.

وفى الخطبة ۴۷ حول مستقبل الكوفة.

وفى الخطبة ۵۷ حول بعض سلاطين بنى اميّة.

وفى الخطبة ۵۹ حول عدد قتلى الخوارج وأصحابه ومريديه فى معركة النهروان وذلك قبل نشوبها.

وفى الخطبة ۱۱۶ حول ظهور الحجّاج وجناياته العجيبة البشعة فى المستقبل.

وفى الخطبة ۱۲۸ حول الفتن العظيمة التى ستقع فى البصرة (فتنة صاحب الزنج أو الأتراك والمغول).

وفى الخطبة ۱۳۸ حول أحداث الشام فى المستقبل.

وفى الخطبة ۱۵۸ حول الجرائم الفجيعة لبنى اميّة.

وفى الحكمة ۳۶۹ يتعرّض لحوادث آخر الزمان.

واللطيف هنا هو اتّكاؤه فى الكثير من هذه الموارد على الجزئيات، وعدم اقتناعه أبداً بذكر الكليّات التى ربّما تخطر على ذهن المتأمّل الفطن غير المعصوم أيضاً، ويتّضح جيّداً أنّ كلّ هذه الأخبار نابعة من الإطّلاع على علم الغيب.

ونذكر هنا ما جاء فى الخطبة ۵۹ حول خوارج النهروان كمثال على ذلك، قال:

«مصارعهم دون النطفة! واللَّه لا يفلت منهم عشرة ولا يهلك منكم عشرة»!.

وفى الخطبة ۶۰ حينما قالوا لعلى عليه السلام، لقد اضمحلّ الخوارج وانقرضوا، قال: كلّا! واللَّه إنّهم نُطفٌ فى أصلاب الرجال وقرارات النساء، كلّما نَجَمَ منهم قرنٌ قطع، حتّى يكون آخرهم لصوصاً سلابين!

فأشار عليه السلام هنا إلى مسألة إخماد نار الخوارج خلال مختلف الأنظمة وعاقبة أمرهم

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۰۴

أيضاً، وعلى حدّ قول ابن أبى الحديد «وهكذا وقع وصحّ إخباره عليه السلام أيضاً أنّه سيكون آخرهم لصوصاً سلّابين، فانّ دعوة الخوارج اضمحلّت، ورجالها فنيت، حتّى أفضى الأمر إلى أن صار خَلَفَهُم قطّاع طرق، متظاهرين بالفسوق والفساد فى الأرض».

ثمّ تعرّض بعد ذلك لمقاطع مختلفة من تأريخهم بالتفصيل، وخروج بعضهم فى أيّام الخلفاء والقضاء عليهم «۱».

وزبدة الكلام هى أنّ مسألة العلم بأسرار الغيب سواء فيما يتعلّق بالماضى أو المستقبل أو حتّى الامور الخافية عن الأنظار فى الوقت الحاضر، ليست بذلك الشىء الذى يمكن إنكاره من وجهة نظر القرآن، والأحاديث الإسلامية وتواريخ الأنبياء والأولياء عليهم السلام.

وهذه المسألة من الوضوح بحيث إنّهم عدّوا اشتمال القرآن على الأخبار الغيبية أحد وجوه إعجازه، وقد اشير فى كتب إعجاز القرآن إلى تلك الموارد على الأعمّ الأغلب، كما تعرّضنا نحن أيضاً فى التفسير الأمثل إلى الموارد ذات العلاقة بهذا القسم فى ذيل كلّ آية، ألم يكن القرآن بمثابة تعاليم إلهيّة لنبى الإسلام صلى الله عليه و آله؟ فما هو الفرق بين تعليمه عن طريق القرآن أو غيره؟!

حدود علم الغيب وكيفيته:

لا كلام فى مسألة اطّلاع الأنبياء والأئمّة المعصومين عليهم السلام على علم الغيب عن طريق التعليم الإلهى، وقد تقدّمت أدلّتها مفصّلة فى الأبحاث السابقة.

لكنّ هناك كلاماً مطوّلًا حول كيفية هذا العلم ومساحته، وهذه المسألة تعدّ من أعقد المسائل التى تواجه الباحث فى مثل هذه الأبحاث، وقد وردت بحقّها أخبار متفاوتة، كما وتلاحظ هنالك آراء متنوّعة من قبل العلماء أيضاً، ومجموع هذه الإحتمالات الأساسية فى هذه المسألة كالتالى:

۱- إنّهم يرون كلّ شىء «بالفعل» باستثناء القسم الخاصّ بالذات المقدّسة، كالعلوم

---

(۱) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ۵، ص ۷۳.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۰۵

الخمسة الواردة فى آخر سورة لقمان والتى تمّت الإشارة إليها سابقاً، وكالعلم بكنه ذات البارى جلّت قدرته وكنه أسمائه وصفاته.

الدليل على هذا الكلام هو الروايات المتظافرة التى تقول صراحة: إنّ للأئمّة «علم ما يكون وما هو كائن حتّى تقوم الساعة»، ومن البديهى أنّ للنبى ذلك العلم بطريق أولى.

المرحوم الكلينى وفى اصول الكافى ذكر باباً تحت عنوان: «إنّ الأئمّة عليهم السلام يعلمون علم ما كان وما يكون وأنّه لا يخفى عليهم شىء» «۱».

۲- إنّهم يعلمون كلّ هذه الامور لكن «بالقوّة» لا «بالفعل»، أى أنّهم كلّما شاؤا أن يعلموا شيئاً من أسرار الغيب ألهمهم اللَّه به، أو أنّهم يمتلكون قواعد واصول يستندون عليها للإطّلاع على كلّ أسرار الغيب، أو أنّ معهم كتباً يطّلعون على أسرار الغيب من خلال التأمّل فيها، أو أنّهم يعلمون بهذه الأسرار كلّما شاء اللَّه ذلك، أى كلّما منحهم حالة البسط اصطلاحاً، فى حين أنّ هذه العلوم تختفى عند عودة المشيئة وحصول حالة القبض كما يصطلح على ذلك.

الدليل على هذا القول (فى الحالة الاولى) هو الروايات القائلة: إنّ الأئمّة والقادة المعصومين إذا أرادوا أن يعلموا شيئاً علموه، وقد عقد المرحوم الكلينى فى اصول الكافى باباً حول هذا الموضوع تحت عنوان: «إنّ الأئمّة إذا شاؤا أن يعلموا علموا» «۲».

هذا البيان يحلّ الكثير من المشاكل المتعلّقة بعلم الأنبياء والأئمّة أيضاً، من جملتها أنّه لماذا شرب الإمام الحسن عليه السلام مثلًا من ماء الجرّة المسموم؟ وتناول الإمام الثامن عليه السلام العنب أو الرمّان المسموم؟ لماذا انتخبوا فلاناً المناسب للقضاء أو القيادة؟ ولماذا كان

يعقوب قلقاً إلى ذلك الحدّ على إبنه؟ مع أنّ ابنه كان يتدرّج فى المناصب الحسّاسة، ثمّ استبدل الفراق إلى الوصال فى خاتمة المطاف، لماذا ...، ولماذا ...؟

---

(۱) أصول الكافى، ج ۱، ص ۲۵ (ذكر المرحوم الكلينى فى هذا الباب ست روايات) كما أنّ المرحوم العلّامة المجلسى قد تعرّض لشرح هذه الروايات فى مرآة العقول، ج ۳، من ص ۱۲۹- ۱۳۴.

(۲) المصدر السابق، ص ۲۵۸ (ذكرت فى هذا الباب ثلاث روايات بنفس هذا المضمون) كما أشار إليها المرحوم العلّامة المجلسى فى مرآة العقول، ج ۳، ص ۱۱۸.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۰۶

يمكن القول أنّهم وفى كلّ هذه الموارد لو شاؤا أن يعلموا لعلموا، لكنّهم كانوا يعلمون أنّ اللَّه لم يجز لهم الإطّلاع إمّا اختباراً أو لمصالح اخرى.

و يمكن توضيح هذه المسألة بذكر هذا المثال: لو أعطى أحد رسالة حاوية على أسماء أشخاص أو مناصبهم أو على حقائق سرّية اخرى، لشخص آخر فبإمكان ذلك الشخص الإطّلاع على هذه الحقائق بمجرّد فتح الرسالة، لكن حيث إنّها لم تفتح بعد فليس له اطّلاع على محتواها، كما أنّ الشخص الرئيسى الذى أعطاه الرسالة كان قد خوّله فتح الرسالة متى شاء.

۳- المراد من اطّلاع المعصومين على علم الغيب هو الإطّلاع على كلّ المسائل ذات العلاقة بهداية البشرية بصورة مباشرة أو غير مباشرة، وبناءً على هذا فهم مطّلعون بالفعل على كلّ المعارف والأحكام، وتواريخ الأنبياء ومسائل الخلق والحوادث السابقة واللاحقة إلى كلّ ما يرتبط بهداية الناس، لكن ليس من الضرورى القول بما هو خارج عن نطاق هذه الدائرة فى حقّهم.

الروايات المتعدّدة التى أشرنا إليها والقائلة: «إنّ اللَّه أحكم وأكرم وأجلّ وأعظم وأعدل من أن يحتجّ بحجّة (للخلق) ثمّ يغيّب عنه شيئاً من امورهم» «۱».

ونقرأ فى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «من زعم أنّ اللَّه يحتجّ بعبد فى بلاده (بين خلقه) ثمّ يَستُر عنه جميع ما يحتاج إليه فقد افترى على اللَّه!» «۲».

هذه كلّها إشارة إلى العلوم الضرورية لهداية الخلق.

۴- إنّهم مطّلعون على كلّ أسرار الغيب، لكنّ اطّلاعهم هذا مبتنٍ على اصول كلّية، فهم يعلمون بكلّيات كافّة الامور، فى حين أنّ العلم بكلّيات العالم وجزئياته كلّها خاصة بذاته تعالى.

هذا الكلام فى الواقع يشبه ما ورد فى روايات متعدّدة من أنّ عليّاً عليه السلام قال: «إنّ

---

(۱) بحار الأنوار، ج ۲۶، ص ۱۳۸، ح ۵ (ورد هذا الحديث قبل عدّة صفحات بتفاوت ضئيل).

(۲) المصدر السابق، ص ۱۳۹، ح ۸.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۰۷

رسول‌اللَّه صلى الله عليه و آله علّمنى الف باب من الحلال والحرام وممّا كان وممّا يكون إلى يوم القيامة، كلّ باب منها يفتح الف باب فذلك الف الف باب» «۱».

العدد (الف) فى هذا الحديث سواء كان للعدد أو كناية عن الكثرة فهو دليل على الكثرة، التى تفوق الحدّ لأبواب العلم التى علّمه إيّاها النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، وكذلك إشارة إلى اشتمال هذه الأبواب على سلسلة من الاصول الكلّية التى تطلّ عليها مئات بل آلاف الأبواب الاخرى.

والملاحظة الجديرة بالإعتبار هى أنّ الحديث، (إذا شاؤا أن يعلموا علموا) يمكن أن يكون إشارة إلى نفس هذا المعنى وهو أنّهم إذا شاؤا أن يعلموا بعضاً من الجزئيات، لراجعوا الاصول الكلّية التى علّمهم إيّاها اللَّه تعالى أو النبى الأكرم صلى الله عليه و آله واطّلعوا عليها.

۵- إنّ علمهم يكون بكلّ حقائق العالم لكن من خلال «لوح المحو والإثبات»، فى حين علم اللَّه بكلّ الحقائق هو من خلال «اللوح المحفوظ».

بيان ذلك: حوادث الكون لها مرحلتان: المرحلة القطعيّة التى لا سبيل لأى‌تغيير إليها، أى أنّ حادثة ما بكلّ أسبابها وعللها حاضرة عند العالم، وحيث إنّه مطّلع على كلّ أسبابها وعللها وموانعها وعلاقتها بالماضى والمستقبل، فهو يعلمها قطعاً ويخبر عنها بجدّية، وقد تمّ التعبير عن هذه المرحلة على لسان الآيات والروايات ب «امّ الكتاب» أو «اللوح المحفوظ».

والمرحلة الاخرى هى «المرحلة غير القطعية» أو بعبارة اخرى «المرحلة المشروطة»، فالشخص العالم مطّلع على علل الحوادث فى هذه المرحلة، لكن من الممكن عدم وضوح كلّ شروطها وموانعها لديه، ولذا لا يمكنه البتّ فى وقوع الحوادث إنّما يمكنه ذلك مشروطاً، وهذا ما تمّ التعبير عنه على لسان الآيات والروايات ب «لوح المحو والإثبات».

الاختلاف بين علم اللَّه وعلوم الأنبياء والأولياء هو نفس الاختلاف بين هاتين

---

(۱) المرحوم العلّامة المجلسى عقد فى المجلّد الأربعين باباً تحت نفس هذا العنوان (إنّ النبى صلى الله عليه و آله علّمه الف باب) وذكر ۸۲ حديثاً حول هذا الموضوع والذى ذكرناه أعلاه هو الحديث السادس (بحار الأنوار، ج ۴۰، ص ۱۳۰).

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۰۸

المرحلتين، أى أنّه وفضلًا عن كون أحدهما ذاتياً ومستقلًا دون الآخر فانّ لأحدهما صفة القطع والبتّ دون صاحبه.

۶- آخر كلام ونظرية يمكن بيانها فيما يتعلّق بكيفية اطّلاع الأنبياء والأولياء عليهم السلام على أسرار الغيب، هو القول باطّلاعهم عليها إجمالًا، لكن ما هى مساحة ذلك ياترى؟ فلا نعلم ذلك بالدقّة، وما نعلمه فقط هو أنّ اللَّه العالِم يعلّمهم كلّما وجد فى ذلك مصلحة وضرورة، لكن كيف؟ وكم؟ فهذا ما لا نعلمه.

كانت هذه هى الطرق الستّة التى يمكن ذكرها للإجابة عن مسألة كيفية اطّلاع الأنبياء والأولياء عليهم السلام على أسرار الغيب وحدود ذلك.

ونظراً إلى أنّ البحث حول كلّ الجزئيات المرتبطة بعلم الغيب قد أفرد فى كتاب مستقلّ، فضلًا عن أنّ هدفنا الرئيس من عرض هذه المباحث شىء آخر (وهو رفع التضادّ الذى ربّما يتوهّمه بعض المغفّلين بين الآيات المرتبطة بعلم الغيب) فسنوكل مزيداً من الشرح والتفصيل حول هذا الموضوع، واختيار النظرية الأقوى من بين هذه النظريات إلى بحثه الخاصّ به.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۰۹

إثبات علم القادة الإلهيين عن طريق العقل

اشارة

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۱۱

إثبات علم القادة الإلهيين عن طريق العقل

كان الكلام لحدّ الآن عن الآيات والروايات التى أثبتت مسألة إمكان علم الغيب للأنبياء والأئمّة المعصومين عليهم السلام، لكن علاوة

على ذلك فهناك طريق آخر أيضاً لإثبات هـذا المعنى وهو عن طريق العقل، حيث إنّ هؤلاء العظماء لا يستطيعون أداء وظيفتهم على أتمّ وجه فى حالة عدم اطّلاعهم على أسرار الغيب أو بعض منها.

بيان ذلك: نحن نعلم أنّ دائرة وظيفتهم واسعة جدّاً، سواء من الناحية الزمانية أو المكانية، خصوصاً فيما يتعلّق بمسألة رسالة نبى الإسلام صلى الله عليه و آله وإمامة الأئمّة عليهم السلام إذ هى «عالمية» و «خالدة»، أى أنّها شاملة لكلّ بقاع العالم ومحيطة بكلّ الأزمنة إلى قيام الساعة.

فهل يمكن لمحافظ مدينة ما مثلًا أن يؤدّى دوره فى تلك المحافظة دون الوقوف على أوضاع أهاليها، وإمكانات المنطقة وامتيازاتهم ومحرومياتهم؟ من البديهى أنّه غير قادر على ذلك.

ومع هذا فكيف يمكن لرسول مرسل إلى البشرية جمعاء، وإلى يوم القيامة تبليغ رسالته دون الإطّلاع على وضع العالم إلى آخر يوم من مهمّته؟!

بديهى أنّهم لا- يتمكّنون من الإحاطة بكلّ الأعصار والقرون، أو الإطّلاع على الأقوام والطوائف عن طريق العلوم الإعتيادية، إذن فلا سبيل لهم إلى ذلك سوى علم الغيب (بالتعليم الإلهى).

علاوة على ذلك فمساحة دائرة مسؤوليتهم لا تنحصر بالظواهر فحسب إنّما تمتدّ لتشمل ظاهر المجتمع، وباطنه وجوهر الإنسان ومظهره أيضاً، واتّساع المسؤولية هذه يستلزم بدوره الإطّلاع على أسرار أفراد المجتمع الباطنية أيضاً، وهذا هو نفس ذلك الذى ورد فى

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۱۲

روايات متعدّدة بشكل استدلال عقلى، لا حكم تعبّدى (تأمّل جيّداً).

يقول الإمام الصادق عليه السلام- على سبيل المثال- لأحد الرواة باسم «عبدالعزيز الصائغ» فى حديث أشرنا إليه سابقاً: «أترى أنّ اللّه استرعى راعياً (على عباده) واستخلف خليفة عليهم يحجب عنه شيئاً من امورهم» «۱»؟!

كما ورد نفس هذا المعنى بتعبير أوضح فى حديث إبراهيم بن عمر أنّه قال، قال الإمام الصادق عليه السلام: «من زعم أنّ اللّه يحتجّ بعبد فى بلاده ثمّ يستر عنه جميع ما يحتاج إليه فقد افترى على اللّه» «۲».

العلوم الأخرى للأنبياء فى القرآن المجيد:

اشارة

يستفاد بوضوح من آيات قرآنية مختلفة أنّ لبعض الأنبياء الإلهيين فضلًا عن العلوم ذات العلاقة بهداية الخلق وتربيتهم والحفاظ على نظام المجتمع البشرى وبلوغ الأهداف النهائية للخلق، علوماً أخرى أيضاً، من جملتها الموارد أدناه:

۱- تعلّم موسى من الخضر

ورد فى سورة الكهف ۲۳ آية تمّ من خلالها بيان قصّة موسى عليه السلام بعبارات لطيفة جدّاً وموزونة، وتعلّمه من عبد للّهلم يذكر القرآن إسمه لكنّه فى الحقيقة هو «الخضر» كما هو المتعارف (الكهف/ ۶۰- ۸۲).

هذه الحادثة تبيّن بوضوح أنّ موسى عليه السلام قد ذهب وراء ذلك المعلّم الإلهى طبقاً للعنوان الذى كان لديه، ليستفيد من العلوم التى تعلّمها من اللّه، ولذلك فحينما وصل إليه بعد جُهدٍ جهيد قال: «هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً». (الكهف/ ۶۶)

---

(۱) بصائر الدرجات طبقاً لما نقله صاحب بحار الأنوار، ج ۲۶، ص ۱۳۷، ح ۲.

(٢) المصدر السابق، ص ١٣٩، الرواية الثامنة.

نفحات القرآن، ج٧، ص: ٢١٣

فوافق الخضر على ذلك ورافقه موسى عليه السلام بدوره، ثمّ إنّه واجه ثلاث حوادث مؤلمة وغير مألوفة بحسب الظاهر (وذلك لعدم إحاطته بها)، الاولى خرق السفينة التى تعود إلى فريق من الطبقة المسحوقة، والتى كانت تعدّ مصدراً لمعيشتهم، الثانية قتل الشاب، والثالثة إقامة الجدار الذى يريد أن ينقضّ، مع عدم وجود أى دليل لها ظاهراً.

وفى كلّ مرّة كان يتصاعد اعتراض موسى عليه السلام وذلك لتعرّض أحكام شرعية مهمّة فى هذه الحوادث الثلاث لخطر الزوال والإضمحلال، ففى أوّل حادثة تمّ التعدى على حرمة أموال الناس من قبل الخضر، وفى الثانية أُنتهكت حرمة حياة الناس، وفى الثالثة صدر منه تصرّف غير مسؤول بحسب الظاهر، وذلك ببنائه للجدار الذى كان مشرفاً على السقوط بلا أخذ أجر عليه أو دليل على لزوم إعادة بنائه.

وأخيراً بَيّنَ له الخضر أسرار هذه الامور الغامضة ليقف على فلسفتها وحكمتها، وتبين أنّه لو لم يخرق السفينة لأخذها ملك غاصب ولتدهورت أحوال أصحابها، ولو لم يُقتل ذلك الشاب المرتدّ لاحتمل أن يُضِّلّ أبويه المؤمنين، وأنّه كان هناك كنز خفى تحت ذلك الجدار ليتيمين وكان أبوهما صالحاً، وأراد اللّه الحفاظ على كنزهما عن هذا الطريق إلى أن يبلغا أشدّهما ويستخرجا كنزهما للاستفادة منه، ومع أنّ موسى المأمور بظاهر الشريعة لم يتمكّن من البقاء أكثر من هذا مع الخضر الذى كانت له وظائف اخرى أيضاً وأنّه انفصل عنه طبقاً للعهد الذى أخذه على نفسه، لكنّه توصّل من خلال هذه القصّة بشكل عامّ إلى أنّ الكثير من الحوادث التى لها ظاهر مؤلم تعدّ أسباباً لليمن والبركة فى جوهرها، فضلًا عن وقوفه على العلم التفصيلى لهذه القصص الثلاث، وانّنا لعلمنا المحدود نتوهّمها فى غير محلّها فى حين أنّ وقوفنا على حقيقة الأمر يدفعنا لاقتفاء أثره وإدراكه بكلّ سرور.

كانت هذه علوماً تعلّمها موسى من الخضر إلى جانب علم الشريعة، والأسمى منها هو الخضر الذى يعدّ من الأنبياء الإلهيين عظيمى الشأن، والذى كان له اطّلاع واسع على هذه الامور «١».

---

(١) لمزيد من التوضيح فيما يتعلّق بهذه الآيات وجزئيات هذه القصّة، راجع التفسير الأمثل، ذيل الآيات ٦٠- ٨٢ من سورة الكهف.

نفحات القرآن، ج٧، ص: ٢١٤

٢- اطّلاع داود على إعداد وسيلة دفاعية

تمّ البحث فى سورتين من القرآن المجيد حول اختراع الدرع المناسب، الذى كان يعدّ وسيلة دفاعية مهمّة لحروب الأزمنة الغابرة، وذلك من قبل داود النبى الإلهى العظيم الشأن.

يقول تعالى فى أحد المواضع: «وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ». (الأنبياء/ ٨٠)

يتّضح جيّداً من هذه الآية أنّ إبداع هذه الوسيلة الدفاعية قد تمّ فى عهد داود عليه السلام وبتعليم ربّانى، فى حين انّنا نعلم بعدم ضرورة أن يكون نبى إلهى مبتكراً لمثل هذا الموضوع.

كما ونقرأ فى قوله تعالى «وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ* أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِى السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ». (سبأ/ ١٠- ١١)

لا شكّ أنّ هذا الأمر يكشف عن أنّ إقدام داود عليه السلام على صنع شىء فريد من نوعه، كان بأمر إلهى وأنّه تعالى هو الذى علّمه كيفية الصنع وسبل تليين الحديد، سواء كانت لهذه المسألة صفة إعجاز أم تعليم إلهى بالاستفادة من المعدّات والأسباب، وعلى أيّة حال فابتكار هذا الأمر (صنع الحلقات الدقيقة والقويّة لغرض نسج الدرع فى ذلك الزمان، بحيث لا يعيق حركة المقاتل، كما ويسهل ارتداؤه بالإضافة إلى مقاومته لضربات وأسنّة السهام والسيوف والرماح فى نفس الوقت) كان عملًا شاقّاً ومعقّداً للغاية، ولم تكن

أهمیّته فی ذلک العصر أدنی من إبداع الأسلحة المتطوّرة فی عالم الیوم.

کما ویحتمل أن تکون الآیـة ۱۵ من سورة النمل إشارة إلی نفس علم ومعرفـة داود بصـناعة هـذه الوسیلة الدفاعیة أیضاً، أو أن تکون مضافة إلی العلوم الأولی حیث یقول تعالی: «وَلَقَدْ آتَیْنا داوُدَ وَسُلَیْمانَ عِلْماً». «۱»

لقد تناولنا هذا البحث فیما سبق أیضاً- بمناسبة أخری-.

---

(۱) ورد هذا الاحتمال فی تفسیر القرطبی، ج ۷، ص ۴۸۷۹ ذیل الآیة مورد البحث.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۱۵

۳- معرفة یوسف بتفسیر الاحلام

هل بإمکان الرؤیا إزالة الستار عن حوادث المستقبل والکشف عن المسائل؟

لو کان الجواب «نعم»، فأی رؤیا هـذه، وهل تنطق الأحلام صـراحةً أم کنایـةً، أو تکون صـریحة تارةً وکنائیة أخری؟ وفی الحالة الثانیة فمن أولئک الذین یجیدون لغة کنایة الرؤیا، ومن بیده هذا العلم؟

وأساساً ما هی حقیقة الرؤیا؟ وکیف ترتسم فی روح الإنسان وذهنه؟

هذه هی الأسئلة المعقّدة التی تتطلّب الإجابة عنها الخوض فی أبحاث مطوّلة ومفصّلة، وخارجة عن موضوع بحثنا فی نفس الوقت «۱».

إنّ من المسلّم به فی الأبحاث القرآنیـة أنّ بإمکان الرؤیا الدلالـة علی الأحـداث کنایـة أو صـراحة، وقـد أشار القرآن إلی سبع أحلام صادقة فی سور مختلفة بالإمکـان الوقوف علیهـا فی «رسالـة القرآن»، المجلّـد الأوّل فی مبحث مصـادر المعرفة (المصـدر السادس- الکشف والشهود) «۲».

إنّ بعضاً من هـذه الأحلام کان کنائیاً (مثل حلم عزیز مصـر) وبعضـها صـریحاً مثل حلم نبی الإسـلام صـلی الله علیه و آله حول دخول المسلمین إلی المسجد الحرام، وأداء مراسم الحجّ.

ویصرّح القرآن فی سورة یوسف بأنّنا علّمنا یوسف هذا العلم، ونقرأ فی قوله تعالی:

«وَکَذَلِکَ یَجْتَبِیکَ رَبُّکَ وَیُعَلِّمُکَ مِنْ تَأْوِیلِ الْأَحَادِیثِ». (یوسف/ ۶)

و قال أیضاً: «وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِیلِ الْأَحَادِیثِ». (یوسف/ ۲۱)

ثمّ تجسّدت نماذج من تفسیر یوسف للأحلام، بما فیها الرؤیا التی قصها کلّ من السجینین علیه، ورؤیا ملک مصر، والتی تحکی کلّها عن إحاطته الکاملة بعلم تعبیر الاحلام.

بدیهی أنّ عدم اطّلاع الأنبیاء علیهم السلام علی تعبیر الأحلام لا یخدش فی نبوّتهم، لکن

---

(۱) ورد هناک فی التفسیر الأمثل، فی الآیات المرتبطـة بیوسف علیه السـلام، بحث مفصّل نوعاً ما حول هذا الموضوع، وان کان بیانه بالکامل یحتلّ کتاباً مستقلًا لوحده.

(۲) لمزید من الایضاح راجعوا الی ج ۱، ص ۲۱۲ من هذا التفسیر.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۱۶

بإمکان هذا العلم أن یلعب دوراً فعّالًا فی الإسراع من عجلة تطوّر مأموریتهم، وإضفاء المزید من التقدّم علی خططهم.

۴- العلم بمنطق الطیر

تمّت الإشارة فى القرآن الكريم إلى نوع آخر من العلم والمعرفة بالنسبة لسليمان عليه السلام، والذى يبدو لأوّل وهلة أمراً عجيباً، ألا وهو مسألة القدرة على مخاطبة الطيور وفهم حوارها، ونقرأ فى قوله تعالى «وَوَرِثَ سُلَيْمانُ داوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ». (النحل / ۱۶)

الكلام هنا طويل:

هل حقّاً تتكلّم الحيوانات؟ كيف يكون حديثها؟ هل بهذه الأصوات المتنوّعة التى تنبعث منها فى مختلف الحالات، أم أنّ هناك كيفية خاصّة أخرى؟

لا شكّ أنّ للطيور أصواتاً متفاوتة وبحسب الظروف المختلفة، كالغضب والرضا والجوع والعطش والمرض والضجر، وأنّ بإمكان من لهم أدنى اطّلاع على حالها إدراك مرادها.

لكن من المستبعد أن تكون الآية أعلاه وأمثالها ناظرة إلى هذا المعنى، إذ إنّها تحكى عن مطالب أدقّ وأهمّ، فالبحث هو عن تفاهمها وتخاطبها مع الإنسان، والحديث هو عن سلسلة من المفاهيم العالية والراقية.

مع احتمال إقدام البعض على حمل هذه الآيات وأمثالها على الكنايات أو لغة الأساطير، توهّماً منهم باستحالة مثل هذا الشيء للحيوانات، فامتلاك سليمان عليه السلام للمعجزة واطّلاعه على العلوم الإلهيّة الخاصّة لا يستبعد أبداً.

وهناك سؤال وهو: هل أنّ للحيوانات مثل هذا الفهم والشعور لتتحدّث مثلًا عن عبادة ملكة سبأ للشمس من دون اللَّه؟

التمعّن فى أسرار حياة الطيور، والمطالب العجيبة التى ينقلها العلماء فيما يتعلّق بذهنها

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۱۷

ومهارتها ودقّتها، يكشف عن سقم وسطحية افتراض تجرّد الحيوانات خصوصاً الطيور من الشعور.

إنّ أبحاث العلماء تشير إلى أنّ للكثير من الحيوانات القدرة على تحديد الظروف الجويّة، حتّى قبل حدوثها بعدّة أشهر، فى حين أنّ الإنسان ومع كلّ الأجهزة التى يستعين بها يعجز أحياناً عن مثل ذلك، ولو لساعات قليلة قبل ذلك.

أغلب الحيوانات تعلم بالزلازل قبل وقوعها وتبدى ردّ فعلها لذلك، فى الوقت الذى تعجز فيه أجهزة رصد الزلازل عن تخمين ولو مقدّماتها.

غرائب حياة النحل واقتفائها العجيب للمناطق التى تكثر فيها الزهور، ونشاطات النمل العجيبة وتطوّرها المعقّد، ومعرفة الطيور المهاجرة بوضع الطرق حين تطوى أحياناً المسافة بين القطبين الشمالى والجنوبى للكرة الأرضية، واطّلاع البعض من الطيور على أحوال فراخها قبل تفقيسها، وتوقّعها الدقيق لاحتياجاتها مع عدم امتلاكها لتجربة سابقة، وأمور أخرى من هذا القبيل والتى ذكرت فى الكتب المعتبرة والمستندة فى هذه الأيّام، تشير بمجموعها إلى أنّ لا غرابة فى تمتّع الحيوانات بنوع من الحوار فيما بينها، مع تمكّنها من التحدّث مع من له اطّلاع على أبجديات لغتها، وخلق رابطة ما معه.

الكثير من آيات القرآن تدلّل على أنّ للحيوانات شعوراً وإدراكاً على خلاف ما يتوهّمه البسطاء، بل بلغ الحدّ بالبعض إلى الإعتقاد بأنّ لكلّ ذرّات الكون بما فيها الجمادات نوعاً من الشعور، ومن هنا فقد اعتبروا عموم تسبيحها مقروناً بالشعور.

هذه المواضيع تعود بطبيعة الحال إلى بحوث أخرى ذكرناها فى محلّها، امّا الذى ينبغى الإلتفات إليه هنا فهو مسألة اطّلاع البعض من الأنبياء على «منطق الطير»، وتحدّث قسم من الحيوانات معهم، والتى لا تعدّ علماً ضرورياً لأداء الرسالة بل باعثاً على كمال النبوّة.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۱۹

طرق معرفة سفراء اللَّه

اشارة

۱- الاعجاز

۲- التحقيق فى مضمون دعوة الأنبياء عليهم السلام

۳- جمع القرائن

۴- شهادة الأنبياء السابقين

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۲۱

طرق معرفة سفراء اللَّه

تمهيد:

اشارة

لاـ شكّ أنّ أىّ ادّعاء لاـ يمكن قبوله إذا لم يكن معززاً بدليل، خصوصاً الإدّعاء الخطير جدّاً وهو ادّعاء النبوّة مثلًا، وبالأخصّ بعد معرفتنا للكثير من الأشخاص وعلى امتداد التاريخ ممّن ادّعوا السفارة و النبوّة، و رسالة هداية الخلق من قبل اللَّه زوراً وبهتاناً، بهدف إضلال البسطاء من الناس، فادّعوا أنّهم مرسلون من قبل اللَّه لتحقيق أهدافهم المشؤومة وضمان طموحاتهم اللامشروعة، وقد وُفّقوا بعض الشيء فى كسب بعض المغفلين نحوهم.

وبناءً على هذا فلابدّ من وجود مقاييس يمكن من خلالها تمييز الأنبياء الإلهيين من المدّعين الكذّابين، وبعد مطالعة هذا الموضوع بدقّة تنكشف أمامنا أربعة طرق:

۱- «الإعجاز» و هو القيام بأمور خارقة للعادة و خارجة عن قدرة الإنسان، مرفقة بدعوى النبوّة.

۲- التحقيق فى مضمون دعواتهم والتى يمكن أن تكون لوحدها فى بعض الأحيان دليلًا على صدقهم وحقّانيتهم، وقد يكون هذا الطريق أكثر قبولًا وثقة لدى العلماء حتّى من المعجزة.

۳- جمع القرائن التى تحوم حول مدعى النبوّة، وسوابقه وسلوكه ومحيطه والذين آمنوا به، بالإضافة إلى الطرق التى يسلكها لنشر دعوته، و ما إلى ذلك.

وكثيراً ما يحدث أن تدفع هذه القرائن مجتمعة للإيمان برسالته وصدق دعوته دون حاجة إلى اللجوء إلى شيء آخر.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۲۲

۴- شهادة الانبياء السابقين التشخيص عن طريق الأخبار وتزكية الأنبياء السابقين، أى أنّه يمكن لأخبار من اتّضح أنّه نبى أن تكون دليلًا وعاملًا مساعداً لمن يأتى بعدهم.

على أيّة حال فالشىء المسلّم به هو عدم إمكان قبول أى دعوى بلا دليل مقنع، وقد عاتب القرآن مراراً وكراراً أولئك الذين يدّعون أو يتّبعون بلا علم ولا دليل.

ومن البديهى أنّ أشخاصاً كهؤلاء سيكونون فى مهب ريح اللوم والعتاب على الدوام، وعلى حدّ قول بعض الفلاسفة: «من يقبل كلاماً بلا دليل لا يستحقّ إسم الإنسان».

كما أنّ القرآن يعتبر أمثال هؤلاء الأشخاص أى الذين يتبعون الهوى بلا علم ولا دليل من أضلّ الناس إذ يقول: «وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدىً مِّنَ اللَّهِ». (القصص/ ۵۰)

وفى موضع آخر يقول بصراحة لمن يدّعى دعوىً فيما يتعلّق بالتوحيد أو النبوّة: «هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ». (البقرة/ ۱۱۱) (النمل/ ۶۴)

كما يقول في موضع آخر: «وَلَا تَقْفُ مَا لَيسَ لَکَ بِهِ عِلْمٌ». (الإسراء/ ٣٦)

وأخيراً فقد اعتبر أولئك الذين يتكلّمون بغير علم من أكثر الناس كذباً وافتراءً وظلماً، يقول اللّه تعالى: «فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ».

(الأنعام/ ١٤۴)

بعد هذه المقدّمة الخاطفة يأتي دور كلّ واحد من هذه الطرق الأربعة ونبدأ بمسألة «الإعجاز».

نفحات القرآن، ج٧، ص: ٢٢٣

١- الاعجاز

اشارة

وينبغي الإلتفات إلى أنّ القرآن لا يعبّر بالإعجاز أو المعجزة في هذه المسألة، بل يستعمل وبشكل رئيسي ثلاثة تعابير أخرى وهي: «آية» و «بيّنة» و «برهان»، والآن لنمعن خاشعين في الآيات الواردة في هذا المجال:

١- «قَالَ (فرعون) إِنْ كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ* فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ* وَنَزَعَ يَدَهُ (من جيبه) فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ».

(الأعراف/ ١٠۶- ١٠٨)

٢- «وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ».

(آل عمران/ ۴٩)

٣- «وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ* فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ». (الأعراف/ ١٣٢- ١٣٣)

۴- «وَإِلَى (قوم) ثَمُودَ (أرسلنا) أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً ...». (الأعراف/ ٧٣)

۵- «قَالَ (نوح) يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ (فهل تنكرون دعوتي ثانية) أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ». (هود/ ٢٨)

نفحات القرآن، ج٧، ص: ٢٢۴

۶- «وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ...* اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ... فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِ».

(القصص/ ٣١- ٣٢)

٧- «قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً». (الإسراء/ ٨٨)

جمع الآيات وتفسيرها

الإعجاز، أوّل دليل على النبوّة:

كما تمّت الإشارة سابقاً فانّ لفظة ال «معجزة» لم ترد في القرآن بالمعنى المصطلح عليه اليوم أبداً، بل إنّ ألفاظاً أخرى من قبيل «آية» و

«بيّنة» و «برهان» قد حلّت محلّها، وعلى الرغم من إطلاق هذه الألفاظ الثلاثة فى القرآن على معانى أخرى أيضاً، فانّ «المعجزة» أحد معانيها.

الآيات المختارة المذكورة هى من أجلى الآيات التى تتحدّث عن المعجزة بالاستفادة من هذه الألفاظ الثلاثة، بالإضافة إلى بعض الآيات الأخرى التى تعكس مفهوم ضعف الإنسان وعجزه عن مقابلة بعض ما يقوم به الأنبياء من بعض الممارسات الخارقة للنواميس الطبيعية بالمثل، بالرغم من خلوّها من كلّ واحدة من هذه الألفاظ الثلاثة، وبالنتيجة فهى تثبت استعانة الأنبياء ب «الإعجاز» للتدليل على حقّانيتهم من جهة، ومطالبة الناس ب «المعجزة» من جهة أخرى.

ورد فى الآية الاولى «قَالَ إِنْ كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ* فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ* وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ».

إذ نرى هنا أنّ فرعون قد اعتبر المطالبة ب «آية» أى «معجزة» حقّاً مشروعاً له، ومن المعلوم أنّ موسى قد وافق بدوره على هذا الطلب برحابة صدر، وجاء بنموذجين من معجزاته.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۲۵

وبهذا فهذه الآيات تعتبر الأمور الخارقة للعادة (المشروطة) تمثل الطريق لمعرفة الأنبياء عليهم السلام.

هذه الآيات لم تقل أبداً أنّ هذا الشيء قد تجسّم أمام أنظار فرعون، بل تحكى عن حقيقة متحقّقة ألا وهى استبدال العصا بثعبان رهيب، وبياض يد موسى حينما أخرجها من جيبه، كما أنّ التعبير بال «مبين» إشارة إلى نفس هذا الشيء أيضاً.

يحتمل أن يكون السبب وراء اختيار هاتين المعجزتين يعود إلى امتلاك إحداهما ميزة الإرهاب للمستكبرين والمعاندين وتهديدهم، والأخرى ميزة الترغيب لإيمان المؤمنين، على أمل أن يمتزج «اللين» ب «الشدّة» ليقدما معاً دواءً شافياً للعباد.

و فى الآية الثانية تمّت الإشارة بقوّة إلى معجزات السيّد المسيح، وتمّ التعبير عنها بال «آية»، وكان ذلك فى وقت بشّرت فيه مريم عليها السلام بولادة المسيح عليه السلام، إذ قال تعالى: «وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ».

وقد تمّ فى هذه الآية ذكر مجموعة من معجزات السيّد المسيح: خلق الطير من الطين، وإبراء الأكمه والأبرص الذى يستحيل علاجه، وإحياء الموتى، والتى تمّت كلّها بإذن اللَّه بالإضافة إلى الإطّلاع على الأمور الخفيّة وأسرار الغيب.

لم تكن معجزة المسيح لتنحصر بهذه المعاجز الأربع فحسب، إذ إنّ هناك خوارق أخرى للعادات قد نقلت عنه فى القرآن الكريم، من جملتها تكلّمه فى المهد، ونزول مائدة من السماء على الحوارين بدعائه.

والمعروف هو أنّ اختيار اللَّه لقسم من هذه المعجزات للمسيح عليه السلام، إنّما كان بسبب انتشار العلوم الطبيّة وتطوّرها فى ذلك الزمان، وحاجة الناس الماسة إلى مهنة الطبابة نظراً

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۲۶

لشيوع الأمراض آنذاك، فوضع اللَّه هذه المعجزات الخاصّة تحت تصرّف المسيح، ليتعرّف به العالم وغيره ويستسلم له ولتتجلّى عظمة إعجازه بشكل أكبر «۱».

هذه الملاحظة أيضاً جديرة بالاعتبار وهى وجود نوع من التنسيق بين هذه المعجزات الماديّة، وبين البرامج المعنوية والتربوية للسيّد المسيح: فلقد ربى بدعوته هذه أناساً متفتّحين على أفكار ومعارف جديدة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، شفاء المرضى الذين يستحيل علاجهم على يديه، وإحياء ضحايا وادى الضلال وهداهم، ومسح بأسرار الغيب وأنوار المعرفة على القلوب، وبهذا كانت تلك المعجزات الماديّة متناسبة مع هذه الأهداف المعنوية.

صحيح أنّ «المعجزة» يجب أن تكون عملًا خارقاً للعادة بحيث يعجز الكلّ عن الإتيان بمثله، لكن اللَّه الحكيم الذى يتصرّف بحكمة، قد اختار المعجزات طبقاً لبرنامج مدروس.

هذه الملاحظة أيضاً جديرة بالتأمّل والتفحّص وهى أنّ التعبير ب «إذن اللَّه» قد تكرّر مرّتين فى هذه الآية، لئلّا يضل الجهّال فى وادى الشرك أو يبالغوا فى درجة النبى إلى مرتبة الغلو، خصوصاً وأنّ كيفية خلق عيسى كانت بشكل يساعد على تهيئة الأرضية المناسبة للغلو فى أفكار قصيرى النظر، ولذا فقد تمّ التأكيد مراراً على إذن اللَّه وأمره لئلّا يذهب بهم خيالهم إلى اتّصافه واقعاً بصفات الربوبية، وكون هذه الأعمال صادرة منه بنفسه، بل ليعلموا أنّها جميعاً من عند اللَّه.

الآية الثالثة تبيّن بوضوح أنّ موسى عليه السلام قد جاء للفراعنة بالعديد من خوارق العادة، (أو بعبارة أخرى بالآيات المفصّلات)، لكن الملأ من آل فرعون لم يؤمنوا بحجّة كون ذلك «سحراً»، يقول تعالى: «وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ* فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ».

---

(۱) وردت هذه الملاحظة فى حديث عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام (بحار الأنوار، ج ۱۱، ص ۷۰).

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۲۷

هذه الحوادث العجيبة وغير المتوقّعة كانت لها صفتى التأديب والإعجاز معاً.

كما أنّ الآيات اللاحقة لها تبيّن أيضاً أنّهم كانوا يلجأون إلى موسى عند الشدائد، ويرجون منه الطلب من اللَّه برفع «البلاء» ويعدونه لئن كشفت عنّا الرجز لنؤمنّ لك، ولكن حينما كان يكشف عنهم الرجز ينكثون عهدهم، إلى أن استحقّوا أخيراً «عذاب الإستئصال» واجتُثّوا عن بكرة أبيهم.

صحيح أنّ الفراعنة وبنى إسرائيل كانوا يعيشون معاً، لكن لا يخفى أنّ الفراعنة كانوا هم المستهدفين بهذه البلايا، فتلك قصورهم الفخمة تطلّ على طرفى النيل، بينما منازل بنى إسرائيل تقع فى مناطق نائية، ولذا ذهب الطوفان والفيضان بقصور الفراعنة.

كما دمّر الجراد والآفات الزراعية مزارعهم الواسعة، وحصلت زيادة مطّردة ومفاجئة فى تكاثر الضفادع لتخرج من النيل وتدخل فى كلّ جزئيات حياة الفراعنة، بل لم تترك حتّى غرف نومهم وموائد طعامهم وأوانيهم بالإضافة إلى تحمّلهم لخسائر فادحة جدّاً حينما تلوّن نهر النيل بالدم.

لكن هذه البلايا أو بعبارة أخرى «المعجزات المنبهة» التى ورد شرحها فى التوراة الحالى، فى «سفر الخروج» الفصل السابع إلى العاشر، لم توقظهم أبداً.

ويحتمل أن يكون اختيار هذه المعجزات الخمس ناظراً إلى إحاطة العذاب الإلهى بكافّة شؤون حياتهم، فالطوفان قلب قصورهم رأساً على عقب، والجراد دمّر بساتينهم، و «القمّل» ذهب بزراعتهم، والضفادع سلبتهم راحة بالهم وسكينتهم، وإستبدال ماء النيل بالدم حرمهم ماء شربهم!

وهناك إشارة مختصرة فى الآية الرابعة إلى معجزة نبى آخر وهو النبى صالح عليه السلام، حيث تعبّر عنها ب «البيّنة»، وكذلك ال «آية»، يقول تعالى:

«وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۲۸

مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً ...».

«الناقة»: تعنى فى الأصل أُنثى البعير، وقد أشير فى القرآن إلى ناقة صالح بهذه اللفظة أكثر من مرّة، والتى كانت ناقة إستثنائية بلا شكّ، وذلك فى كيفية خروجها بالإضافة إلى بقيّة الحالات والصفات التى يكون الخوض فى جزئياتها خارجاً عن موضوع هذا البحث، إذ لا

نعلم أكثر من عدم كونها ناقة عادية، ولذلك يعتبرها بمثابة البيّنة و الآية ولغرض الوقوف على أهميّة هذه المعجزة فقد تمّ التعبير عنها فى الآية المذكورة ب «ناقة اللّه».

لماذا اختار اللّه هذه المعجزة من بين كلّ المعجزات لصالح عليه السلام؟ قال البعض: كان ذلك استجابة لطلب القوم لمثل هذه الناقة.

نقرأ فى إحدى الروايات: «حينما بُعث صالح بالنبوّة بين قوم ثمود الذين كان لهم سبعون صنماً يعبدونها، لبث فيهم مدّة طويلة يدعوهم وينصحهم، لكنّهم لم يجيبوه إلى خير، فقال لهم ذات يوم: أنا أعرض عليكم أمرين، إن شئتم فاسألونى حتّى أسأل إلهى فيجيبكم فيما تسألون، وإن شئتم سألت آلهتكم فان أجابونى خرجت عنكم، فقد شنئتكم وشنئتمونى، فقالوا قد أنصفت!

فتواعدوا ليوم يخرجون فيه، فخرجوا بأصنامهم إلى عيدهم وأكلوا وشربوا فلمّا فرغوا، دعوه فقالوا ياصالح سل فسألها فلم تجبه، فقال: لاـ أرى آلهتكم تجيبنى فاسألونى حتّى أسأل إلهى فيجيبكم الساعة، فقالوا ياصالح! اخرج لنا من هذه الصخرة (وأشاروا إلى صخرة منفردة) ناقة مخترجة جوفاء وبراء فان فعلت صدّقناك وآمنا بك، ففعل صالح ذلك ولم يؤمنوا» «۱».

الكلام فى الآية الخامسة هو عن «البيّنة» أيضاً، وقد ذكرت هنا «بيّنة نوح» تلك البيّنة التى يراد منها «معجزة ظاهرة»، إذ نراه يعقّب على كلام مشركى القوم حينما قالوا: «بل

---

(۱) تفسير مجمع البيان، ج ۴، ص ۴۴۱ (بتلخيص).

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۲۹

نظنّكم كاذبين»، بالقول: «قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِن رَّبِّى وَآتَانِى رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ (تعصّباً وعناداً) أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ» «۱».

قال الكثير من المفسّرين أنّ «البيّنة» تعنى هنا المعجزة، وعلى الرغم من المنقول عن ابن عبّاس أنّ المراد بالبيّنة هو الدليل المنطقى الجلىّ، لكن نظراً للتعبير ب «من ربّى» ولكون هذه البيّنة قد اقيمت فى مقابل تكذيب نوح وأتباعه، فلاـ يمكن أن يفهم منها سوى المعجزة، وربّما كان مراد ابن عبّاس من الدليل الواضح نفس المعجزة أيضاً.

ونلاحظ فى الآية السادسة تعبيراً آخر حول هذا الموضوع ألا وهو «البرهان»، إشارة إلى معجزتى موسى المعروفتين واللتين وردتا فى الآيات السابقة، أى استبدال العصا بثعبان عظيم، وبياض اليد، يقول تعالى: «فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِ».

و «البرهان»: وعلى حدّ قول الراغب فى المفردات يعنى الدليل المحكم، وقد اعتبره البعض مصدراً لمادّة «بَرَه- يَبْرَهُ» إذا ابيضّ، وإطلاق هذه المفردة على الأدلّة المحكمة من باب بيانه للمطلب، وتوضيحه له، أو لأنّه يبعث على افتخار المتكلّم، أو أنّه إشارة إلى الكلام الواضح الذى يعتريه الإبهام.

وفى «لسان العرب» فسّر البرهان بمعنى الدليل الواضح الذى يميّز الحقّ عن الباطل، ومن هنا فسّر المفسّرون لفظة «برهانان» فى ذيل الآية بمعنى الدليلين الجليين «۲».

لكن صاحب كتاب «التحقيق» يعتقد بأنّ استعمال لفظة البرهان بمعنى الدليل اصطلاح منطقى خارج عن دائرة اللغة، وأنّ معناه هو ذلك الكلام الواضح الخالى من الإبهام، أو الموضوع الواضح تماماً.

على أيّة حال، ففى الآية أعلاه قد استعملت هذه اللفظة فى التعبير عن المعجزة، التى تعدّ دليلًا جليّاً وواضحاً على صدق مدّعى النبوّة، أى النبى موسى عليه السلام هنا.

---

(۱) جملة «أنلزمكموها» هى بمثابة الجزاء للقضيّة الشرطية «إن كنت».

(۲) تفسير الكبير، ج ۲۴، ص ۲۳۸.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۳۰

وفى الآية السابعة والأخيرة من الآيات التى وردت فى البحث لم يكن التعبير بال «آية» أو ال «بيّنة» أو ال «برهان»، بل بمصداق من المصاديق البارزة جدّاً للمعجزة، وبعد ذلك تمّ التصريح بالقول: «قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَايَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً».

الهدف لا يكمن فى الخوض فى بحث «إعجاز القرآن» لأنّ هذا البحث قد جاء فى ذيل هذه الآية فى المجلّد الثانى عشر من «التفسير الأمثل»، كما سيأتى أيضاً فى المجلّد القادم من نفحات القرآن، بشرح أوفى، إنّما الهدف هو بيان حقيقة كون المعجزة هى إحدى الطرق القطعية لمعرفة الأنبياء عليهم السلام.

ولذا نقرأ فى ذيل آية أخرى دعوة القرآن المخالفين للإتيان بعشر سور مثل سور القرآن:

«فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ». (هود/ ۱۴)

ثمرة البحث:

يمكن الإستنتاج بوضوح من مجموع ما تقدّم، أنّ المعجزة لم تكن بنظر القرآن أحد الأدلّة الرئيسيّة لإثبات نبوّة نبى الإسلام صلى الله عليه و آله فحسب، بل لنبوّة سائر الأنبياء أيضاً.

لكن ينبغى الإلتفات إلى أنّ هناك آيات قرآنية تعدّ بمثابة العلّة لمنكرى المعجزة، والتى سنتكلّم عنها بالتفصيل فى قسم التوضيحات.

توضيحات

۱- ما هى حقيقة الإعجاز

لفظة الإعجاز والمعجزة وكما أشرنا سابقاً لم ترد فى القرآن بالمعنى المصطلح عليه اليوم، بل قد تمّت الإستعانة بتعابير أخرى فى هذا المجال، وقد تقدّم شرحها فى الآيات التى مرّ ذكرها، فالبحث هنا ليس بحثاً لغوياً، إذ الهدف هو بيان حقيقة الإعجاز والمعجزة، لكن لا

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۳۱

بأس بإشارة خاطفة قبل ذلك إلى المفهوم اللغوى للفظة «الإعجاز»، ليتّضح السبب الذى دفع العلماء والأكابر إلى انتخاب هذه المفردة لخصوص هذا المعنى.

مع أنّ هناك معنيين قد ذكرا فى مقاييس اللغة لأصل «الإعجاز» أى «العجز» وهما:

«الضعف» و «عقب كلّ شىء»، لكن الراغب أرجع هذين المعنيين فى المفردات إلى معنى واحد، واعتبر المعنى الأصلى هو «عقب كلّ شىء»، وقد ترد بمعنى «الضعف» نظراً لتبعية الأفراد الضعفاء للآخرين، وحيث إنّ معجزات الأنبياء هى من القوّة بحيث يعجز الآخرون عن التصدّى لها ومقابلتها بالمثل، فقد اطلقت لفظة المعجزة عليها.

على أيّة حال ف «المعجزة» فى التعريف الذى ذكره لها علماء العقائد، عبارة عن ذلك الشىء الجامع للشروط الثلاثة أدناه:

۱- العمل الخارق للعادة والخارج كليّاً عن طاقة النوع البشرى، والذى يعجز عن الإتيان بمثله حتّى أكبر نوابغ العالم.

۲- أن تكون مرافقة لدعوى النبوّة أو الإمامة من قبل اللّه، وبعبارة أخرى أن تكون بمثابة الدليل على حقّانية مدّعى الرسالة والإمامة.

۳- أن تكون بلسان «التحدّى» أى الدعوة للمعارضة والمقابلة بالمثل، وبعبارة أخرى أن يتحدّى مدّعى النبوّة أو الإمامة أولئك الذين ينكرون كونها من عند اللَّه، الإتيان بمثلها، بالضبط كما عرض القرآن هذا الأمر أكثر من مرّة فيما يتعلّق بإعجاز هذا الكتاب السماوى، وقد مرّ بنا مثال ذلك فى الآيات السابقة.

وممّا تقدّم أعلاه يمكن استنتاج الأمور التالية:

أ) المعجزة مستندة على القدرة الإلهيّة

ولا يمكن قياسها بأعمال نوابغ العالم، والإكتشافات العلمية العجيبة، إذ يحتمل مثلًا وجود طفل ذكى لم يتجاوز عمره السبع سنين، ومع ذلك نراه يخطب خطبة عصماء، فهذا

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۳۲

نوع من النبوغ، ولذا يحتمل العثور على طفل آخر مثله أيضاً، أمّا الطفل الرضيع فمن غير الممكن (عادةً) أن ينطق بفصاحة ليقول كما نقرأ بالنسبة للمسيح: «قَالَ إِنِّى عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِى نَبِيّاً». (مريم/ ۳۰)

أو أنّ من الممكن لعالم إختصار فترة نضوج فاكهة ما من سبع سنين مثلًا إلى عدّة أشهر، وذلك باكتشاف علمى جديد وأدوية خاصّة، فمن الواضح أنّ هذا العالم قد جاء باكتشاف عظيم، لكن من المحتمل أن يأتى مكتشف ونابغة آخر بعمل مشابه له أيضاً، امّا لو تحوّلت شجرة يابسة إلى مثمرة فى لحظة واحدة (وكانت ترافقها دعوى النبوّة والتحدّى) فهى معجزة إلهية.

ب) المعجزة لا تعنى عمل المستحيل عقلًا

(سواء كان محالًا ذاتياً كاجتماع النقيضين والضدّين فى مكان واحد وزمان واحد، أو محالًا بالغير كالأمر الذى ينتهى وجوده فى خاتمة المطاف إلى محال عقلى) لأنّه غير ممكن بحكم العقل، أو بعبارة أخرى هو خارج عن دائرة القدرة، أى أنّ استعمال كلمة «القدرة» فى حقّها لا معنى له أصلًا، مثل أن يريد أحد الأنبياء أن يكون الشىء موجوداً وغير موجود فى آن واحد، أو أن يضع صخرة عظيمة داخل بيضة دون أن تصغر الصخرةُ أو تكبر البيضة، مثل هذه القضايا إنّما تزرع التضادّ فى داخلها بنفسها، أى أنّها فى حقيقتها قضيّة خاطئة، ومفهومها فى الحقيقة هو أن يريد الإنسان شيئاً ولا يريده (تأمّل جيّداً).

وبناءً على هذا فالمحالات العقليّة لا- محلّ لها لا فى بحث الإعجاز، ولا حتّى فى أى بحث آخر، بل الذى يمكن عرضه هو المحال العادى فحسب، وبهذا فالمعجزة محال عادى لا غير.

أى أنّ مثل هذا الشىء لا يمكن تحقّقه طبقاً للتسلسل الطبيعى لقانون العلّة والمعلول، واستناداً إلى الأسباب والشروط العادية والطاقة البشرية، لكن لا مانع من تحقّقه أبداً بالقدرة الإلهيّة كالأمثلة المذكورة آنفاً.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۳۳

ج) المعجزة لا تعنى تحطيم قانون العلّية

قد يتوهّم البعض أنّنا وبقبولنا للمعجزات يجب أن نضرب أصل العلّية عرض الحائط، وان نسلّم بإمكان صدور المعلول بلا علّة، إلّاأنّ هذا المعنى غير مقبول لدى أى عالم ومفكّر.

ومن الواضح أنّ أصل العلّية لا ينحصر فى الأصول البديهية للعلوم البشرية، بل يمتدّ ليعدّ فى الفلسفة أيضاً من المسائل البديهية، وذلك لعدم إمكان وجود أيّة حادثة بلا عليّة، والقائلون بالمعجزة لا ينكرون هذا الأصل البديهى والمسلّم به.

وبناءً على هذا فللمعجزات علل وأسباب حتماً خلافاً لهذا التوهّم، ويحتمل أن تكون هذه العلّة أمراً ميتافيزيقيّاً أى ما وراء عالم الطبيعة (وذلك لعدم انحصار الوجود بعالم المادّة والطبيعة فقط)، بل يمكن أن تكون علّة طبيعية إلّاأنّها غير مكتشفة، أى تلك العلّة التى يستحيل لأفراد البشر إدراكها دون الإتّكاء على علم وقدرة الخالق، وبهذا فكلّما وصل إنسان ما لهذا العامل الطبيعى والمجهول فى نفس الوقت، لاستنتجنا اتّكاءه على قدرة إلهية.

ومعجزات الأنبياء عليهم السلام يمكن أن تكون من النوع الأوّل أو الثانى، وذلك لتساويهما فى إثبات ارتباطهم باللَّه.

وقد اعتمد القرآن فى موارد كثيرة على قانون العلّية وتقبله كأصل مسلّم به، سواء فيما يتعلّق بعالم الطبيعة والخلقة أو بحياة الإنسان الاجتماعية أو حتّى بالحياة الشخصية لكلّ فرد، وهناك ما لا يعدّ ولا يحصى من الآيات الشريفة حول هذا الموضوع، وطبقاً لهذا فلا يمكن القول بأنّ المعجزات معاليل بلا علّة.

د) المعجزة لا تزلزل أُسس التوحيد ومعرفة اللَّه

قد يتوهّم البعض ويقول: لقد عرفنا اللَّه من خلال نظام عالم الخلقة الثابت، فلو أمكن زلزلة هذا النظام عن طريق المعجزات، لتزلزل أساس التوحيد ومعرفة اللَّه، إنّكم تريدون

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۳۴

إثبات النبوّة بواسطة المعجزات، وفاتكم انّكم إنّما تهدمون بذلك أساس التوحيد.

وعلى حدّ قول البعض الآخر: إنّ النظام الإلهى ليس العوبة بيد المتلاعبين، يحرّكونه كيفما شاءوا وأمثال ذلك.

والحقيقة أنّ الذين يدّعون بمثل هذا هم من المتغرّبين المادّيين، الذين توهّموا أنّ إنكارهم للمعجزات هذا، سيلفت أنظار المفكّرين الغربيين إليهم، حتّى المادّيين منهم، مع كون هذا الكلام خطأ محض بسبب:

أوّلًا: كما تقدّم سابقاً أنّه لا شكّ لأحد فى «أصالة» و «عمومية» قانون العلّية، كما أنّ تفسير المعجزة ب «المعلول بلا علّة» خطأ فادح، وغياب مسير العلل العادية استثناءً بمثال محدود واحد أو أكثر، لا يخدش فى نظام الكون أبداً، لأنّ ما يتجسّد أمامنا كلّ ساعة من الآلاف المؤلّفة من مصاديقه لا يمكن أن يتزلزل بحالة استثنائية تحدث بالسنة مرّة مثلًا فضلًا عن كون حصول ذلك الاستثناء لإثبات هدف أكبر، نعم لو حدثت كلّ يوم آلاف الآلاف من المعاجز لكان هناك مجال لتردّد البعض فى أصل وجود نظام الكون.

ثانياً: لم يدّع أحد أنّ نظام اللَّه هو ألعوبة، أو أنّ الأنبياء عليهم السلام يتصرّفون به كما يحلو لهم، بل الذى نقوله هو أنّ الأنبياء عليهم السلام إنّما يظهرون أمراً خارقاً للعادة بأمر من اللَّه، ليثبتوا ارتباطهم بعالم ما وراء الطبيعة، مع اكتفائهم بالحدّ الأدنى من المعاجز، وعدم استعدادهم لتقبّل المعجزات المقترحة (المعجزات التى تقترح من قبل ذوى الحجج والشكوك الباطلة).

وهناك العديد من الآيات القرآنية التى تشير إلى هذا المعنى، والتى سنتكلّم عنها بالتفصيل إن شاء اللَّه عند عرضنا لمنطق «المخالفين للمعجزات».

ه) فرق المعجزة عن النبوغ

لقد اتّضح عدم وجود أى شبه بين المعجزة وعمل النوابغ، إذ إنّ المعجزة هى العمل الخارج أساساً عن قدرة الإنسان، فى حين من الممكن أن يظهر أمام كلّ نابغة شخص مثله

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۳۵

ليقابله بالمثل، فضلًا عن أنّ أعمال النوابغ محدودة بحدود معيّنة على الدوام، فأحدهم يبرز مثلًا فى الأدبيات والآخر فى الفنّ والثالث فى الرياضيات والرابع فى الصناعة و ...، امّا إعجاز الأنبياء عليهم السلام فلا يحدّه إطار معيّن.

وبعبارة اخرى فأهل النبوغ إنّما يؤدّون ما يعلمون لا ما يطلبه الناس منهم، فى حين أنّ معجزات الأنبياء تتمّ طبقاً لمراد الناس (وهم أتباع الحقيقة طبعاً، لا من يبحث عن الحجج والذرائع).

بالإضافة إلى قيام النوابغ عادةً بتنمية قدراتهم الباطنية عن طريق التربية والتعليم، وعجزهم عن أداء أى شىء مع غياب التعلّم المستمرّ والتمرين المتواصل، فى حين أنّ هذا لا يصدق فى حقّ الأنبياء عليهم السلام.

و) هل أنّ المعجزات عمل إلهى أو نتيجة قوّة نفوس الأنبياء؟

طبقاً لما قلناه سابقاً، فالأمور الصادرة من النبوغ أو إرادة الإنسان القويّة أو النفوس السامية، هى أمور محدّدة ومشخّصة، وبالإمكان

العثور على نظير ذلك الشىء عند باقى البشر، فى حين أنّ المعجزات غير محدودة وغير قابلة للمعارضة، كما أنّه لا يمكن العثور على أمثالها فى غير الأنبياء والأئمّة عليهم السلام.

أمّا حديثنا فيدور حول المعجزة، وهل أنّها من عند اللَّه وأنّ دور الأنبياء يقتصر على الدعاء والطلب فحسب، أم أنَّ اللَّه يمنح نفوس الأنبياء وإرادتهم قوّةً تمكّنهم من أداء هذه الأعمال الخارقة للعادة بإذنه تعالى؟

لا شكّ أنّ بعضاً من المعجزات كالقرآن المجيد هو عمل اللَّه وكلامه، والحديث هنا عن معجزات أخرى كمعجزة عصا موسى عليه السلام واليد البيضاء، ومعجزات المسيح عليه السلام فيما يتعلّق بإحياء الموتى وشفاء المرضى.

وكلا الاحتمالين ممكنان بنظر العقل، أى أنّه لا مانع أبداً فى أن تتحقّق المعجزة من قبل

اللَّه ودعاء النبى وطلبه، أو أن يمنح اللَّه مثل هذه القدرة لنفوس الأنبياء، ولا منافاة لأىمنهما مع أصل التوحيد وإسناد المعجزات إلى اللَّه.

كما أنّ هناك اختلافاً بين ظواهر آيات القرآن أيضاً، يقول تعالى فيما يتعلّق بإحياء الموتى من قبل المسيح عليه السلام: «وَأُحْيِ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ» إذ إنّه نسب إحياء الموتى هنا إلى نفسه.

فى حين أنّه يقول تعالى فيما يتعلّق بخلق الطير: «فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللَّهِ». (آل عمران/ ٤٩)

فالاولى تبيّن أنّ بعضاً من المعجزات يكون من عمل الأنبياء عليهم السلام بأمر من اللَّه، والثانية تدلّ على أنّ البعض الآخر هو من عمل اللَّه، وكما قلنا فكلاهما يعودان فى خاتمة المطاف إلى الإرادة الإلهيّة ولا منافاة لأىمنهما أبداً مع أصل التوحيد.

فهل أنّ الدواء الشافى بإذن اللَّه يتنافى وأصل التوحيد؟

من البديهى أنّه لا مانع أبداً فى أن تؤثر إرادة شخص النبى الأكرم صلى الله عليه و آله فى إحياء الموتى وشفاء المرضى بإذن اللَّه، وقد فات المصرّين على نفى هذا المعنى، تلك الحقيقة وهى أنّ تأثير كلّ شىء إنّما هو بإذن اللَّه وهذا هو عين التوحيد.

٢- العلاقة بين الإعجاز والنبوّة

هناك كلام بين العلماء فيما يتعلّق بكيفية دلالة المعجزة على نبوّة صاحبها، أى كيف نثبت أنّ المعارف والقوانين والأحكام التى جاء بها هى وحى إلهى؟:

قال البعض: إنّ دلالة المعجزة على هذا المعنى هى دلالة عقلية، فى حين رجّح الكثير منهم كونها دلالة وضعية.

بيان ذلك: قد يُتصوّر أحياناً أداء عمل خارق للعادة لا يمكنه أساساً أن يكون دليلًا على صدق مدّعى النبوّة، إذ لا مانع من قيام شخص بمعجزة ما مع عدم كونه نبيّاً، فلو أنّ أحداً

كان خطّاطاً ماهراً، فهل يدلّ هذا على ضرورة كونه عالماً متبحّراً أيضاً؟!

لكن هناك ملاحظة لم ينتبه لها أصحاب هذا الكلام، ألا وهى أنّ الأمر الخارق للعادة الصادر من العلماء المتبحّرين لا يُعدّ معجزة والذى يفوق قدرة الإنسان، أى المستند على خصوص القوّة الإلهيّة.

هل يمكن أن يضع اللَّه أمراً خارقاً للعادة، خارجاً عن عهدة البشر، تحت تصرف مدّع كذّاب ليُضلّ عباده؟ هل ينسجم هذا المعنى مع حكمة اللَّه؟ هذا يشبه تماماً ادّعاء أحد بأنّى وكيل للشخص الفلانى إليكم، ويستدلّ على ذلك بالخاتم الخاصّ الذى فى يده، والذى يعود إلى ذلك الشخص، مع علم صاحب الخاتم بذلك.

لا شكّ فى كون هذا الأمر دليلًا على قبوله ورضاه، وإلّا فمن المستحيل أن يسكت على عمل كهذا.

وهذا هو ما بيّنه القرآن فيما يتعلّق بنبى الإسلام صلى الله عليه و آله فى الآيات: «وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ* لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ* ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ». (الحاقّة/ ۴۴- ۴۶)

إشارة إلى أنّ نبى الإسلام صلى الله عليه و آله ومع امتلاكه لتلك المعجزات، لو انحرف عن الحقّ ونسب إلى اللَّه كلاماً مخالفاً، لاستلزمت الحكمة الإلهيّة عدم إمهاله ولو لحظة واحدة ولأهلكته فى الحال.

من الطبيعى أنّ المدّعين للنبوّة كذباً كانوا ولا زالوا كثيرين فى العالم، ولا داعى لأن يهلك اللَّه أحداً لمجرّد ادّعائه النبوّة كذباً، هذا الكلام إنّما يصدق فى حقّ اولئك الذين لديهم معجزة، إذ إنّهم لو كذّبوا على اللَّه لما أمهلهم أبداً باعتباره اغراء بالجهل.

الجواب الآخر عن هذا السؤال هو أنّ الأنبياء عليهم السلام كانوا يدّعون أنّ الرسالة إنّما تعطى لهم عن طريق الوحى، سواء كان الوحى نازلًا عليهم مباشرةً، أو عن طريق نزول الملائكة، أيّاً كان فهو أمر خارق للعادة غير مشابه لإدراكات الإنسان الإعتيادية، وحتماً فانّ هناك نوعاً من السيطرة على عالم ما وراء الطبيعة فى نفوس الأنبياء.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۳۸

ومن هنا كان المخالفون يستشكلون على الأنبياء بأنّكم بشر مثلنا فكيف تمكنتم من الإرتباط بما وراء الطبيعة؟ ولذا فقد توسّلوا بالمعجزات لإثبات تفاوتهم مع الآخرين «۱».

ومع أنّ كلا الجوابين مناسبان وفى نفس الوقت لا تنافى بينهما، فالأوّل يبدو وكأنّه أوضح من الثانى.

۳- الاختلاف بين معجزات الأنبياء عليهم السلام

من المعلوم أنّ معجزات الأنبياء الإلهيين كانت متفاوتة ومتنوّعة كثيراً، فهل ياترى أنّ هذا الأمر كان من قبيل الصدفة؟ أم أنّ هناك فلسفة ما وراء ذلك.

إنّ احتمال الصدفة بعيد جدّاً، والظاهر هو أنّ اللَّه الحكيم قد وضع معجزات الأنبياء بشكل بحيث تترك كلّ واحدة منها أكبر الأثر، قياساً بالظروف الزمانية والمكانية لكلّ نبى على حده.

فمثلًا حينما نجد أنّ القرآن يُعتبر أكبر معجزة لنبى الإسلام صلى الله عليه و آله، فانّ ذلك بسبب:

أوّلًا: أنّ نبى الإسلام صلى الله عليه و آله مبعوث إلى كلّ البشرية وإلى أبد الدهر، ومن هنا فلابدّ والحالة هذه أن يأتى بمعجزة خالدة لا تفقد دورها بمرور الأيّام.

ثانياً: أنّه صلى الله عليه و آله كان اميّاً، فمجيئه بمثل كتاب القرآن يعدّ من أرفع مراتب الإعجاز.

ثالثاً: إنحطاط المستوى الفكرى لبيئة الجاهلية مع رفعة مضامين القرآن، وهذا قرينة واضحة اخرى.

مضافاً إلى ذلك نجد أنّ أدبيات العرب وعلى اختلاف أفكارهم ومعارفهم كانت فى ذلك الزمان قد بلغت الذروة، إذ كان لهم شعراء فحول وخطباء يضرب بهم المثل، وبالإمكان الوقوف على نماذج منها فى الشعر الجاهلى. فحينما يستسلم مثل هؤلاء أمام فصاحة وبلاغة القرآن، تتجلّى هذه المعجزة بشكل أوضح.

---

(۱) تفسير الميزان، ج ۱، ص ۸۶، ذيل الآية ۲۳ من سورة البقرة (باقتباس).

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۳۹

وهكذا بالنسبة لمعجزة سليمان عليه السلام فى مسألة تسخير الرياح والشياطين، ومعرفة منطق الطير كانت متناسبة مع اتّساع رقعة ملكه وحكومته، نظراً لتجاوز حدود مملكته لعالم البشرية.

هذا الكلام يمكننا استنتاجه بوضوح من قول الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام فى معرض جوابه عن سؤال «ابن السكيت» (العالم

المعروف بأدبيات العرب).

حينما سأل «ابن السكيت»: لماذا بعث اللَّه موسى بن عمران بيده البيضاء والعصا وآلة السحر، وبعث عيسى بالطب، وبعث محمّداً صلى الله عليه و آله بالكلام والخطب؟

قال الإمام عليه السلام: «إنّ اللَّه تبارك وتعالى لمّا بعث موسى كان الغالب على أهل عصره السحر، فآتاهم من عند اللَّه بما لم يكن في وسع القوم مثله، وبما أبطل به سحرهم وأثبت به الحجّة عليهم.

وأنّ اللَّه بعث عيسى في وقت ظهرت فيه العاهات واحتاج الناس إلى الطب، فآتاهم من عند اللَّه بما لم يكن عندهم مثله، إذ أحيى لهم الموتى وأبرأ الأكمه والأبرص بإذن اللَّه، وأثبت به الحجّة عليهم، (طبعاً كانت مهنة الطب والطبابة رائجة كثيراً).

وإنّ اللَّه بعث محمّداً صلى الله عليه و آله في وقت كان الغالب على أهل عصره الخطب والكلام، فآتاهم من كتاب اللَّه ومواعظه وأحكامه ما أبطل به قولهم، وأثبت الحجّة عليهم.

فحينما سمع ابن السكيت هذا الكلام قال: «تاللَّه ما رأيت مثل اليوم قطّ» أو (تاللَّه ما رأيت مثلك اليوم قطّ)» «۱».

۴- السحر لا يضاهي المعجزة

وهنا يرد سؤال مهمّ آخر كان قد تجسّد في كلمات العلماء منذ قديم الأيّام، وهو أنّه كثيراً ما يشاهد أنّ أشخاصاً حتّى من الكفّار قد نالوا قسطاً من خوارق العادات نتيجة للرياضات

(۱) بحار الأنوار، ج ۱۱، ص ۷۰ (باب علّة المعجزة، ح ۱).

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۴۰

الشاقّة ومقاومة ميول النفس والتمارين الصعبة للغاية، وبالخصوص بين مرتاضي الهند، وهناك نماذج مختلفة منها في كتب العلماء والصحف اليومية، وهي بكثرة بحيث لا يمكن إنكارها، بل إنّ أصعب الناس تصديقاً حينما يرى هذه المواقف يذعن بإمكان صدور الامور الخارقة للعادة من أفراد لا يمتّون للدين بصلة.

والآن يثار هذا السؤال: وهو أنّه كيف يمكننا التمييز بين خوارق العادات هذه وبين معجزات الأنبياء؟ ولو كان هناك تفاوتاً بينهما فما هو؟ ألا يحتمل أن تكون معجزة النبي من قبيل خوارق العادات لدى المرتاضين أيضاً؟

الجواب: ينبغي أوّلًا تقديم تعريف مختصر عن «السحر» فهناك أبحاث موسّعة عن ماهية السحر وتاريخ ظهوره، إذ من الصعب تحديده بتأريخ معيّن، لكن يمكن القول: إنّ السحر يعني في الأصل كلّ أمر لا يعرف مصدره، ويطلقونه عادةً على الامور الخارقة للعادة التي تتمّ بطرق معيّنة، والهدف منه هو إغفال الناس وخداعهم.

كما ويتوسّلون أحياناً بالعوامل التلقينية أي إنّهم يعكسون أمام أنظار العوام مسائل لا حقيقة لها، بالتلقينات القويّة والمؤثّرة، ويستفيدون أحياناً من المهارة والخدعة، وهي ما يصطلح عليها ب «الشعوذة»، وهكذا يشغلون الناظر بأشياء معيّنة ثمّ يحرّكون الأشياء عن مواضعها بسرعة ومهارة بحيث لا يلتفت إليها الناظر بل يظنّها خرقاً للعادة.

كما ويستعينون أحياناً بالخواصّ الفيزيائية والكيميائية المجهولة لبعض الأجسام، أو الامور المرتبطة بكيفية صدور النور من زوايا مختلفة، بحيث يرى الناظر أمامه اموراً خارقة للعادة لا يعلم بأسرارها.

وأخيراً تلك الامور الخارقة للعادة عن طريق الإرتباط بالأرواح والإستعانة بالشياطين، وهذه كلّها تندرج تحت المفهوم اللغوي الجامع لكلمة «السحر».

كما يمكن اعتبار أعمال المرتاضين التي يؤدّونها عن طريق التمارين الشاقّة، وتمركز القوى الروحية والبدنية ضرباً من «السحر» أيضاً،

وإن كانت تعدّ أحياناً خرقاً للعادة فى قبال السحر.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۴۱

على أيّة حال فأداء هذه الامور من قبل البعض لا يمكن إنكاره، لكن الشىء المهمّ هو الوقوف على مميّزات كلّ من «المعجزات» و «السحر وخرق المرتاضين للعادات»، ليتبيّن الفرق بينهما بالكامل.

وهنا نواجه بعض الاختلافات البارزة:

۱- المعجزة مستندة على القوّة الإلهيّة فى حين أنّ سحر السحرة وخرق المرتاضين للعادات ينبعان من القوّة البشرية، ولذا فالمعجزات عظيمة جدّاً وغير محدودة، بعكس السحر وخرق العادات المحدودين.

وبعبارة اخرى، فالسحرة والمرتاضون على استعداد لأداء تلك الامور التى تمرّنوا عليها لا غير، دون التى تقترح عليهم، ولم يحدث إلى الآن أن عَبَّرَ السحرة أو المرتاضون عن استعدادهم لأداء ما يشير إليه الآخرون، وذلك لِتدُرّب كلّ واحد منهم على نوع معيّن.

صحيح أنّ الأنبياء عليهم السلام كانوا يبادرون إلى إظهار المعجزات حتّى قبل أن يطالبهم بها الناس، (كالقرآن بالنسبة لنبى الإسلام صلى الله عليه و آله، ومعجزة عصا موسى ويده البيضاء، وإحياء المسيح للموتى) لكنّهم مع ذلك لم يعجزوا عن إجابة إقتراحات الامم عليهم، كمسألة شقّ القمر، أو رفع الفتن والبلايا عن الفراعنة، أو نزول مائدة سماوية للحواريين، وأمثال ذلك (طبعاً على شرط كون ذلك بدافع الكشف عن الحقيقة لا التعنّت).

ولذا نجد فى قصّة موسى عليه السلام أنّ الفراعنة طلبوا منه مزيداً من الوقت لجمع السحرة وترتيب مقدّمات العمل، وذلك تحت عنوان: «فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفّاً». (طه/ ۶۴) فى حين أنّ موسى كان فى غنىً عن مثل هذه المقدّمات، كما أنّه لم يطلب منهم اعطائه الفرصة للتفكير فى كيفية مقاومة السحرة، حتّى بعد اطّلاعه على سحرهم، وذلك لاعتماده على القدرة الإلهيّة واعتماد السحرة على القدرة البشرية المحدودة.

ومن هنا فالخرق البشرى للعادات قابل للمواجهة والمقابلة بالمثل، وبإمكان الآخرين الإتيان بمثله، ولنفس هذا السبب أيضاً لا يجرؤ من يأتى بهذا العمل على «التحدّى» أى الدعوة للمقابلة والإدّعاء بعجز الكلّ عن أداء ما يؤدّيه، فى حين أنّ المعجزات كانت مرفقة

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۴۲

بالتحدّى دائماً، وذلك لعجز أى إنسان عن الإتيان بمثلها أبداً (إعتماداً على القوّة البشرية)، فقد أمر اللَّه تعالى نبىّ الإسلام صلى الله عليه و آله أن يجيبهم بهذه الآية: «قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَايَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ...». (الإسراء/ ۸۸)

ومن هنا أيضاً فسرعان ما تقهر الخوارق البشرية أمام المعجزات، ولا يستطيع السحر الوقوف امام المعجزة أبداً لعجزه عنها، بالضبط كعجز أى إنسان عن الوقوف أمام الخالق.

المثال الواضح لهذه المسألة فى القرآن الكريم قصّة موسى وفرعون، إذ إنّهم جمعوا كلّ السحرة من مختلف اصقاع مصر، وأخذوا قسطاً وافراً من الوقت لترتيب مقدّمات إبداء السحر، وقاموا برسم الخطط لذلك، لكنّهم ما لبثوا أن تقهقروا فى لحظة واحدة أمام إعجاز موسى وأضحى سحرهم كسراب بقيعة.

۲- نظراً لكون المعجزات من قبل اللَّه فهى غنية عن التدريب والتعليم الخاصّين، فى حين أنّ السحر ورياضات المرتاضين مسبوقة دائماً بنوع من التدريب والتمارين المستمرّة، إلى درجة أنّ التلميذ لو لم يتقن تعليمات استاذه لاحتمل عجزه عن أداء ذلك أمام الناس وافتضاحه فى خاتمة المطاف.

وبعبارة اخرى يمكن للمعجزة أن تتحقّق فى لحظة واحدة وبدون أيّة مقدّمات، فى حين أنّ الخوارق الاخرى للعادات عبارة عن تلك الامور التدريجية التى تحصل الإحاطة بها والسيطرة عليها بمرور الأيّام، بل السنوات والتى لا يمكنها الظهور بشكل دفعى فجائى أبداً.

وقد تمّت الإشارة فى قصّة موسى وفرعون إلى هذه المسألة أيضاً، حيث يتّهم فرعون السحرة بكونهم تلامذة موسى عليه السلام، وأنّه

استاذهم الذى أطلعهم على أسرار السحر: «إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِى عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ». (طه/ ۷۱)

ومن هنا يحدث أحياناً أن يستغرق السحرة عدّة أشهر وسنين فى تعليم تلاميذهم وتدريبهم.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۴۳

۳- أحوال صاحب المعجزة دليل على صدقه، الطريق الآخر لتمييز المعجزات عن خوارق العادات البشرية هو المقارنة بين حالات أصحابها، فأصحاب المعجزات مبعوثون من قبل اللّه لهداية الناس، ولذا نراهم متّصفين بأوصاف تتناسب ودورهم هذا، فى حين أنّ السحرة والكهنة والمرتاضين لا يهدفون إلى هداية الناس، ولا يتكفّلون بمتابعة مثل هذه الأهداف، بل ينحصر هدفهم عادةً فى واحد من الامور الثلاثة التالية:

۱- إستغفال البسطاء من الناس.

۲- كسب الشهرة بين عامّة الناس.

۳- المكاسب المادّية التى تجنى عن طريق إشغال الناس وإلهائهم.

وحينما ينزل هذان الفريقان (الأنبياء، والسحرة وأمثالهم) إلى الميدان لا يتمكّنون أبداً من كتمان امنياتهم وأهدافهم مدّة طويلة، بالضبط كما طلب السحرة وقبل نزولهم للميدان أجراً عظيماً من فرعون، وقد وافق على ذلك: «قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ* قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ». (الأعراف/ ۱۱۳- ۱۱۴)

فى حين أنّ الأنبياء يكرّرون دائماً القول: «وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ». (الشعراء/ ۱۰۹) (وقد ورد هذا التعبير فى حقّ الكثير من الأنبياء فى العديد من الآيات).

ووقوف السحرة فى خدمة فرعون يكفى بنفسه للتمييز بين «السحر» و «المعجزة».

ولا يخفى أنّ حقيقة الإنسان لابدّ وأن تنعكس من خلال تصرّفاته، وإن أجاد فى كتمان أفكاره وأهدافه.

خلاصة القول هى أنّ الوقوف على بدايات حياة أمثال هؤلاء الأشخاص وكيفية استفادتهم من خرقهم للعادات التى يؤدّونها، مع الأخذ بنظر الإعتبار مكانة أمثالهم بين مختلف شرائح المجتمع، بالإضافة إلى نوعية تصرّفاتهم وأخلاقهم، يمكنها بمجموعها أن تكون دليلًا حسناً لتمييز «السحر» عن «المعجزة»، ومع غض النظر عن موارد الأخلاق الاخرى التى ذكرت، نجد أنّ من السهل تشخيص المعجزات عن السحر وبقيّة خوارق العادات من خلال هذا السبيل.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۴۴

وقد أشار القرآن إلى هذه الحقيقة بتعابير دقيقة، إذ يقول فى موضع: «قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَايُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ». (يونس/ ۸۱)

أجل فالسحرة أشخاص مفسدون ذوو أعمال باطلة، ومن الواضح أنّ أعمالًا كهذه لا يمكنها أبداً أن تكون لها حيثية إيجابية فى المجتمع.

وفى موضع آخر حينما يخاطب اللّه تعالى موسى يقول: «لَاتَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى» ثمّ يضيف: «وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى». (طه/ ۶۸- ۶۹)

نعم، فعمل الساحر مكر وخديعة، ولابدّ لميوله النفسية أن تتلاءم وعمله هذا، إنّهم أشخاص متقلّبون مخادعون، كما يسهل تشخيصهم بسرعة من خلال صفاتهم وتصرّفاتهم، فى حين أنّ إخلاص وصدق وصفاء الأنبياء عليهم السلام دليل مقرون بإعجازهم أضفى عليهم المزيد من الجلاء والوضوح «۱».

۵- منطق منكرى الإعجاز

يتشبّث منكرو الإعجاز فى بعض الأحيان بدلائل عقلية ظاهرية، وقد ذكرنا فيما سبق نماذج لها وأجبنا عليها، كما تمسّك البعض أيضاً بقسم من آيات القرآن ظنّاً منه بنفيها لمسألة معجزة الأنبياء، خصوصاً معجزة نبى الإسلام صلى الله عليه و آله، أو إنكارها للمعجزات من غير القرآن، وأهمّ الآيات التى تمسّكوا بها أو التى يحتمل البحث فيها هى الآيات التالية:

۱- نقرأ فى سورة الإسراء: «وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً* أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيراً* أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً (قطعاً) أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا* أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى (من هذا

---

(۱) ورد نظير هذا المعنى فى سورة يونس الآية ۷۷.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۴۵

الكلام الفارغ) هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولًا». (الإسراء/ ۹۰- ۹۳)

وكما نلاحظ فنبى الإسلام صلى الله عليه و آله لم يستجب أبداً لواحدة من خوارق العادات والمعجزات التى طلبها هذا الفريق من مشركى قريش، بل اقتصر جوابه على القول: «سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولًا».

۲- كما ونقرأ فى نفس هذه السورة: «وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ». (الإسراء/ ۵۹)

إذ إنّ هذه الآية أيضاً تبين أنّ اللَّه لم يعط المعجزة لنبى الإسلام صلى الله عليه و آله وذلك لأجل تكذيب الأوّلين بالآيات الإلهيّة!

۳- وجاء فى سورة هود: «فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ». (هود/ ۱۲)

هذه الآية كالاولى أيضاً التى تقول فى قبال طلب الكفّار: «إنّما أنت نذير».

۴- وجاء فى سورة الرعد أيضاً: «وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ». (الرعد/ ۷)

ألا تصرّح هذه الآيات بعدم استجابة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله لطلباتهم بشأن الاتيان بالمعجزة؟

۵- ونقرأ فى سورة الأنعام أيضاً: «وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَايَعْلَمُونَ». (الأنعام/ ۳۷)

يقول المفسّر الكبير المرحوم أمين الإسلام الطبرسى فى ذيل هذه الآية: وقد اعترض جمعٌ من الملاحدة على المسلمين بهذه الآية فقالوا: إنّها تدلّ على أنّ اللَّه تعالى لم يُنَزّلْ على محمّدٍ آية، إذ لو نزّلها لذكرها عند سؤال المشركين إيّاها (ثمّ يتعرّض بعد ذلك للردّ على هذه الشبهة وهو ما سنشير إليه فيما بعد).

يتّضح من كلام هذا المحقّق أنّ مثل هذه الوساوس حول المعجزات كانت منذ قديم الأيّام، ولم تقتصر على عصرنا هذا.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۴۶

كما أنّ هنالك عدّة روايات ذكرت حول هذا الموضوع، لكن ضعف استدلالها دفعنا لغضّ الطرف عنها.

الجواب:

الإلتفات إلى بعض الملاحظات يكفى لتوضيح تفسير هذه الآيات، كما ويضع نهاية لهذه الحجج أيضاً.

۱- من الواضح أنّ أيّاً من هذه الآيات لا ينفى المعجزات بشكل مطلق، وعلى فرض دلالتها على ما توهّمه المستدلّون فهى لا تتعدّى أكثر من نفى المعجزة عن نبى الإسلام فحسب، فضلًا عن بداهة عدم نفيها لمعجزة القرآن، وذلك لأنّ الكثير من آيات القرآن قد اعتبرت هذا الكتاب السماوى معجزة خالدة، كما ودعت كلّ المخالفين للمنازلة، لكنّهم عجزوا عن مقابلتها، فأيّة معجزة أكبر وأرفع من دعوة الإنس والجن للمقابلة وعجزهم عن ذلك «۱».

وبناءً على هذا فعلى فرض صحّة كلّ هذه الإستدلالات ستنحصر معجزة نبى الإسلام صلى الله عليه و آله بالقرآن المجيد، وهذه المسألة (وعلى فرض صحّتها) لا تخدش فى مسألة نبوّة نبى الإسلام صلى الله عليه و آله، كما أنّها لن تخدم مخالفى النبوّة بأى وجه.

آيات القرآن مليئة بمعجزات الأنبياء السابقين وخرقهم للعادات، وبهذا فمعجزاتهم هى ممّا لا يمكن إنكاره، امّا فيما يتعلّق بنبى الإسلام صلى الله عليه و آله فانّها تصرّح بإعجاز القرآن، وهكذا لن يبقى سوى نفى باقى المعجزات عن نبى الإسلام صلى الله عليه و آله، وهذا على فرض صحته لا يؤثّر فى المسائل الإعتقادية باعتباره مسألة فرعية وتأريخية لا غير.

٢- لسان هذه الآيات يكشف عن أنّ الهدف ليس نفى المعجزات الحقيقية بل الإقتراحية.

بيان ذلك: إنّ الواجب على كلّ الأنبياء هو إثبات صدق دعواهم عن طريق المعجزات أو

---

(١) راجع الآيات يونس، ٣٨ وهود، ١٣ والإسراء، ٨٨.

طرق اخرى، وبناءً على هذا فكلّما جاءوا بالمعجزة بما فيه الكفاية لم يبق هناك دافع يدفعهم لإظهار المزيد من المعجزات، إذ إنّ مهمّة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله لم تكن خرق العادة فقط، ليجلس فى زاوية ويقترح عليه كلّ شخص معجزة طبقاً لهواه، ثمّ ليقترح اخرى بعد مشاهدتها لو طاب له ذلك ويعبث بقوانين الخلقة، وبعد كلّ هذا أيضاً فإمّا أن يذعن لدعوة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أو يرفضها لو لم يرغب فيها.

وبعبارة اخرى، فالنبى مكلّف بإبداء المعجزات لطالبى الحقّ، بما يكفى لإقامة الحجّة وليس مسؤولًا أبداً للإستجابة للمعجزات الإقتراحية التى يثيرها المتذرّعون طبقاً لأهوائهم، لا لتحقيق الحقّ، بل للحصول على منفذ يخلصهم من الحقيقة.

الإقتراحات التى ذكرت فى أوّل آية دليل واضح على هذا الموضوع، فهم من جهة قد طلبوا سبع معجزات! مع أنّ واحدة تكفى للباحث عن الحقيقة.

وطلبوا من جهة اخرى معجزات يكمن فيها فناؤهم، إذ قالوا مثلًا: «أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً»، ومن الواضح أنّ طالب الحقيقة لا يطلب تلك المعجزة التى فيها فناؤه أبداً، إذ الهدف من المعجزة هو الإيمان لا الموت والفناء.

ومن جهة ثالثة فقد طلبوا المحال، كاقتراحهم مثلًا نزول اللّه والملائكة عليهم: «أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا»، وعدم وجود اللّه فى مكان معيّن ليتركه ويأتى إلى هؤلاء المتعلّلين هو ممّا لا يخفى.

ومن جهة رابعة نراهم يصرّحون بعد طلبهم للمعجزة المقترحة بأنّهم لا يؤمنون به، حتّى تؤدّى العمل الفلانى الآخر أيضاً: «أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً (من اللّه) نَقْرَؤُهُ».

ومع الأخذ بنظر الإعتبار لما تقدّم نفهم بوضوح أنّ هدفهم لم يكن سوى المعجزات الإقتراحية، وليس هناك أى نبى يستجيب لمثل هذه الطلبات.

اللطيف هو ما نقرأُهُ فى الكثير من الحوادث التأريخية المرتبطة بعصر ظهور الأنبياء، خصوصاً نبى الإسلام صلى الله عليه و آله أنّ الكفّاروبعد مشاهدتهم للمعجزات نراهم يتوسّلون بذريعة

كونها سحراً، تهرّباً من المسؤولية وتحاشياً للرضوخ لها، وهو ما قام به بالضبط فرعون وأتباعه أيضاً فى قبال موسى عليه السلام، حيث إنّهم وحتّى بعد مشاهدتهم لغلبة موسى عليه السلام بمفرده على كلّ اولئك السحرة الماهرين المرتاضين وإيمان السحرة به، والذى يدلّ بما لا يدع مجالًا للشكّ على إعجاز موسى عليه السلام، واعتماده على القدرة الإلهيّة، لم يتنازلوا عن كلامهم أيضاً، بل قالوا:

«إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ». (طه/ ٧٠)

وكذلك يقول: «وَلَوْ أَنَّنا نَزَّلْنا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتى وَحَشَرْنا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا ما كانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ (ليجبرهم على الإيمان)». (الأنعام/ ۱۱۱)

وكذلك يقول: «وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَايُؤْمِنُوا بِهَا». (الأنعام/ ۲۵)

كما يصرح وفى معرض الردّ على طلبهم لمعجزات مختلفة، بالقول: «أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ يُتْلى عَلَيْهِمْ». (العنكبوت/ ۵۱)

مفهوم هذا الكلام هو أنّ المعجزة يجب أن تهدف إلى إثبات حقّانية دعوة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله وأنّ هذا الكتاب السماوى «القرآن» هو أفضل دليل ومعجزة، فما الداعى بعد كلّ هذا للإصرار على المزيد من المعجزات الواحدة تلو الاخرى؟

۳- لا ـ شكّ أنّ المعجزات هى من عند اللَّه فى الواقع، وأنّ كلّ ما يملكه الأنبياء منها إنّما هو بإذن اللَّه وأمره، لكن ربّما يخطر على ذهن البعض أحياناً تصوّر بأنّ الأنبياء عليهم السلام، قد أصبحوا فيما يتعلّق بالمعجزات مصداقاً ل «فعّال لما يشاء»، وأنّهم يفعلون كلّ ما يريدونه، وهذا ما ساعد على اتّساع رقعة الغلو فى الأنبياء عليهم السلام ودفع بالكثير إلى اعتبارهم كالإله، ولهذا السبب لم يستجب الرسل والأنبياء عليهم السلام الإلهيّون لما يقترح عليهم من المعجزات، بل قالوا: إنّ هذا ليس من شأننا، إنّما هو منوط بإذن اللَّه وأمره ويجب أن نعرف ما هى إرادته.

الدليل على هذا الكلام هو ما نقرأه فى قوله تعالى «وَمَا كانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِىَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ». (الرعد/ ۳۸)

كما ورد نفس هذا المعنى بوضوح فى قوله تعالى: «وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۴۹

جاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جاءَتْ لَايُؤْمِنُونَ».

(الانعام/ ۱۰۹)

هذه الآية تكشف عن إلحاحهم فى طلب المعجزات من جهة، وارتباط المعجزات بإرادة اللَّه المطلقه من جهة اخرى.

آخر ما يتعلّق بهذا الموضوع هو أنّ القرآن قد ذكر الكثير من معجزات الأنبياء السابقين وخرقهم للعادات، ومن البديهى أنّ نبى الإسلام صلى الله عليه و آله لم يتمكّن أبداً من ذكر هذه المعجزات فى كتابه السماوى، ويكشف الستار عن بعضها عن طريق الوحى الإلهى، لو لم يعكس هو بنفسه جزءاً منها فى وقت يعتبر نفسه خاتم الأنبياء وأفضلهم، وكون دينه دينَ الخلود وأفضل الأديان.

كيف يقتنع الناس بامتلاك باقى الأنبياء عليهم السلام لكلّ تلك المعجزات دون نبى الإسلام صلى الله عليه و آله، مع كلّ ما يتمتّع به من منزلة وعظمة؟

هذا التحليل يبيّن أنّ لنبى الإسلام صلى الله عليه و آله بالإضافة إلى القرآن معجزات اخرى كثيرة، لم تكن أقلّ أهميّة من معجزات سالف الأنبياء عليهم السلام، وهناك أيضاً آيات قرآنية تشهد على هذا الموضوع ستأتى فى محلّها إن شاء اللَّه، وبناءً على هذا فالإصرار على نفى باقى المعجزات من قبل بعض المغفّلين لا يبدو صحيحاً بأى وجه.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۵۱

نفحات القرآن ج۷ ۲۹۹

۲- التحقيق فى مضمون دعوة الأنبياء عليهم السلام

إحدى الطرق الاخرى لمعرفة الأنبياء الإلهيين عليهم السلام هى التحقيق فيما تتضمّنه دعواتهم، أى مجموعة المعارف والأحكام والقوانين، والبرامج الإنسانية والأخلاقية البنّاءة التى يدعون إليها.

وسنتكلّم عن هذه المسألة بالتفصيل فى بحث النبوّة الخاصّة، أى إثبات نبوّة نبى الإسلام صلى الله عليه و آله كمثال على ذلك، إذ

حينما نتأمّل فى تعاليمه بدقّه نجدها وبالرغم من ظهوره فى محيط يفتقر إلى كلّ أنواع الحضارة الإنسانية بين قوم نصف متوحشين غارقين فى الخرافات والعادات الجاهلية، تمزّقهم الخلافات الكثيرة والعقائد السخيفة والكثير من الأحقاد والعداوات، نعم، وبالرغم من كلّ ذلك نجد أنّ تعاليم الدين الاسلامى عبارة عن مجموعة من العقائد التوحيدية الخالصة الحاوية على أفضل المعلومات عن اللَّه وصفاته الجلالية والجمالية، والعديد من تواريخ الأنبياء عليهم السلام المذكورة بما يتناسب ورفعة منزلتهم بالإضافة إلى الأحكام والقوانين المتضمّنة للعدالة الاجتماعية، والبرامج العارية عن أوهام الخرافات والأخلاق والقيم التى تعدّ بحقّ متمّمة لمكارم الأخلاق، ونظير هذه المسائل هو ما سنتطرق لشرحه مستدلّين بالآيات والروايات.

فهل بالإمكان ظهور مثل هذه التعاليم فى مثل تلك البيئة ومن إنسان امّى؟ أليس هذا بنفسه خير دليل على صدق من جاء بها؟

ويكفى صدق نظير هذا المعنى لوحده فى حقّ كلّ واحد من الأنبياء والأئمّة عليهم السلام للتدليل على صدقهم أيضاً، وبعبارة اخرى: هل هناك معجزة أكبر من ظهور مثل تلك التعاليم من البشر؟ إنّ استحالة هذه المسألة بدون إمداد إلهى لا تخفى على أحد، فهى المعجزة بعينها.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۵۲

بل التحقيق فى مضمون دعوة الأنبياء ونكاتها الدقيقة، وروعة إرشاداتهم يعدّ أحياناً عند أهل النظر والمعرفة أرفع درجة من المعجزات من قبيل شقّ القمر وإحياء الموتى وإشفاء المرضى، وإن كانت المعجزات المادية والحسيّة أهمّ عند عامّة الناس، وسنكتفى بهذه الخلاصة حول هذا البحث، ونترقّب شرحه فى مكان آخر.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۵۳

۳- جمع القرائن

اشارة

المراد ب «جمع القرائن» الذى نطرحه هنا باعتباره أحد أدلّة النبوّة هو كون دعوة كلّ نبى مقرونة بسلسلة من الاوضاع الزمانية والمكانية، والحيثيات الاخرى المحيطة بحياته الخاصّة والعامّة، فتشكّل بمجموعها عاملًا قويّاً يدلّل على صدق مدّعى النبوّة (مع قطع النظر عن مضمون دينه والذى تمّت الإشارة إليه سابقاً).

وهذا هو ما يستفاد منه اليوم فى المحافل القضائية، للكشف عن الحقيقة عند عدم وجود الشهود وعدم إقرار أو اعتراف المتّهم، بل يتيقّن القاضى من سلسلة القرائن التى تحفّ بالواقعة ببراءة المتّهم أو إدانته، وقد تفوق هذه القرائن بمجموعها الإقرار وشهادة الشهود من حيث الأهمية فى بعض الأحيان، نظراً لإمكان الإقرار بدافع المصلحة الشخصية كالإعتراف بالجريمة لتبرئة ساحة المجرم الحقيقى فى قبال ثورة كبيرة يحصل عليها المتهم غير الواقعى سرّاً، أو أن يكون فى الظاهر من ذوى الصلاح، أما سرائرهم فملوّثة، فى حين أنّه لو تمّ جمع القرائن بشكل صحيح وكانت بالقدر الذى يعتدّ به القاضى لكان لها دور أكبر.

فوقوع حادثة قتل مثلًا فى مكان ما مع إنكار المتّهم أو المتّهمين وعدم وجود البيّنة، يدفع بالقاضى الفطن إلى الخوض فى جمع القرائن وتسليط الضوء على امور من قبيل:

نوع العلاقة التى تربط المتّهمين بالمقتول وهل هى قائمة على الصداقة أم العداوة؟

مكان وقوع الحادثة ومميّزاته ومدى انسجامه مع المتّهمين.

وكذلك زمان وقوع الحادثة والمكان الذى كان فيه المتّهم حينها (وما هو الدليل على ذلك).

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۵۴

كيفية القتل ونوعية السلاح الذى استخدم فى القتل، مع مقارنته بالسلاح الذى شوهد أحياناً عند المتّهم.

روحية المتّهم وسوابقه:

ومن القرائن ردود فعل المتّهم حين مشاهدة ثياب المقتول الملوّثة بالدماء أو باقى آثار الجريمة، وإفادات الجيران وتردّد المتّهمين هناك وامور اخرى من هذا القبيل.

والتحقيق فى بعض الامور الاخرى قد يدفع بالقاضى أحياناً للبتّ بانتفاء العلاقة بين المتّهم والجريمة، منها السيرة الحسنة وعدم تناقض الأجوبة وامور اخرى وبذلك يكشف عن براءة المتّهم أو كونه المجرم الحقيقى، وبإمكان القاضى إصدار حكمه النهائى على أساس يقينه وعلمه الحاصل من هذه المقدّمات التى هى أقرب إلى الحسّ.

هذا النوع من الاستدلال لا يختصّ بالمسائل القضائية، بل كثيراً ما يستند إليه العلماء لحلّ المشاكل التأريخية والاجتماعية العالقة، وحتّى فرضيات العلوم الطبيعية، بل أن دور هذا الاسلوب لا يمكن إنكاره خصوصاً فيما يتعلّق بالمسائل السياسية التى تبقى جذورها- ولأسباب لا تستحقّ التعليق- غامضة على الأعمّ الأغلب.

كما ويمكن غالباً التعرّف عن هذا الطريق على الأنبياء الصادقين، وتمييزهم عن غيرهم فيما يتعلّق بالمدّعين للنبوّة، إذ ينبغى هنا مثلًا الإلتفات إلى الامور التالية:

۱- ما هو وضع البيئة والاصول العقائدية والأخلاقية الحاكمة عليها، وهويّة القوم الذين ينتمى إليهم؟

۲- زمان الدعوة ووضع العالم آنذاك، وماهيّة الظروف المهيمنة على محيط حياة مدّعى النبوّة فى ذلك الزمان.

۳- الخصوصيات الأخلاقية والصفات والروحيات وسيرته من حيث التقوى والورع والأمانة.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۵۵

۴- هل الأفراد الذين اتّبعوه متّصفون بالصدق والذكاء أم أنّهم سفهاء لا تقوى لهم؟

۵- مدى إيمانه بادّعائه وحجم تضحيته وإيثاره.

۶- الطرق التى يسلكها للتعجيل بتحقيق أهدافه وهل هى مشروعة، أم ظالمة وغير منطقية؟

۷- ما هو ردّ فعله فيما يتعلّق بالقبائح أو خرافات المجتمع، وهل أنّه يخطّط لإصلاح المجتمع أم يساوم مع مفاسد المجتمع طمعاً فى كرسى الحكم؟

۸- مدى حبّه للدنيا والمظاهر المادية والمال والمقام؟

۹- ما هو موقفه من الأعداء لحظة الإنتصار، وهل يتصرّف مع معارضيه بعدالة أم لا؟

۱۰- هل تدور شعاراته مدار المصلحة الشخصية، أم أنّه يسير دائماً على اصول ثابتة بقدم راسخة؟ وقرائن اخرى.

جميع هذه القرائن التى تحفّ بحياة المدّعى العامّة والخاصّة (مع قطع النظر عن مضمون دعوته، تكون أحياناً بمثابة المشعل الوضّاء الذى يكشف عن صدقه أو كذبه بكلّ وضوح دونما حاجة إلى معجزة أو دليل)، بل وأحياناً يُعتبر توفّر بعض ما تقدّم ذكره دليلًا قاطعاً على إثبات هذا المقصود، وسنتناول هذا البحث بالتفصيل فى مبحث النبوّة الخاصّة لنبى الإسلام صلى الله عليه و آله إن شاء اللَّه.

والملفت للنظر هو ما نقرأُهُ فى العديد من الروايات فى التواريخ الإسلامية عن اعتناق أشخاص لدين اللَّه، لمجرّد الوقوف على عدد من هذه القرائن، بل إنّ عدداً من الأعداء اللّدودين غيّروا مواقفهم وعادوا أصدقاء حميمين نتيجة ذلك، ولو تمّ جمع هذه الروايات لظهر منها بحث موسّع ولطيف، يعكس نور الإيمان الذى سطع من القلوب المؤمنة لمجرّد اطّلاعها على هذه القرائن دون البحث عن أيّة معجزة.

إرشادات القرآن حول هذين الدليلين:

إنّ لآيات القرآن الكريم تعابير لطيفة حول الدليلين الأخيرين (جمع القرائن، والتحقيق

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۵۶

فى مضمون الدعوة) أو على الأقل هناك إشارات بليغة إليهما من جملتها:

۱- نقرأ فى قوله تعالى «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِى يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِى التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ...».

(الأعراف/ ۱۵۷)

تشير هذه الآية إلى أحد الأدلّة اللاحقة أي شهادة الأنبياء السابقين من جهة، وإلى عظمة مضمون دعوة ذلك النبى من جهة اخرى، وتذكر من جهة ثالثة قسماً من صفاته كشاهد على حقّانيته.

ولا شكّ أنّ الدعاة غير الإلهيين إنّما يهدفون إلى كبت طاقات الامة واستثمارها واستعمارها بدل السعى لتحريرها.

إنّهم لا يؤيّدون أبداً الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

وهل يعقل صدور كلّ هذه المعارف الرفيعة والأحكام والقوانين والأوامر المدروسة من شخص جاهل ياترى؟

۲- تمّت الإشارة إلى خمسة أوصاف من صفات النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، والتى يمكنها أن تشهد على صدق دعوته، يقول تعالى: «لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ». (التوبة/ ۱۲۸)

۳- تمّت الإشارة فى سورة (الكهف/ ۶) إلى حرص النبى الأكرم صلى الله عليه و آله الشديد على هداية المؤمنين، والذى يعدّ بنفسه دليلًا ناطقاً على إيمانه بهذا الدين الإلهى: «فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً» «۱». (الكهف/ ۶)

۴- تمّ التأكيد على أنّ النبى الأكرم كان اميّاً، لما فى ذلك من دور فى إزالة حالة الشكّ والتردّد التى تثار حول نبوّته، يقول تعالى: «وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ». (العنكبوت/ ۴۸)

---

(۱) وورد نظير هذا المعنى فى سورة (الشعراء/ ۳).

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۵۷

۵- وفى الآية التى بعدها تمّت الإشارة إلى المبشّرين بهذا الدين والمؤمنين به، يقول تعالى: «بَلْ هُوَ (القرآن) آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِى صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ». (العنكبوت/ ۴۹)

لا شكّ أنّ تأكيد علماء الامّة ومفكّريها على شيء ما، يمكنه أن يكون دليلًا وقرينة على حقّانيته.

۶- كثيراً ما نقرأ فى آيات القرآن عند وصفها للأنبياء الإلهيين ونبى الإسلام صلى الله عليه و آله أنّهم لم يطلبوا أجراً أبداً، ولم يفكّروا فى العطايا الماديّة وأنّهم بقوا على عهدهم هذا طول عمرهم، فى حين أنّ المدّعى كذباً لهذا الأمر سيكون ادّعاؤه بلا شكّ لُامور ماديّة.

من جملتها ما نقرأه فى قوله تعالى «اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُّهْتَدُونَ» (وآثار التقوى والنزاهة ظاهرة عليهم). (يس/ ۲۱)

۷- كما نجد فى أكثر آيات القرآن الطبقات المسحوقة والمستضعفة، كانت فى الصفّ الأوّل من الذين آمنوا بالأنبياء الإلهيين، وهذا ما كان يطعن به الأثرياء المتكبّرون غالباً.

ومن جملتها ما نقرأه فى القرآن الكريم حينما استشكل فريق من الأغنياء على نبى الإسلام صلى الله عليه و آله حول هذا الموضوع إذ أمره القرآن بعدم التخلّى عن هذه الثلّة المؤمنة المستضعفة أبداً:

«وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا

قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً* وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَّبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ...». (الكهف/ ۲۸- ۲۹)

ولا شكّ أنّ المصلحة المادية تدفع بالمدّعين كذباً، وعبدة الدنيا للإلتفاف حول أهل الثراء على طول الخطّ.

بل نقرأ فی قسم من الآيات الشريفة أنّ هذه الطبقة المستكبرة اعتبرت المؤمنين المستضعفين طبقة المجتمع السفلى، التی لم تثبت وجودها وعبّرت عنها ب «الأراذل»، والتدقيق فی آيات القرآن يكشف عن أنّ الكثير منها تشير إلى هذا الدليل والذی قبله.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۵۹

۴- شهادة الأنبياء السابقين

الطريق الآخر الذی يمكن من خلاله تمييز الأنبياء عليهم السلام عن المدّعين كذباً هو إخبار الأنبياء السابقين القطعية الصريحة بالنسبة للأنبياء اللاحقين، باستثناء أوّل نبی إذ لا يمكن التعرّف عليه عن هذا الطريق بل لابدّ من الرجوع إلى أحد الطرق الثلاثة التی تقدّم شرحها وهی (الإعجاز، والتحقيق فی مضمون الدعوة، وجمع القرائن).

وهذا الطريق ليس بتلك السهولة التی توهّمها بعض النفعيين بالرغم من كونه أسهل من سابقيه، ولغرض الحصول على نتيجة قطعية غير قابلة للإنكار هنا ينبغی مراعاة الشروط الأربعة التالية:

۱- إثبات «نبوّة» النبی السابق الذی يخبر عمّن يأتی بعده ويذكر صفاته، بالدليل القطعی الذی لا يقبل الإنكار، ولا يعتدّ بإخباره وشهادته هذه إلّابعد إحراز نبوّته بشكل تامّ مسلّم به.

۲- صدور هذا الخبر عن النبی السابق يجب أن يكون قطعيّاً، وعلى هذا فلا يعتدّ بالأخبار الضعيفة والمشكوكة من أی مصدر كانت، بل لا يعتدّ حتّى بأخبار الكتب المعتبرة لو لم تبلغ مرتبة القطع واليقين.

۳- دلالة هذا الخبر يجب أن تكون صريحة قطعية غير قابلة للاحتمال، إذ من الخطأ التمسّك بأحد شقّی الإحتمال والتكلّف بتطبيقه على نبوّة المدّعی الجديد بتفاسير وتوجيهات، بل وحتّى «تحريفات» فی بعض الأحيان، لأنّ هدف النبی السابق من إخباره هذا إنّما هو الكشف عن حقيقة خطيرة تقرّر مصير المستقبل، وتوقف أصحابه على هويّة النبی الجديد، وليس اللعب بالألغاز لإسدال الستار على «السرّ المكتوم»، إذ الصراحة فی

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۶۰

موقف كهذا حاكمة على الكناية بكلّ تأكيد، وذلك لسدّ الباب أمام المتذرّعين ومثيری الفتن.

وقد تمسّك بعض مبتدعی الدين المحترفين بتأويلات وتخريجات عجيبة بالنسبة للكتب السماوية، وبلغ بهم الحدّ إلى التوسّل بحسابات ال «ابجد»! وحسابات العرّافين وأمثالها.

كيف يفكّرون ياترى؟ فالنبوّة التی ينبغی أن تكون مشعلًا لهداية البشرية ليست شيئاً محظوراً مبهماً كأسرار الكيميائيين القدماء لتتمّ عن طريق حسابات الأبجد «الصغير» و «الكبير» خوفاً من وقوعها فی غير محلّها.

۴- يجب أن تنطبق العلامات التی جاءت فی أقوال الأنبياء السابقين بالكامل على حالة المدّعی الجديد، لا أن نتصرّف فيها بملء الفراغات وحذف الإضافات التی نتصوّرها، لأنّ ذلك يعنی بالتأكيد خداعنا لأنفسنا، إذ إنّ نبيّاً كهذا إنّما هو مرسل من قبل «أفكارنا الشيطانية» لا من قبل اللَّه تعالى!

لو تمّ جمع هذه الجهات الأربع الواردة فی أخبار النبی السابق لأمكن التعرّف من خلالها على مقام نبوّة المدّعی الجديد ولو غاب أحدهما لاعتلّت النتيجة.

وعلى أيّة حال فقد تمّت الإشارة إلى هذه المسألة فی موردين قرآنيين على أقلّ تقدير، وقد اكتفينا فی هذا البحث الكلّی (النبوّة العامّة) بشرح مختصر على أمل تفصيل ذلك فی «النبوّة الخاصّة»:

۱- حول بشارة المسيح عليه السلام بالنسبة لظهور نبى الإسلام صلى الله عليه و آله نقرأ فى الآية: «وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِى إِسْرَائِيلَ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنْ بَعْدِى اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ».

(الصف/ ۶)

لا- يخفى وجود هذه البشارة (أو البشارات) حتّى فى أناجيل اليوم المحرّفة، وهو ما سنوكل البحث فيه وكذا فيما يتعلّق بكون الإسم «أحمد» من أسمائه الشريفة صلى الله عليه و آله إلى

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۶۱

جانب الاسم «محمّد» (مدعوماً بالشواهد والقرائن) إلى المستقبل.

۲- بشارة التوراة (أو التوراة والإنجيل) بظهور نبى الإسلام صلى الله عليه و آله والتى تعرّضت لها عدّة آيات قرآنية، هى من الوضوح عند ذكرها لصفاته وكأنّه صلى الله عليه و آله يعيش بين ظهرانيهم يعرفونه كأحد أبنائهم.

بل جاء فى التواريخ أنّ هجرة اليهود من الشام وفلسطين إلى المدينة والإستقرار فيها إنّما كان لأجل تلك البشارات التى وجدوها فى كتبهم حول ظهور النبى (هذا الموضوع ورد بالتفصيل فى التفسير الأمثل ذيل الآية ۸۹ من سورة البقرة) «۱»، وعلى الرغم من كون الكثير منهم من المبلّغين لنبى الإسلام صلى الله عليه و آله لكنّهم سرعان ما انقلبوا على أعقابهم وامتنعوا عن الإيمان به بعد ظهوره، نظراً لتعرّض مصالحهم الشخصية للخطر، وقد لامهم القرآن على ذلك.

من الآيات التى تشير إلى هذا المعنى ما جاءت فى قوله تعالى: «الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ»!

(البقرة/ ۱۴۶)

وورد نفس هذا المعنى فى قوله تعالى «الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ»! (الأنعام/ ۲۰)

وجاء هذا المعنى بصراحة أجلى حيث قال تعالى «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِىَّ الْأُمِّىَّ الَّذِى يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِى التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ».

(الأعراف/ ۱۵۷)

كما أنّ أحد الاحتمالات الواردة فى تفسير الآيات القائلة بتصديق القرآن، والكتب «السابقة» هو أنّ المراد من «التصديق» هو انطباق القرآن وصفات النبى الأكرم صلى الله عليه و آله على تلك العلامات التى جاءت فى تلك الكتب «۲».

كما وأشارت الروايات الإسلامية إلى بشارة الأنبياء السابقين باللاحقين، إذ نقرأ فى أوّل

---

(۱) التفسير الأمثل، ذيل الآية مورد البحث.

(۲) لمزيد من الإطّلاع راجع التفسير الأمثل ذيل الآية ۴۹ سورة البقرة.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۶۲

خطبة من خطب نهج البلاغة: «مِن سابقٍ سُمِّىَ له من بعده، أو غابر عَرَّفَهُ مَن قَبْلَهُ».

هذا التعبير الذى كشف النقاب عن طرفى القضيّة يعدّ من أبلغ التعابير حول هذا الموضوع، كما تمّ التصريح بهذا الأمر فى حديث مفصّل عن الإمام الباقر عليه السلام إذ يقول: (وبَشَّرَ آدمُ بِنوح».

وقال فى مكان آخر: «وبَشَّرَ نُوحٌ ساماً بِهُودٍ».

وجاء عنه عليه السلام فى موضع آخر: «فَلَمّا نَزَلَتِ التَوراةُ عَلى مُوسى بَشَّرَ بِمُحَمَّدٍ صلى الله عليه و آله ... فَلَم تَزَلْ الأنبياءُ تُبَشِّرُ بِمُحَمَّدٍ صلى الله عليه و آله حَتّى بَعَثَ اللَّهُ تَبارَك وتَعالى المَسِيحَ عيسَى بنَ مَرْيَمَ فَبَشَّرَ بِمُحَمَّدٍ صلى الله عليه و آله» «۱».

(۱) شرح نهج البلاغة للخوئى، ج ۲، ص ۱۳۸- ۱۴۱.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۶۳

مسألة الوحى

اشارة

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۶۵

«كيفية الإرتباط بعالم الغيب»

تمهيد:

لا شكّ أنّ للأنبياء الإلهيين ارتباطاً بعالم الغيب وما وراء الطبيعة، وبعبارة اخرى، أنّ لهم علاقة خاصّة باللَّه تعالى، وقد استلهموا عن هذا الطريق التعاليم الخاصّة والأحكام والقوانين الإلهيّة وبلّغوها الامم.

لكن كيف كانت هذه الرابطة ياترى؟ فهذه مسألة فى غاية التعقيد، ومن السهل الإطّلاع عليها إجمالًا فى حين تعدّ الإحاطة بها تفصيلًا فى غاية الصعوبة، لاستحالة إدراكها بالدقّة من قبل من يفتقر لهذه العلاقة، بالضبط كإحساس البصير منذ ولادته بامتلاك الآخرين لحسّ إضافى، يطّلعون من خلاله على كلّ الموجودات المحيطة بهم ولامتدادات واسعة، كما ويدركون من خلالها مختلف الألوان والأنوار، أمّا ما هو هذا الحسّ، وما هى حقيقة «اللون» و «النور»؟ فهذا ما لا يمكن إدراكه أبداً.

إذن فالذى سيعرض فى مبحث الوحى وحقيقته لا يتعدّى سوى الحصول على العلم الإجمالى بخواص الوحى، مع الإجابة عن الأسئلة التى ستثار هنا، ومن هنا لا ينبغى مطالبة هذه المباحث بالكشف عن «كنه» الوحى، لاستحالة ذلك لغير الأنبياء عليهم السلام بالضبط كالمثال المتقدّم أعلاه.

فى المجلّد الأوّل من هذا التفسير «نفحات القرآن» وعند شرح خامس مصدر من مصادر المعرفة تحدّثنا بالتفصيل عن مسألة الوحى، وكشفنا النقاب عمّا يرتبط به من معارف قدر المستطاع، ولذا فقد اكتفينا بذكر موجز لمبحث الوحى، مع إضافات جديدة على ما قيل هناك، وسنوكل توضيح باقى المسائل إلى ذلك البحث، وبهذه الخلاصة نعود إلى

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۶۶

القرآن ونتأمل خاشعين فى الآيات التالية الواردة فى هذا المجال:

۱- «وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ». (الشورى/ ۵۱)

۲- «نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ* عَلَى قَلْبِكَ». (الشعراء/ ۱۹۳- ۱۹۴)

۳- «وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى». (هود/ ۶۹)

۴- «قَالَ يَا بُنَىَّ إِنِّى أَرَى فِى الْمَنَامِ أَنِّى أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِى إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ». (الصافات/ ۱۰۲)

۵- «فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِىَ مِنْ شَاطِىءِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِى الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّى أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ». (القصص/ ۳۰)

جمع الآيات وتفسيرها

طرق الإرتباط بعالم الغيب:

تمّ فی هـذه الآيات بيان مختلف الطرق التی اتّصل الأنبياء الإلهيون عن طريقها بعالم الغيب وما وراء الطبيعة بصورة إجمالية، والتی تبلغ أربعة أو خمسة طرق:

فی الآية الاولی اشير إلی ثلاثة طرق، يقول المرحوم الطبرسی فی تفسير هذه الآية:

«ليس لأحد من البشر أن يكلّمه اللَّه إلّاأن يوحی إليه وحياً كداود الذی أوحی فی صدره الزبور، أو يكلّمه من وراء حجاب مثل موسی أو يرسل رسولًا كجبرائيل إلی محمّد صلی الله عليه و آله ليبلّغه أمرَه».

فهذا الإرتباط إنّما يكون أحياناً عن طريق الإلقاء فی القلب، واخری عن طريق الأمواج الصوتية التی يسمعها النبی من الخارج، وثالثة عن طريق نزول الملك الموكّل بالوحی.

أصل «الوحی» الإشارة السريعة، وذلك يكون بالكلام علی سبيل الرمز أو بالصوت المجرّد عن التركيب اللغوی، وتارةً بالإشارة أو الكتابة.

هذا ما ذكره «الراغب» فی «المفردات»، لكن «ابن فارس» فی «المقاييس» يری

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۶۷

معناه الأصلی إلقاء علم ما بشكل خفی أو علنی علی شخص آخر.

ذكر «ابن منظور» أهمّ معانی هذه اللفظة واعتبرها الرسالة والإلهام والكلام من غير معاينة، والإلقاء فی الروع، كما ذكر معظم أرباب اللغة هذه المعانی بزيادة أو نقيصة، ولكنّ الخليل بن أحمد ذكر معناه فی كتاب (العين) بأنّه الكتابة والتدوين!

أمّا فی اصطلاح أهل الشرع فيطلق علی إبلاغ الرسائل الإلهيّة من قبل اللَّه إلی الأنبياء عليهم السلام، وإن كانت دائرة استعماله فی القرآن أوسع من هذا المعنی كثيراً، وشاملة لكلّ أنواع الإلقاء للعلم المرموز، ولذا استعمل فی مورد الغرائز أو العلوم التی استودعت عند بعض الحيوانات كالنحل مثل: «وَأَوْحَی رَبُّكَ إِلَی النَّحْلِ». (النحل/ ۶۸)

ويقول فيما يتعلّق بما ألقاه اللَّه علی قلب امّ موسی بالنسبة لولدها: «وَأَوْحَيْنَا إِلَی أُمِّ مُوسَی». (القصص/ ۷)

إذ قد تمّ التعبير عن الإلهام الإلهی لها بالوحی مع عدم كونها نبيّاً قطعاً، كما أنّ يوسف لم يكن فی طفولته نبيّاً ومع ذلك يقول القرآن فی حقّه: «وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ (اخوتك) بِأَمْرِهِمْ هَذَا (التخطيط لقتلك)».

كذلك استعملت هذه المفردة فيما يتعلّق بوساوس الشياطين الخفية إلی أتباعهم قوله تعالی: «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِی بَعْضُهُمْ إِلَی بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ». (الأنعام/ ۱۱۲)

واستعملت الأوامر الإلهيّة الغامضة فيما يتعلق بالجمادات كالأرض قوله تعالی: «بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَی لَهَا». (الزلزال/ ۵)

جملة «من وراء حجاب» تعنی أنّ اللَّه كان يخاطب نبيّه بأمواج صوتية خاصّة خافية علی الآخرين أو أنّ نبيّه كان يسمع الخطاب دون مشاهدة مصدره، بالضبط كالكلام الذی يطرق السمع من وراء الستار.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۶۸

ودار الحديث فی ثانی آية عن نزول ملك الوحی وإتيانه بالقرآن للنبی صلی الله عليه و آله، يقول تعالی:

«وَإِنَّهُ (القرآن) لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ* نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ* عَلَی قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ».

الملفت للنظر هو أنّ ملك الوحی قد تمّ وصفه بوصفين «الروح» أی عين الحياة و «الأمين» إشارة إلی الأمانة التی هی أهمّ شرط للرسالة والتبليغ.

يستفاد جيّداً من مختلف الآيات والروايات أنّ ملك الوحی المأمور بإبلاغ الرسالة إلی نبی الإسلام كان اسمه جبرائيل، فی حين أنّه

يظهر من ثالث آية من الآيات مورد البحث، أنّ الملائكة ب «صيغة الجمع» كانوا أحياناً يؤمرون بإبلاغ الوحى الإلهى إلى الأنبياء، يقول تعالى: «وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَاماً قَالَ سَلَامٌ».

البشارة التى كان يحملها هذا الفريق من الملائكة هى البشارة بولادة إسماعيل وإسحاق، إذ إنّ إبراهيم عليه السلام كان قد قضى كثيراً من عمره محروماً من الولد مع تمنّيه الذرّية لحمل لوائه.

كما كانت هنالك وظيفة اخرى للملائكة ذكرت فى الآيات التى بعدها، إلى جانب وظيفتهم الاولى فى إبلاغ إبراهيم بالبشارة الإلهيّة ألا وهى تدمير مدينة قوم لوط وقلبها رأساً على عقب.

هنالك نوع آخر من أنواع الوحى ذكر فى رابع آية وهو الرسالة التى كانت تصل إلى النبى عن طريق الرؤيا، وهى «رؤيا صادقة» لا تتفاوت مع حالة اليقظة، يقول تعالى: «قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّى أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّى أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ».

ونقرأ فى الآيات التى بعدها أنّ إبراهيم عليه السلام استعدّ لتنفيذ هذا الأمر، ولا يخفى أنّ هذه الرؤيا لو كانت مثل الرؤيا العادية لما أقدم إبراهيم عليه السلام على ذبح ابنه أبداً وهذا يكشف عن كونها وحياً إلهياً قطعيّاً.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۶۹

كما يصدق نفس هذا المعنى فى حقّ نبى الإسلام صلى الله عليه و آله فيما يتعلّق بالبشارة التى بشّر بها فى (الحلم) من دخول المسلمين إلى المسجد الحرام، وأدائهم لمناسك الحجّ بكلّ أمان:

«لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ». (الفتح/ ۲۷)

التعبير ب «صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا» يدلّ بوضوح على كون هذا الحلم حلماً إلهياً أى نوعاً من أنواع الوحى.

فى خامس وآخر آية من الآيات مورد البحث تمّت الإشارة إلى إحدى طرق ارتباط الأنبياء بمبدأ عالم الوجود، والتى اشير إليها كناية فى أوّل آية أيضاً بالتعبير (من وراء حجاب) يقول تعالى: «فَلَمَّا أَتَاهَا (حينما أتى موسى النار التى رآها بجانب الطور) نُودِىَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِى الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّى أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ».

أجل فلقد سمع موسى عليه السلام كلام اللَّه مباشرة، وطبقاً لبعض الروايات «۱» يقول موسى: «لقد سمعت كلام ربّى بجميع جوارحى، ولم أسمعه من جهة واحدة من جهاتى».

هذا الكلام سمعه موسى عليه السلام من كلّ الجهات وبكافّة جوارحه (لا الاذنين فقط)، ومثل هذا الإرتباط على حدّ قول الطبرسى فى مجمع البيان يعدّ من أفضل منازل الأنبياء وأرفع أنواع ارتباطهم بمبدأ عالم الوجود.

و لا شكّ أنّ اللَّه لم يكن جسماً وليس له سائر العوارض الجسمانية واللسان والأمواج الصوتية، لكنّه يتمكّن من إيصال مشيئته إلى سمع خواصّ عباده بالأمواج الصوتية التى يوجدها، ولغرض العلم بكونه من كلام اللَّه ينبغى أن يكون محفوفاً بالقرائن لنفى أى احتمال آخر عنه، وهذه القرائن كانت موجودة فى قصّة موسى عليه السلام وسائر الأنبياء عليهم السلام.

هذه القرائن يمكنها أن تكون رؤية النار من الشجرة الخضراء أو سماع الصوت من كافّة

---

(۱) تفسير القرطبى، ج ۱۳، ص ۲۸۳؛ تفسير مجمع البيان، ج ۴ ص ۲۵۱.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۷۰

الجهات، مع الإحساس بكونه صادراً من الشجرة أو سماعه بكلّ أعضاء بدنه، أو على حدّ قول البعض: اتّحاد صوت كلّ الكون بهذا الصوت، أو مضموناً خاصّياً غير ممكن من غير اللَّه، أو قرائن اخرى. يستفاد من سور (طه/ ۱۱)، و (النمل/ ۸) أنّ هناك كلاماً آخر أيضاً قيل لموسى عليه السلام فى هذه اللحظة إذ نقرأ فى سورة طه: «نُودِىَ يَامُوسَى* إِنِّى أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً».

ونقرأ فى قوله تعالى «نُودِىَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِى النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا»! (النحل / ۸)

على أيّة حال فمن مجموع الآيات أعلاه انعكست أشكال مختلفة من ارتباط الأنبياء بمبدأ عالم الوجود.

إنّ عجز الأدلّة العقلية عن حلّ جزئيات هذه المسألة هو ممّا لا يخفى، لانحصار وظيفتها فى بيان لزوم إرسال الرسل، وإنزال الكتب المستلزمة لارتباط الأنبياء بعالم الغيب، ومن هنا فينبغى الرجوع إلى الأدلّة النقلية للوقوف على جزئياتها.

توضيحان

۱- أقسام الوحى وكيفيته فى الروايات الإسلامية

مع خروج مسألة الوحى عن دائرة حسّ الإنسان الإعتيادى، وامتلاكنا لعلم إجمالى عنه دون العلم التفصيلى كما قلنا، فهنالك توضيحات أكثر فى الروايات الإسلامية حول هذا الموضوع نشير فيما يلى إلى بعضها:

۱- نقرأ فى حديث عن الإمام على عليه السلام أنّه ذكر تفاسير وأقسام متعدّدة للوحى:

الأوّل: «وحى النبوّة والرسالة» الوارد فى الآية الشريفة: «إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ...». (النساء/ ۱۶۳)

الثانى: «الوحى الإلهامى» الوارد فى الآية: «وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِى مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ». (النحل/ ۶۸)

الثالث: «الوحى بالإشارة» كما قال اللّه عن زكريا: «فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الِمحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً». (مريم/ ۱۱)

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۷۱

الرابع: «الوحى التقديرى» كما يقول تعالى: «وَأَوْحَى فِى كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا». (فصلت/ ۱۲)

الخامس: «الوحى الأمرى» كما نقرأ عن الحوارين: «وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِى وَبِرَسُولِى». (المائدة/ ۱۱۱)

السادس: «الوحى الكاذب» بالشكل الذى يخبر اللّه تعالى به عن الشياطين: «يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً». (الأنعام/ ۱۱۲)

السابع: «الوحى الإخبارى» كما يقول تعالى عن فريق من الأنبياء: «وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ ...». «۱» (الأنبياء/ ۷۳).

۲- يستفاد من بعض الروايات أنّ حالة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله كانت طبيعية عند نزول جبرائيل بالوحى عليه، فى حين كان صلى الله عليه و آله يحسّ بضيق شديد عندما يكون الارتباط مباشراً، بل ربّما يغشى عليه كما ورد فى توحيد الصدوق عن الإمام الصادق عليه السلام حينما سألوه: «الغشية التى كانت تصيب رسول اللّه صلى الله عليه و آله إذا نزل عليه الوحى؟ قال ذلك إذا لم يكن بينه وبين اللّه أحدٌ، ذاك إذا تجلّى اللّه له» «۲».

۳- الآخر هو أنّ جبرائيل حينما كان ينزل عليه صلى الله عليه و آله كان ينزل بأدب ووقار، كما جاء فى حديث عن الإمام الصّادق عليه السلام: (كان جبرائيل إذا أتى النبىَ قعد بين يديه قِعْدَةَ العبيد، وكان لا يدخل حتّى يستأذنه) «۳».

۴- يستفاد من روايات اخرى أنّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله قد تعرّف على جبرائيل بتوفيق إلهى كما جاء فى حديث عن الإمام الصّادق عليه السلام أنّه قال: «ما عَلِمَ رسول اللّه صلى الله عليه و آله أنّ جبرائيل من قبل اللّه إلّابالتوفيق» «۴».

---

(۱) بحار الأنوار، ج ۱۸، ص ۲۵۲.

(۲) توحيد الصدوق طبقاً لما نقله بحار الأنوار، ج ۱۸، ص ۲۵۶، ح ۵.

(۳) علل الشرائع طبقاً لما نقله بحار الأنوار، ج ۱۸، ص ۲۵۶.

(۴) بحار الأنوار، ج ۱۸، ص ۲۵۶.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۷۲

۵- وهنالك تفسير ملفت للنظر لمسألة غشية النبى الأكرم صلى الله عليه و آله عند نزول الوحى عليه، فى حديث عن ابن عبّاس إذ يقول: «كان النبى إذا نزل عليه الوحى وجد منه ألماً شديداً ويتصدّع رأسُه ويجد ثقلًا، وذلك قوله إنّا سنلقى عليك قولًا ثقيلًا، وسمعت أنّه نزل جبرئيل على رسول اللّه صلى الله عليه و آله ستّين ألف مرّةٍ».

٢- الوحى فى كلمات الفلاسفة المتقدّمين والمتأخّرين

فات الكثير من الفلاسفة القدماء والمعاصرين هذه الملاحظة وهى كون مسألة الوحى ارتباطاً خاصّاً للأنبياء بعالم ما وراء الطبيعة، وانحصار علمنا به بالإجمال دون التفصيل، إذ انّنا لا نرى سوى شبحٍ من بعيد، ونتيقّن بوجوده دون العلم بحقيقة ماهيّته.

ومن هنا فقد سعوا للوصول إلى حقيقة الوحى، لكنّهم اصطدموا بطريق مسدود بطبيعة الحال.

وهنا نتعرّض لنقد وتحليل نظريتين أو فرضيتين على الأصحّ للفلاسفة المتقدّمين والمتأخّرين حول هذا الموضوع لتتضح الحقيقة أعلاه:

النظرية الاولى: الفلاسفة القدماء كانوا يعتقدون أنّ حقيقة الوحى هى ارتباط الإنسان ب «العقل الفعّال»!

بيان ذلك: إنّهم يعتقدون بالأفلاك التسعة البطليموسية وبوجود النفس المجرّدة لكلّ واحدة من تلك الأفلاك (أى ما يماثل الروح بالنسبة لأبداننا)! كما أضافوا: إنّ «النفوس» الفلكية تستلهم من موجودات مجرّدة تدعى «العقول»، وبهذا فقد قالوا ب «تسعة عقول» لتلك الأفلاك التسعة، واعتقدوا وراء ذلك ب «العقل العاشر» أو «العقل الفعّال» باعتباره المصدر لكلّ المعلومات.

كما كانوا يعتقدون من جهة اخرى بضرورة إفاضة العقل الفعّال على النفوس الإنسانية وأرواحها لتدرك الحقائق وتضفى الفاعلية على قابلياتها، ويعتقدون بكون

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۷۳

النسبة بين قوّة الروح الإنسانية وشدّة اتّصالها بالعقل الفعّال الذى هو مصدر العلوم طردية.

واستنتجوا من هذه المقدّمات أنّ اتّصال أرواح الأنبياء بالعقل الفعّال ولشدّة قوّتها يفوق العادة، ولهذا السبب تمكّنت من استلام معلوماتها الكليّة (صورها) من العقل الفعّال فى أغلب الأحيان، ونظراً لحدّة «قواهم التخيلية» التى يدركون بواسطتها «الصور الجزئية» ولتبعيّتها للقوّة العقلية فى نفس الوقت، فقد تمكّنت من إعطاء صور محسوسة مناسبة لتلك «الصور الكليّة» التى استلموها من العقل الفعّال، لتتجسّد فى افق أذهانهم متلبسة بلباس الحسّ.

فمثلًا لو كانت تلك الحقائق الكليّة من قبيل المعانى والمعارف والأحكام فبإمكانهم سماعها على شكل ألفاظ موزونة جدّاً، وفى غاية البلاغة والفصاحة على لسان شخص فى غاية الكمال، ونظراً لكمال هيمنة قواهم التخيلية على الحسّ المشترك (الحسّ الذى يدركون من خلاله صور المحسوسات) فبإمكانها إضفاء صبغة «الحسّية» على هذه الصور «الذهنية»، وتمكين النبى من مشاهدة ذلك الشخص على هيئة ملك ببصره وسماع ألفاظه باذنيه! (تأمّل جيداً).

إنتقادات

هذه الفرضية قابلة للنقد من عدّة جهات:

أوّلًا- إبتناؤها على «الأفلاك البطليموسية التسعة» و «العقول العشرة» التى أبطل أحدها بشكل قاطع، ولم يوجد أى دليل لإثبات الآخر، وبديهى أنّ فرضية كهذه لا يمكن قبولها أو تقييمها.

ثانياً- هـذه الفرضيـة ليست سوى محاولـة للاهتـداء إلى الطريق لحل مسألـة خارجة عن نطاق أفكارنا، والإحاطة بها تفصيلًا، (بالضبط كرغبة المكفوف للوقوف على حقيقـة النور والألـوان عن طريق الفرضيات التى ينسجها مستعيناً بحواسّه) إذ من الواضح أنّ فرضيّة كهذه لا يمكنها أن تلاقى النجاح أبداً.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۷۴

ثالثاً- لا- تتناسب هـذه الفرضيـة بـأى وجه مع الآيـات القرآنيـة التى تتحـدث عن الوحى، لأنّ الأخيرة تقول بصراحة: الوحى نوع من الإرتباط باللَّه، لا بالعقل الفعّال و لا عن طريق الإلهام بالقلب أو بواسطة ملك الوحى (الملك الذى هو وجود واقعى يظهر أمامه لا أنّه متولّد من القوّة التخيلية أو تأثير الحسّ المشترك)، أو أنّه يسمع تلك الأمواج الصوتيـة التى أوجدها اللَّه فى جسم مـا بأُذنيه لا أنّ للأصوات صبغة خيالية ومتولّدة من تأثير القوّة التخيلية أو الحسّ المشترك.

وبناءً على هذا فالفرضية أعلاه مردودة عقلًا ونقلًا.

النظرية الثانية- فسّر بعض الفلاسفة المعاصرين الوحى كأحد مظاهر الشعور الباطنى.

يقول فريـد وجدى فى «دائرة معارف القرن العشـرين» فى مادّة «الوحى»: كان الغربيون إلى القرن السادس عشـر كجميع الامم المتديّنة يقولون بالوحى، لأنّ كتبهم مشحونة بأخبار الأنبياء فلمّا جاء العلم الجديد الذى فسر كل ظاهرةٍ تفسيراً مادياً، ذهبت الفلسفة الغربية إلى أنّ مسألة الوحى من بقايا الخرافات القديمة، وغالت حتّى أنكرت الخالق والروح معاً.

لكن بحلول القرن التـاسع عشـر الميلادى تغيّرت وجهـة النظر فى المسائل الروحانيـة وظهرت إلى الوجود ثانيـة مسألـة الوحى، إذ أعاد فريق من العلمـاء البحث فيهـا على قاعـدة العلم التجريبى، فتوصّـلوا إلى نتائـج وإن كانت غير ما قرّره علماء الـدين الإسـلاميون، إلّاأنّها خطوة كبيرة فى سبيل إثبات أمر عظيم كان قد نسب إلى عالم الخرافة»، ثمّ يضيـف قائلًا: إنّ المؤيّدين لمسألة الروح والمظاهر الروحية دوّنوا إلى الآن (زمن تأليف دائرة المعارف) خمسين مجلّداً ضخماً حول المطالب أعلاه، وتمّ حلّ الكثير من المسائل الروحانية بها من جملتها مسألة الوحى «۱»!

هذا نموذج من كلمات العلماء حول هذه المسألة إذ الكلام حولها كثير، ولكن بالإمكان بيان خلاصة كلامهم كما يلى:

---

(۱) دائرة معارف القرن العشرين، مادّة (الوحى).

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۷۵

إنّهم اكتشـفوا أنّ للإنسان شـعوراً وإدراكاً وراء شـعوره وإدراكه الظاهرى، أطلقوا عليه اسم الشـعور الباطن أو الوجدان الخفى واعتبروا القسم الأعظم من شـعور الإنسان كامناً فيه، حتّى أنّهم شـبّهوه أحياناً بالثلوج الطافيـة فى مياه المحيطات، والتى لا يخرج منها فوق الماء إلّا عشرها فى حين تبقى تسعة أعشارها تحته.

لقـد اعتبروا الوحى نوع «تجلّ للشـعور الباطنى»، ونظراً لكون الأنبياء رجالًا يفوقون العادة، فمن الطبيعى أن يتمتّعوا بشـعور باطنى أقوى، وتجلّ يفوق العادة فى أهميّته، وهو نفس ما كان يطلق عليه القدماء اسم الوحى!

كمـا ذهب البعض أحيانـاً أكثر من هـذا وقـالوا: إنّ أفكـار وعلوم ورغبـات النبى، تخلّق له إلهامـات وتطـلّ من خلال شـعوره البـاطنى ووجدانه الخفى على تخيّله الرفيع! بل وتترك أثراً حتّى فى نظراته فيرى الملك أمامه ويسمع كلامه «۱»!

نقد وتحليل:

هذه الفرضيـة التى قال بها فريق من الفلاسفة المتقدّمين تماثل الاولى، من حيث افتقارها للسند الكافى والدليل والشاهد، ومصدرها هو نفس ما أشـرنا إليه، أى إنّهم يريدون قياس مسألة خارجة عن نطاق أفكارنا بعمقها ومحتواها بالمقاييس المتداولة، ومن المسلّم أنّ هذا

الأمر محال وغاية لا يبلغها مفكّر أبداً.

وحينما نذعن بمحدودية المعلومات دون المجهولات، يجب أن نقبل هذه الحقيقة أيضاً وهى أنّ للأنبياء الواقعيين نوعاً من الإرتباط بعالم ما وراء الطبيعة، لا يمكن شرحه وتفصيله بحواسنا الفعلية وإدراكاتنا الإعتيادية.

على أيّة حال فلهذه الفرضية جذور مشتركة مع نظرية الفلاسفة القدماء من جملتها:

١- الوحى يمثل نوعاً من الإرتباط الخاص بعالم ما وراء الطبيعة، غير مغاير للروابط الفكرية والعقلية لسائر الأفراد!

---

(١) الوحى المحمّدى، الطبعة ٢، ص ٢٤.

نفحات القرآن، ج٧، ص: ٢٧٦

٢- مصدر الوحى هو نبوغ الأنبياء وسموهم الروحى.

٣- الوحى لا يمثل وجود مجهول روحانى مستقلّ عن وجودنا يطلق عليه رسول الوحى أو الملك الإلهى، بل منشأه هو الشعور الباطنى والإتّصال بالعقل الفعّال الذى يترك أثره فى عالم الخيال، ثمّ فى إحساس النبى فيرى مظاهر الوحى ويسمعها!

لا شكّ أنّ مثل هذه التحليلات لا تتلاءم أبداً مع ما جاء به الأنبياء وما يستفاد من آيات القرآن من جهة، ومع الدليل العقلى الذى ذكرناه سابقاً من جهة اخرى.

فضلًا عن افتقارها كلّها للسند والدليل، وأساساً ما هو السروراء إعجاب بعض العلماء بعلومهم ومعارفهم المحدودة إلى هذا الحدّ الذى دفعهم لتفسير وتحليل كلّ أسرار الكون بهذه الحصيلة من العلوم والإكتشافات، هذا الأمر يشبه قيام النحلة بتفسير وتحليل أنواع رموز الكامبيوترات والسفن الفضائية والأقمار الصناعية بمعلوماتها المحدودة، فهل نعطيها مثل هذه المكانة ياترى؟

مؤلّف تفسير المنار وبعد نقله لهذه النظرية عن فريق من الفلاسفة الماديين، وبعبارات شبيهة للتى ذكرناها أعلاه، يضيف قائلًا: «لقد سرى هذا الإشتباه إلى الكثير من المسلمين الغارقين فى الشكّ والترديد، الذين يقلّدون العلماء المادّيين (بأبصار وآذان مقفلة) أو يقتنعون بتفاسيرهم، ثمّ يتعرّض بعد ذلك لنقد مثل هذه الأفكار بالشرح والتفصيل» «١».

وبهذا نكون قد وصلنا لخاتمة البحث المختصر الذى اعددناه حول مسألة الوحى، إذ وكما قلنا سابقاً فلقد شرحنا هذا الموضوع شرحاً وافياً فى «نفحات القرآن» «المجلّد الأوّل» فى مبحث «مصادر المعرفة» (المصدر الخامس).

---

(١) تفسير المنار، ج ١١، ص ١٦٣.

نفحات القرآن، ج٧، ص: ٢٧٧

الاصول العامّة لدعوة الأنبياء عليهم السلام

اشارة

نفحات القرآن، ج٧، ص: ٢٧٩

الاصول العامّة لدعوة الأنبياء

تمهيد:

من النكات المهمّة فى مباحث النبوّة العامّة هى الاهتمام بالاصول العامّة لدعوة الأنبياء التى تحظى بإنسجام خاصّ، والتى تعكس

النشاط الذى تقوم به هذه السلسلة الجليلة لأنبياء اللّه بين البشرية، كقافلة عظيمة متّحدة.

وبعبارة اخرى: يمكن تشبيههم باللجنة العلمية للجامعة التى تقوم بتعليم الطلبة وفق برمجة دقيقة، اعتباراً من المرحلة الاولى وإلى الأخيرة بشكل منسجم صفّاً بعد صف.

ومن خلال مطالعة هذه الاصول العامّة تتجلى هذه الحقيقة المتكرّرة فى القرآن، وهى أنّه «لا- تفاوت بين أنبياء اللّه، كما لا ينبغى التفريق بينهم».

و مِنَ المسلَّم أنّه لا منافاة لهذا الإنسجام مع نسخ الأديان بعضها للبعض الآخر أبداً، بالضبط كاستبدال المناهج الدراسية للجامعة فى كل سنة، إذ إنّ كتب السنة الاولى لا تصلح للثانية، وهذه لا تصلح للثالثة و ... مع أنّ اصولها العامّة منسجمة مع بعضها فى نفس الوقت، فكذلك لا منافاة لهذه المسألة مع تفاوت درجات الأنبياء لأجل تفاوت مسؤولياتهم.

هذا الإنسجام فى الاصول العامّة يؤكّد من جهة على الخطوط الأساسيّة للأديان الإلهيّة ويوقفنا عليها، كما ويوضّح حقّانية دعوتهم من جهة اخرى، إذ إنّ الساسة الدنيويّون ينفى خلفهم سلفهم طبقاً للآية: «كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا». (الأعراف/ ٣٨)

وباعتبار أنّ إحدى مميّزات الطواغيت هى حالة التضادّ القائمة بينهم على طول الخطّ.

كما ويمكن لهذه المسألة من جهة ثالثة أن تكون معياراً لمعرفة حقيقة الأنبياء، من

نفحات القرآن، ج٧، ص: ٢٨٠

المدّعين كذباً، لأنّ انسجامهم وتوافقهم مع الأنبياء المعروفين السابقين سيكون كقرينة لها دورها المهم.

وبهذه الخلاصة نعود لنتأمل خاشعين فى الآيات القرآنية التالية الواردة فى هذا المجال:

١- «لَانُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ» (ولا تدفعنا التعصّبات العرقية والمصالح الشخصية لقبول فريق ورفض الآخر). (البقرة/ ١٣٦)

٢- «إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ (أنبياء بنى إسرائيل) وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً». (النساء/ ١٦٣)

٣- «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِى إِلَيْهِ أَنَّهُ لَاإِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ».

(الأنبياء/ ٢٥)

٤- «قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً». (إبراهيم/ ١٠)

٥- «يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِىوَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا». (الأنعام/ ١٣٠)

٦- «وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ».

(النساء/ ١٣١)

٧- «لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ».

(الحديد/ ٢٥)

٨- «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا (بنبى الإسلام) وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ». (البقرة/ ٦٢)

٩- «مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِى الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً». (الأحزاب/ ٣٨)

نفحات القرآن، ج٧، ص: ٢٨١

١٠- «لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِى الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَايُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً* مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً* سُنَّةَ اللَّهِ فِى الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً». (الأحزاب/ ٦٠- ٦٢)

۱۱- «وَجَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا وَأَوْحَيْنا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْراتِ وَإِقامَ الصَّلاةِ وَإِيتاءَ الزَّكاةِ وَكانُوا لَنا عابِدِينَ». (الأنبياء/ ۷۳)

۱۲- «وَلَقَدْ كَتَبْنا فِی الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ انَّ الارْضَ يَرِثُها عِبادِیَ الصّالِحُونَ».

(الأنبياء/ ۱۰۵)

۱۳- «كانَ النّاسُ أُمَّةً واحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النّاسِ فِيما اخْتَلَفُوا فِيهِ وَما اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّناتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِما اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِی مَنْ يَشاءُ إِلَى صِراطٍ مُّسْتَقِيمٍ». (البقرة/ ۲۱۳)

۱۴- «فَلَوْلا كانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسادِ فِی الْأَرْضِ إِلّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنا مِنْهُمْ». (هود/ ۱۱۶)

۱۵- «إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلامُ». (آل عمران/ ۱۹)

جمع الآيات وتفسيرها

وحدة المسير لدى الأنبياء جميعاً:

۱- الكلام فی أوّل آيـة هو عن الأمر الذی أصدره اللَّه إلى المسلمين كافةً بالقول لمخالفيهم: إنّنا آمنا باللَّه وما أنزل إلينا وما انزل إلى الأنبياء السابقين، كإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وموسى وعيسى «لانُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ» وورد نفس هذا المضمون فی آيتين اخريين من القرآن الكريم: «آمَنَ الرَّسُولُ بِما أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لانُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقالُوا سَمِعْنا وَأَطَعْنا غُفْرانَكَ رَبَّنا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ». (البقرة/ ۲۸۵)

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۸۲

وقوله تعالى: «وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُوْلَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً». (النساء/ ۱۵۲)

وبهذا فهی تؤكّد على أنّ المؤمنين الحقيقيين هم الذين لا يفرّقون بين الأنبياء الإلهيين، ويؤمنون بكلّ تعاليمهم، وهذا خير دليل على اتّحاد الاصول العامّة لتعاليمهم.

ولِمَ لا يكونون كذلك وقد بعثوا كلّهم من قبل اللَّه، وتساوت أدوارهم، كما أنّ اصول المعارف الإلهيّة وسعادة البشرية واحدة فی كلّ مكان، إذ ليست بذلك الشیء الذی يتغيّر بتغيّر جزئياته على مرّ الأيّام.

بالضبط كحاجة الإنسان إلى الطعام والملبس والمسكن والصحّة والنظافة والتربية والتعليم، إذ إنّ اصول هذه الامور ثابتة لا تقبل التغيير، فی حين أنّ جزئياتها هی فی تحوّل وتغيّر، أی، إنّ فی حالة تكامل بعبارة اخرى.

لابدّ من القول: إنّ هذه الآية وطبقاً لسبب نزولها كانت ردّاً على اليهود والنصارى، حيث كان ينفی أحدهما الآخر ويعتبر نبيّه هو الأفضل وكتابه هو الأقدس (مع إهمالهم للآخرين)، فجاء دور المسلمين للتعبير بصراحة باستحالة التفريق بين أنبياء اللَّه.

على أيّة حال فهذا يعدّ توضيحاً مجملًا لوحدة الاصول العامّة لدعوة الأنبياء، والآن نعود إلى بقيّة الآيات التی تؤكّد على كلّ واحد من هذه الاصول.

۲- مسألة الوحی هی واحدة من هذه الاصول والتی عرضت فی ثانی آية من الآيات مورد البحث، يقول تعالى: «إِنَّا أَوْحَيْنا إِلَيْكَ كَما أَوْحَيْنا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنا إِلَى إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْباطِ (أنبياء بنی إسرائيل) وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهارُونَ وَسُلَيْمانَ وَآتَيْنا داوُدَ زَبُوراً* رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلّا يَكُونَ لِلنّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ».

وعلى هذا فالكلّ يشير إلى الوحی والإرتباط بعالم الغيب، والكلّ يخطو فی مسيرة إبلاغ الدعوة الإلهيّة وإتمام الحجّة على الناس، لم

يقل أحد منهم شيئاً من عنده، والهدف النهائى للكلّ واحد.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۸۳

۳- أصل التوحيد ونفى الشرك هو أحد أهمّ اصول دعوة الأنبياء، وبشهادة آيات مختلفة من القرآن، فالتوحيد هو كلامهم الأوّل حين بعثتهم، التوحيد فى كافّة الأبعاد خصوصاً فى العبادة.

و الآية الثالثة من البحث تدور حول هذا الموضوع باعتباره أصلًا عاماً فى دعوة الأنبياء، يقول تعالى: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِى إِلَيْهِ أَنَّهُ لَاإِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ».

وورد هذا المعنى بتأكيد أكبر فى قوله تعالى «وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ». (النحل/ ۳۶)

وعلى هذا فمقاومة الطواغيت وتخصيص العبادة للّه كانا يتصدّران قائمة تعاليم كلّ الأنبياء، باعتبار كون الإنسان أسيراً ما دام فى عبادة الطاغوت، وحرّاً حيث ما يعبد اللّه وحده، اللّه الذى هو مصدر كلّ القيم السامية وصاحب الأسماء والصفات الحسنى.

الملفت للنظر هو أنّ «الطَّاغُوتَ» صيغة مبالغة للطغيان الذى يعنى التعدّى وتجاوز الحدّ، ومن هنا تطلق لفظة الطاغوت على الشيطان والوثن والحاكم الجبّار والمتكبر والمستكبر، وكلّ طريق ينتهى إلى غير الحقّ، هذه المفردة وعلى حدّ قول الراغب فى المفردات التى تستعمل فى المفرد والجمع كليهما (كما وتجمع فى نفس الوقت على صيغة «طواغيت». وفسّر لسان العرب لفظة ال «طاغوت» بمعنى الشيطان و أئمّة الضلال والإنحراف «۱».

على أيّة حال فإحدى علامات الأنبياء الحقيقيين هى الدعوة للتوحيد، واجتناب كلّ الطواغيت، فى حين أنّ المدعين كذباً يدعون الناس للشرك وعبادة الأوثان، بل وحتّى إلى عبادتهم أحياناً كفرعون، هذا النحو من النظرة السلبية للطاغوت- كما قيل فى محلّه- له أثره فى كافّة شؤون الإنسان، خاصّة فى فكّ يديه ورجليه من قيود الرقّ والعبودية ودعوته للإتّحاد والعزّة والتحرّر.

---

(۱) العجيب هو أنّ المرحوم العلّامة الطباطبائى فى تفسير الميزان، ج ۱۲، ص ۲۴۲، قد اعتبر هذه اللفظة مصدراً، مع أنّها تستعمل بالمعنى الوصفى فى كلّ المواضع، خصوصاً الموارد الثمانية الواردة فى القرآن إذ إنّها أفادت المعنى الوصفى على الأعمّ الأغلب.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۸۴

۴- التأكيد على نظام الكون للتعرّف من خلاله على اللّه هو أحد الاصول العامّة لدعوة هؤلاء الرجال الإلهيين، كما نقرأ فى الآية الرابعة من آيات بحثنا: «قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ (مع كلّ هذه العظمة والنظام فى الكون والأسرار الكامنة) يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً» (لتطووا طريق معرفة اللّه وتبلغوا الكمال اللازم).

أى هل يبقى هناك مجال للشكّ فى وجود اللّه مع الأخذ بنظر الاعتبار كلّ أسرار خلق السماوات والأرض، وأنواع الابداعات التى تحتويها والأسرار التى يتمّ كشفها يوماً بعد آخر نتيجة تطوّر العلوم والمعارف؟

صحيح أنّ معرفة الإنسان بأسرار خلق السماوات والأرض كانت فى قديم الزمان بسيطة، لكن نفس ذلك النظام البسيط الحاصل للإنسان بدقّة متواضعة يكفى لإثبات وجود الخالق، أمّا اليوم حيث تمّ فلق الخليّة وانشطار الذرّة والجزىء، والوقوف على الكثير من أسرارها فالتأمّل فى إحدى الذرّات كافٍ ليبعث نور معرفة اللّه فى القلوب، ويتحقّق هذا فى البيت الشعرى المعروف باللغة الفارسية والذى مضمونه:

قلب كلّ ذرّة حين فتحه‌تجد نوره يشعّ فيه

وقريب من هذا المعنى نجده فى البيت الشعرى المعروف والمنسوب للإمام على عليه السلام:

أتزعم أنّك جرم صغيروفيك انطوى العالم الأكبر

۵- التأكيد على مسألة المعاد باعتباره أصل آخر من اصول دعوتهم كما يقول تعالى فى الآية الخامسة من آيات بحثنا: «يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ

وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا».

هذا الكلام سواء كان صادراً من اللَّه أم الملائكة فلا فرق فى ذلك، إذ المهمّ أنّه يعكس قيام كلّ الأنبياء والمرسلين بتحذير الناس من هول يوم القيامة واشتراكهم فى هذا الأصل الأساسى.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۸۵

وهل ياترى أرسل إليهم رسُلًا من «الجنّ» (كما يبدو من كلمة «منكم») أم أنّ كلّ الرسل الإلهيين كانوا من الإنس؟ هناك نقاش بين المفسّرين، وإن ذهب معظمهم إلى الاحتمال الثانى باعتبار أنّ ما جاء فى الآية السابقة إنّما هو من باب التغليب اصطلاحاً، ومع ذلك لا مانع من قيام الأنبياء والرسل الإلهيين بتكليف رسل ووكلاء لهم من جنسهم لدعوتهم كما يستفاد ذلك من قوله تعالى

«وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ». (الأحقاف/ ۲۹)

۶- الدعوة للتقوى: وهى أيضاً من الاصول العامّة لدعوتهم عليهم السلام، وذلك لاستحالة ضمان الهدف النهائى من خلق البشر ونظام حياته الفردية والاجتماعية بدونها، نقرأ فى سادس آية من البحث: «وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ».

وهذا التعبير إلى حدّ يشمل كلّ الكتب السماوية السابقة، وبناءً على هذا فالوصيّة بالتقوى، أى، حفظ النفس وتجنّب الذنوب وعدم الخروج عن طاعة اللَّه، كان ولا يزال من الاصول المشتركة للأديان السماوية.

كما نعلم أنّ للتقوى فروعاً كثيرة، التقوى فى العمل والحديث والتفكّر والنيّة والعزم، كما أنّ للتقوى العملية فروعاً متعدّدة أيضاً، التقوى الأخلاقية والاجتماعية والسياسية، والخلاصة هى أنّ للتقوى مفهوماً واسعاً يقابل كلّ إهمال وتسيّب فى كافّة الامور، ولذا جاء فى تفسير القرطبى عن بعض الفضلاء العرفاء أنّ هذه الآية هى بمثابة القطب من الرحى وأنّ كلّ الآيات القرآنية تدور حولها «۱».

---

(۱) تفسير القرطبى، ج ۳، ص ۱۹۷۸.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۸۶

۷- الدعوة إلى العدالة الاجتماعية هى أصل آخر من هذه الاصول الأساسية، وقد وردت بصراحة فى الآية السابعة، يقول تعالى: «لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ».

ولِمَ لَمْ يكن كذلك حين يستحيل على المجتمع البشرى بلوغ أهدافه النهائية أى التكامل المعنوى مع غياب إقامة القسط والعدالة الاجتماعية؟

الملفت للنظر هو قوله: إنّ الهدف من إرسال الرسل والبيّنات والكتاب والميزان هو قيام الناس بالقسط والعدل مباشرة مع تنفيذه، لا أن يفرض عليهم ذلك فرضاً، أجل فضمان هذا الهدف مرهون ببلوغ المجتمع البشرى مرحلة إقامة القسط والعدل وتنفيذه بذاته.

وحول المراد من «البيّنات والكتاب والميزان» هناك أبحاث كثيرة للمفسّرين، أقواها كما يبدو أنّ «للبيّنات» معنىً واسعاً شاملًا لكلّ المعجزات وأنواع الأدلّة العقلية التى تقام لإثبات النبوّة، و «الكتاب» إشارة إلى مجموع تعاليمهم، وامّا «الميزان» فيعنى معايير قياس الحقّ من الباطل، أو القوانين والمقرّرات التى يصل بها الحقّ إلى أهله.

وهذه كلّها وسائل لبلوغ العدالة الاجتماعية وإقامة القسط والتى تكون بدورها مقدّمة لتوفير الأرضية المناسبة لتربية الإنسان وتعليمه وتكامله «۱».

۸- أهميّة «الإيمان» و «العمل الصالح» كقيم أساسية لإنقاذ البشرية هى أيضاً من الاصول المشتركة لتعاليم الأنبياء، نقرأ فى ثامن آية من البحث:

«إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ».

جاء فى أحد التفاسير المعروفة: إنّ أهل النجاة هم المسلمون الذين آمنوا بنبى الإسلام صلى الله عليه و آله، وثبتوا على إيمانهم وعملوا صالحاً وكذا الذين عاشوا قبل ظهور نبى الإسلام صلى الله عليه و آله وآمنوا بالأديان السماوية وعملوا صالحاً.

طبقاً لهذا التفسير ف «الإيمان» و «العمل الصالح» كانا كأصلين عامّين فى برامج كلّ الأديان الإلهيّة لغرض نجاة الإنسان.

---

(۱) لمزيد من الإطّلاع حول هذا الموضوع راجع التفسير الأمثل ذيل الآية مورد البحث.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۸۷

وهناك طبعاً تفاسير اخرى لهذه الآية بإمكانك الإطّلاع عليها بالرجوع إلى التفسير الأمثل ذيل الآية ۶۲ من سورة البقرة.

۹- القضاء على «السنن الخاطئة» التى تتسبب فى انحراف المجتمعات البشرية وتأخّرها يعدّ أيضاً من الاصول العامّة لدعوة الأنبياء.

فى تاسع آية من البحث وضمن الإشارة إلى مسألة زواج النبى الأكرم صلى الله عليه و آله من مطلّقة إبنه بالتبنّى والتى نزلت لازالة إحدى العادات الجاهلية (حيث كانوا يعتبرون الإبن بالتبنّى كالإبن الحقيقى) يقول تعالى: «مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيما فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً».

حول ماهيّة هذه السنّة التى كانت جارية فى الأقوام السابقة والتى عطف اللَّه عليها مسؤولية النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، قال فريق من المفسّرين: المراد بها هو السنّة الإلهيّة فى رفع الموانع من الاستفادة من اللذائذ المحلّلة، أو سُنّة تعدّد الزوجات التى كانت جارية فى الامم السابقة أيضاً «۱».

فى حين أنّ هناك أدلّة واضحة فى الآيات التى تحفّ بهذه الآية تشهد على أنّ هذه السنّة كانت ترتبط بإبلاغ رسالة إلهية لا تيسير اللذائذ المحلّلة، كما نقرأ فى الآية التى بعدها:

«الَّذِينَ (الأنبياء السابقون) يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ».

لكن أنسبها كما يبدو هو أنّ هذه الرسالة الإلهيّة ليست سوى «القضاء على السنن الخاطئة» فحسب.

كما نقرأ فى الآيات التى قبلها: «وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ» كما يصرّح بعد هذه الآية: «لِكَيْ لَايَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً».

(الأحزاب/ ۳۷)

---

(۱) تفسير مجمع البيان، ج ۷، ص ۳۶۱؛ تفسير الكبير، ج ۲۵، ص ۱۳؛ تفسير القرطبى، ج ۸، ص ۵۲۷۷؛ وتفسير روح المعانى، ج ۲۲، ص ۲۵.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۸۸

هذه القرائن بمجموعها تشهد بوضوح على أنّ المراد من هذه السنّة الخالدة للأنبياء السابقين هو إزالة السنن الخاطئة والخرافية تلك.

ولِمَ لا؟! وأحد أهداف بعثة الأنبياء هو تخليص الناس من مخالب مثل هذه السنن الباطلة، لتحلّ محلّها السنن الإلهيّة.

۱۰- مقاومة المنافقين بشدّة وعدم الرضوخ لهم هى إحدى الاصول الاخرى لتعاليم الأنبياء الثابتة، كما جاء فى نفس هذه الآية وبعد الإشارة إلى أعمال المنافقين القبيحة المتعمّدة فى المجتمع الإسلامى، والتهديد بأنّ هؤلاء المنافقين الكذّابين، والذين فى قلوبهم مرضٌ والذين يشيعون الأباطيل لو لم ينتهوا عن غيّهم ويرجعوا عن مواصلة أعمالهم العدوانية، لجعلناك تثور عليهم وتطردهم من كلّ مكان وتمزّقهم شرّ ممزّق: «سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا». (الأحزاب/ ۶۲)

صرّح معظم المفسّرين بأنّ المراد من هذه السنّة هى نفس مجاهدة المنافقين والأفراد المضرّين الذين لا ينتهون عن أعمالهم الشنيعة فى المجتمعات البشرية وعن عدائهم للأنبياء والمؤمنين «۱».

۱۱- اصول العبادات والأعمال الحسنة: كانت أيضاً من ضمن التعاليم المشتركة لهؤلاء القادة الحقيقيين كما يقول تعالى فى الآية الحادية عشرة من البحث، وضمن الإشارة إلى فريق من الأنبياء العظام: «وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ».

إشارة إلى أنّه وفضلًا عن مقام النبوّة والرسالة اللذين يتطلّبان استلام الوحى وإبلاغه

---

(۱) راجع تفاسير مجمع البيان؛ والمراغى؛ والكبير؛ والقرطبى؛ وروح البيان، ذيل الآيات مورد البحث.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۸۹

للناس، كانت الإمامة أى القيادة الشاملة لكل الابعاد الجسمانية والروحانية، الظاهرية والباطنية للناس ضمن مسؤوليتهم، وكان دورهم فى هذه المرحلة هو «الهداية بأمر اللَّه» أى الإيصال إلى المطلوب وبلوغ المراد، وضمن هذه المرحلة أوحى اللَّه إليهم فعل الخيرات والعبادات.

و مع أنّ إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة تعدّان من الخيرات والأفعال الحسنة، فقد تمّ التأكيد عليهما بالخصوص نظراً لأهميّتهما.

حول المراد من «الوحى» هنا فى جملة «أَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ»، فقد اعتبره أكثر المفسّرين بمعنى «الوحى التشريعى»، أى إنَّ أنواع الأعمال الحسنة وضعناها ضمن برامجهم الدينية «۱»، لكن البعض الآخر فسّره بمعنى «الوحى التكوينى» أى اننا منحناهم التوفيق لأداء هذه الأعمال بلهفة وأيّدناهم بروح القدس ليؤدّوها على أتمّ وجه.

۱۲- حكومة الصالحين: وبشكل عامّ فقد كانت حكومة «العدل الإلهى» مندرجة أيضاً ضمن برامج الأنبياء، سواء وفّقوا فى إقامتها أم أعاقتهم ظروفهم وأوضاعهم الخاصّة عن ذلك.

فى الآية الثانية عشرة من البحث إشارة لطيفة إلى هذا المعنى، يقول تعالى: «وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ (التوراة) انَّ الارْضَ يَرِثُها عِبادِىَ الصّالِحُونَ».

المرحوم الطبرسى فى مجمع البيان ذكر ثلاثة أقوال فى تفسير «الزبور» و «الذكر»:

۱- «الزبور» يعنى كلّ كتب الأنبياء و «الذكر» يعنى اللوح المحفوظ، أى أنّ هذا الحكم جاء أوّلًا فى اللوح المحفوظ ثمّ فى كلّ كتب الأنبياء.

۲- «الزبور» يعنى الكتب النازلة بعد التوراة و «الذكر» إشارة إلى التوراة.

---

(۱) طبقاً لهذا التفسير فللآية محذوف تقديره: وأوحينا إليهم الأمر بفعل الخيرات.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۹۰

۳- «الزبور» يعنى زبور داود و «الذكر» يعنى التوراة «۱».

على أيّة حال فالآية تبيّن أنّ هذا كان حكماً عامّاً وسنّة إلهيّة دائمة، تقوم بتوجيه تعاليم الأنبياء نحو تأسيس حكومة الصالحين والطاهرين فى الكرة الأرضية، وقد وفّق البعض منهم أحياناً فى تشكيل نموذج لها، وطبقاً للروايات المتواترة فسيتجسّد مصداقها الكامل عند ظهور المهدى (أرواحنا فداه).

ومن البداهة أيضاً أنّ ضمان أهداف أديان الأنبياء الإلهيين مرهون بتشكيل مثل هذه الحكومة، إذ أثبتت التجارب أنّ الأحكام الإلهيّة لا يمكن تطبيقها بالكامل عن طريق الوصايا والنصائح والحِكَم فقط، بل لابدّ من استثمار كلّ طاقات الحكومة وفى كافّة الأبعاد، مع وضع الإنسان منذ لحظة ولادته وإلى وفاته تحت إشراف التعاليم السماوية.

التعبير ب «عبادى الصالحون» تعبير جامع وبليغ جدّاً، شامل لكلّ المؤهلات من حيث «الإيمان» و «العلم» و «التقوى» و «الإدارة

والتدبير»، أجل، فمثل هؤلاء الأشخاص يمكنهم أن يكونوا وارثى حكومة السماء فى الأرض.

۱۳- الدعوة إلى الوحدة: الاختلاف أكبر عامل لفساد المجتمع وضياع الطاقات الماديّة والمعنوية لكلّ قوم وشعب، ومن هنا فأحد الأهداف الرئيسيّة للأنبياء وبرامجهم العامّة هو محاربة الاختلافات، كما نقرأ فى الآية الثالثة عشرة من البحث حيث يقول تعالى: «كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً (ثمّ ظهر الاختلاف فيما بينهم) فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ» (و ليقضوا على تلك الخلافات).

ومع هذا فقد أشعل فريق نار الفتنة وشقّ الكلمة، بل اختلفوا حتّى فى الحقائق النازلة فى الكتب السماوية: «وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً

---

(۱) تفسير مجمع البيان، ج ۷، ص ۶۶، ووردت نفس هذه المعانى الثلاثة فى تفسير القرطبى.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۹۱

بَيْنَهُمْ».

لكن: «فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ».

وبناءً على هذا فقد ظهر هنالك نوعان من الاختلاف بين الامم، الاختلاف الأوّل قبل ظهور الأنبياء والناشىء من اختلاط العلوم البشرية بأنواع الأخطاء والجهل والإشتباه فى تشخيص الحقائق، ففرّق الأنبياء بين الحقّ والباطل ووضعوا نهاية لتلك الخلافات مدعومين بالوحى.

الاختلاف الذى كان بعد ظهور الأنبياء، والناشىء من البغى والظلم والحسد وعبادة النفس، حيث قام فريق بتفسير ثمرة تعاليم الأنبياء طبقاً لميولهم ومصالحهم وحرّفوا الحقائق وفقاً لأهوائهم، فلم ينج من عاقبة هذه الاختلافات سوى المؤمنين الحقيقيين نظراً لعدم إمكان إزالة هذه الاختلافات إلّافى ظلّ الإيمان والتقوى.

ومن هنا يتّضح الجواب عن سؤال يثار حول هذه الآية وهو أنّه: لو كان مجىء الأنبياء هو من أجل حلّ الخلافات العقائدية والفكرية والاجتماعية، فلماذا واصلت هذه الاختلافات مسيرها بعدهم أيضاً؟

الآية المذكورة تقول بوجود التفاوت بين هذين الاختلافين، فالأوّل نابع من الجهل والغفلة وعدم الإطّلاع وقد زال ببعثة الأنبياء، امّا الآخر فقد كان متضمّناً لدوافع كالبغى والظلم والعناد والغرور حتّى دفع بالبعض إلى مواصلة طريق الفرقة عن قصد، حتّى بعد أن تبيّن لهم الحقّ، وفى الواقع فقد كان الاختلاف الأوّل نابعاً من قصور الناس والثانى من تقصيرهم.

على أيّة حال يستفاد من الآية الآنفة الذكر أنّ الدعوة إلى الوحدة ومحاربة الاختلاف وفى أبعاد ومجالات مختلفة كانت من بين الاصول العامّة لمسؤولية الأنبياء.

۱۴- الدعوة إلى الإصلاح والنهى عن الفساد: تعدّ أيضاً من البرامج الرئيسيّة لدعوة

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۹۲

الأنبياء، وبعبارة اخرى فالأديان الإلهيّة وبالإضافة إلى المسائل الشخصية، كانت ترقب عن كثب وضع المجتمع أيضاً وتدعو الكلّ للمشاركة فى إصلاحه ومحاربة الفساد.

ولذا تُشَمُّ من الآية «الرابعة عشرة» من بحثنا حالة من الإعتراض العامّ على الأقوام السابقة التى ابتليت بالعذاب الإلهى، حيث يقول تعالى: «فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِى الْأَرْضِ (لم يكن العلماء فى الامم التى قبلكم متصدّين للحكم ولذا شاع بينها الفساد واستحقّت عذابنا) إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ».

«اولوا بقيّة» أى «أصحاب إرث وثبات»، وحيث إنّ الإنسان يدّخر عادة الأشياء النفيسة ويحتفظ بها، فقد ورد هذا التعبير بحقّ اولئك

الـذين يمتلكون ثروة نفيسـة أى أصـحاب العلم والشخصـية والقدرة والنفوذ، ومثل هؤلاء هم الذين يتمكّنون من الوقوف بوجه الفساد ويساعدون على بقاء الامم.

على أيّـة حـال يتبيّن من هـذا التعبير أنّ التكليف بالأمر بـالمعروف، ومحاربـة الفساد خصوصاً على مستوى العلماء وأصـحاب القـدرة والنفوذ، كان موجوداً فى كلّ الأديان الإلهيّة، وأنّ الكثير من الامم قد استحقّ العقاب الإلهى نتيجة الانحراف عن هذه المهمّة.

۱۵- التسـليم لأمـر الحقّ تعـالى: الأصل الآخر الموجود فى كلّ الأديان، والحاكم عليها هو أصل التسـليم المطلق لأمر اللَّه، لـذا نقرأ فى آخر آية من البحث: «إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ».

أجـل فروح وجوهر كـلّ الأديان تعبر عن الحق وعن أمر الخالق وتمثل القوانين الإلهيّـة وجميع الحقائق، ونظراً لكون دين نبى الإسـلام صلى الله عليه و آله من أفضل الأديان الإلهيّة فقد اختير له اسم الإسلام وإلّا فبالإمكان إطلاقه على كلّ الأديان السماوية.

وبنـاءً على هـذا فالآيـة لا تعنى أنّ دين نبيّنا هو الإسـلام (وان كان هـذا هو الواقع)، بل المراد أنّ الإسـلام كان الـدين الحقيقى فى كلّ العصور، لأنّ التسليم أمام العقيدة الواقعية فى

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۹۳

مقام العمل بالأحكام الإلهيّـة كان موجوداً فى كلّ الأديان الإلهيّـة، وبناءً على هذا فالأديان الإلهيّة وإن كانت قد بدأت بأبسط أشـكالها إلى أن انتهت بأكملها إلى دين محمّـد صـلى الله عليه و آله، لكن روحها كلّها واحـدة ألا وهى التسـليم المطلق المشار إليه أعلاه، ولا تباين أبداً بينها من هذه الناحية.

كمـا يقول تعـالى فى مكـان آخر: «وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْـلَامِ (والتسـليم لأمر اللَّه) دِينـاً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى الْآخِرَةِ مِنْ الْخَاسِـرِينَ». (آل عمران/ ۸۵)

ثمرة البحث:

هـذه الاـصول الخمسـة عشـر هى من أهمّ الاـصول المشتركـة بين كلّ الأديان الإلهيّـة، وبعبارة اخرى فانّها تشـكّل العمود الفقرى لكلّ المذاهب السماوية وجميع تعاليم الأنبياء، كما أنّ بالإمكان تشخيص الأديان الحقيقية من المذاهب المختلقة والإنحرافية عن طريقها.

كما أنّ التـدقيق فيها يعكس من جهـة اخرى تلك القيم السامية لتعاليم الأنبياء وعلى مرّ القرون والأعصار، بالإضافة إلى كونها لوحدها من الأدلّة على صدق دعوتهم وحقّانية دينهم.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۹۵

الأنبياء عليهم السلام فى القرآن المجيد

اشارة

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۹۷

الأنبياء فى القرآن المجيد

تمهيد:

اشارة

سيتمّ فى هذا البحث الإجابة عن عدّة أسئلة مهمّة تدور حول أنبياء اللَّه ورسله:

١- عدد الأنبياء فى القرآن.

٢- الأنبياء اولوا العزم فى القرآن.

٣- الكتب السماوية للأنبياء.

٤- الفرق بين الرسول والنبى.

٥- لماذا ظهر الأنبياء الكبار من منطقة خاصّة؟

٦- تكامل الأديان.

القرآن هو محور كلّ هذه الأبحاث بطبيعة الحال، وعلى أساس التفسير الموضوعى، أى أنّه سيتمّ البحث فى هذه الجهات على ضوء القرآن أوّلًا، ومن ثمّ نبحث على حدة باقى المسائل المستفادة من الروايات الإسلامية، والتواريخ والأدلّة العقلية، لتتّضح مختلف أبعاد هذه المباحث.

١- عدد الأنبياء فى القرآن:

لنتمعن فى آيات القرآن الكريم خاشعين:

نقرأ فى قوله تعالى «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَّنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ». (المؤمن/ ٧٨)

يتّضح من هذه الآية عدم مجىء أسماء فريق من الأنبياء والرسل الإلهيين فى القرآن

نفحات القرآن، ج٧، ص: ٢٩٨

المجيد (على الأقل فى السور النازلة قبل سورة المؤمن) «١»، وأنّ عددهم يزيد على المذكور فى القرآن.

نظير هذا المعنى ورد أيضاً فى قوله تعالى «وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً» «٢». (النساء/ ١٦٤)

طبعاً لم يتّضح عدد انبياء اللَّه ورسله من خلال تعرّض آيات القرآن لذكر العدد، لكن يستفاد من بعض الآيات أنّ عددهم كان كبيراً جدّاً، كما نقرأ فى القرآن الكريم حيث يقول تعالى «إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَإِنْ مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خلَا فِيهَا نَذِيرٌ». (فاطر/ ٢٤)

مع الأخذ بنظر الإعتبار عنوانى «بَشيراً» و «نَذيراً»، الواردين فى حقّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله فى صدر الآية، يتّضح أنّ المراد من كلمة «نذير»، فى ذيل الآية هم انبياء اللَّه ورسله أيضاً، كما يستفاد من عموم مفهوم الآية أنّ هناك نبيّاً إلهيّاً كان قد ظهر بين كلّ امّة من الامم فيما مضى وأنّه قام بتحذيرهم. وتفسير بعض المفسّرين لكلمة «نذير» هنا بالمعنى الأوسع الشامل لكلّ الفقهاء والعلماء الذين ينذرون الناس ويحذّرونهم، يخالف ظاهر الآية بطبيعة الحال.

وبهذا يتّضح جيّداً أنّ عدد الأنبياء من وجهة نظر القرآن عدد هائل!

سؤال:

وهنا يرد هذا السؤال وهو: كيف يُمكن الجمع بين مضمون الآية أعلاه وبعض الآيات القرآنية التى تخاطب نبى الإسلام صلى الله عليه و آله بالقول: «وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِّنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَّذِيرٍ». (سبأ/ ٤٤)

وكذا فى قوله تعالى: «تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ* لِتُنذِرَ قَوْماً مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ» «٣». (يس/ ٥- ٦)

---

(١) سورة المؤمن وطبقاً لقولٍ: هى السورة السابعة والخمسون النازلة على النبى صلى الله عليه و آله.

(٢) سورة النساء طبقاً لروايةٍ: هى السورة الثانية والتسعون النازلة على النبى صلى الله عليه و آله.

(۳) ذهب معظم المفسّرين إلى أنّ «ما» فى جملة «مَا أَنذِرَ آبَاؤُهُمْ» «نافية، لجملة «فَهُمْ غَافِلُونَ»، والآية الثالثة من سورة السجدة: «لِتُنذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ»، خير شاهد على هذا المدّعى، فى حين اعتبر البعض الآخر «ما» موصولة أو مصدرية، لكن كلا هذين الإحتمالين ضعيفان حسب الظاهر، والذى قيل إنّما على أساس المعنى الأوّل.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۹۹

الجواب:

الظاهر أنّ المراد من ال «نذير» فى هذه الآيات هم الأنبياء العظام خصوصاً الأنبياء اولى العزم، الذين شاعت سمعتهم فى كل مكان، وإلّا فهناك حجّة إلهية فى كلّ زمان للمشتاقين والطالبين طبقاً لمختلف الأدلّة العقلية والنقلية التى بحوزتنا، ولو اعتبرت الفترة ما بين المسيح عليه السلام ونبى الإسلام صلى الله عليه و آله فترة ركود وجمود، فإنّما هى بسبب عدم ظهور نبى عظيم ومشهور، لا عدم وجود حجّة إلهية مطلقاً.

ولذا يقول الإمام على عليه السلام حول هذا الأمر: «إنّ اللَّه بعث محمّداً صلى الله عليه و آله وليس أحد من العرب يقرأُ كتاباً ولا يدّعى نبوّة» «۱».

على أيّة حال يستفاد من مجموع ما قيل أنّ عدد انبياء اللَّه ورسله وعلى طول التاريخ كان كبيراً جدّاً، وأنّ القرآن لم يشخّص لهم رقماً بالخصوص.

عدد الأنبياء الذين صرح القرآن بأسمائهم يبلغ ۲۶ نبيّاً فقط وهم عبارة عن: آدم، نوح، إدريس، صالح، هود، إبراهيم، إسماعيل، إسحاق، يوسف، لوط، يعقوب، موسى، هارون، شعيب، زكريا، يحيى، عيسى، داود، سليمان، إلياس، اليسع، ذو الكفل، أيّوب، يونس، عزير، ومحمّد (صلوات اللَّه وسلامه عليهم أجمعين).

وجاء فى سورة الانعام اسم ثمانية عشر منهم، يقول تعالى: «وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ* وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلّاً هَدَيْنَا وَنُوحاً هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ* وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ* وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكُلّاً فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ». (الأنعام/ ۸۳- ۸۶)

وجاء فى سورة الأنبياء اسم كلّ من إدريس وذا الكفل: «وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ». (الأنبياء/ ۸۵)

---

(۱) نهج البلاغة، الخطبة ۳۳ و ۱۰۴.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۳۰۰

نفحات القرآن ج۸ ۵

واشير فى سورة هود إلى إثنين آخرين منهم (هود وصالح): «وَيَا قَوْمِ لَايَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِى أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ». (هود/ ۸۹)

واشير فى سورة العنكبوت إلى شعيب: «وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً». (العنكبوت/ ۳۶)

واشير فى سورة التوبة إلى عُزير: «وَقَالَتْ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ». (التوبة/ ۳۰)

ونقرأ فى سورة آل عمران: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ». (آل عمران/ ۳۳)

أخيراً وفى آخر آية من سورة الفتح، ورد اسم خاتم الأنبياء صلى الله عليه و آله: «محمّد رسول اللَّه».

وهذا هو مجموع اولئك العظماء الستّة والعشرين فى مقاطع خاصّة من آيات القرآن.

لكن علاوة على هذا فهنالك ۲۶ نبيّاً عظيماً آخر اشير إليهم فى القرآن دون التعرّض لذكر أسمائهم مثل: اشموئيل «۱» الذى اشير إليه

فى سورة البقرة تحت عنوان: «وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ ...». (البقرة/ ٢٤٧)

ويوشع الذى اشير إليه فى سورة الكهف تحت عنوان: «وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ ...». (الكهف/ ۶)

إذ يعتقد الكثير من المفسّرين أنّ المراد به هنا هو يوشع بن نون.

و «أرميا» الذى ذكر فى سورة البقرة تحت عنوان: «أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ ...».

(البقرة/ ٢٥٩)

وإن اعتبره البعض «عُزير» أو الخضر، لكنّه ورد فى رواية الإمام الباقر عليه السلام باسم «أرميا».

«الخضر» الذى جاء فى آيات متعدّدة من سورة الكهف من جملتها الآية (۶۵) تحت عنوان: «عَبْداً مِنْ عِبَادِنَا»، وإن لم يرد إسمه صريحاً فى هذه الآيات، لكن طبقاً للمشهور فهو أيضاً من أنبياء اللَّه ورسله، وهنالك قرائن متعدّدة على ذلك فى آيات من سورة الكهف.

كما يستفاد من قوله تعالى أنّ الوحى كان ينزل على «أسباط بنى إسرائيل»، حيث يقول تعالى: «وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ». (النساء/ ١۶٣)

---

(١) قال البعض أنّ إسمه «يوشع»، وذهب غيرهم إلى أنّه «شمعون»، لكن المشهور بين المفسّرين هو نفس «اشموئيل» (تفسير مجمع البيان، ج ١ و ٢، ص ٣٥٠).

نفحات القرآن، ج٧، ص: ٣٠١

«الأسباط»: جمع سبط على وزن (قِسْط) تعنى هنا قبائل بنى إسرائيل التى كان لكلّ واحدة منها نبيّاً، خلاصة القول هى أنّ عدد الأنبياء الذين أشار اللَّه إلى قصصهم وحياتهم فى القرآن يتجاوز ال ٢۶ نبيّاً، لاختصاص هذا العدد بمن صرّح القرآن بأسمائهم فقط.

١- عدد الأنبياء فى الأحاديث والروايات الإسلامية:

هناك فى الروايات الإسلامية بحث واسع حول عدد الأنبياء والرسل، من جملتها ما جاء فى رواية مشهورة أنّ عددهم هو ١٢۴ ألفاً، كما بلغ عددهم فى بعضها ٨ آلاف نبى فقط أربعة آلاف منهم من بنى إسرائيل وأربعة آلاف من غيرهم «١».

جاء فى حديث عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام أنّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله قال: «خلق اللَّه عزّوجلّ مائة الف نبى وأربعة وعشرين الف نبى، أنا أكرمهم على اللَّه ولا فخر (لأنّ ذلك من لطف اللَّه)، وخلق اللَّه عزّوجلّ مائة الف وصى وأربعة وعشرين الف وصى، فعلى أكرمهم على اللَّه وأفضلهم» «٢».

ونقرأ فى حديث آخر للنبى الأكرم صلى الله عليه و آله، عن أبى ذرّ رحمه الله، قلتُ: يارسول اللَّه كم النبيّون؟، قال: «مائة ألف وأربعة وعشرون ألف نبىّ. قلت كم المرسلون منهم؟ قال ثلاث مائة وثلاثة عشر جمّاً غفيراً» «٣».

وفى حديث آخر ينقل الإمام الباقر عليه السلام عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال: «كان عدد جميع الأنبياء مائة ألف نبى وأربعة وعشرين الف نبى، خمسة منهم اولوا العزم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمّد» «۴».

٢- الأنبياء اولوا العزم فى القرآن

تمّت الإشارة فى القرآن المجيد إلى الأنبياء اولوالعزم وذلك. حين كان الخطاب موجّهاً

---

(١) تفسير نور الثقلين، ج ۴، ص ۵٣٧.

(٢) بحار الأنوار، ج ١١، ص ٣٠، ح ٢١.

(٣) المصدر السابق، ص ٣٢، ح ٢۴.

(۴) المصدر السابق، ص ۴۱، ح ۴۳.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۳۰۲

إلى نبی الإسلام صلى الله علیه و آله: «فَاصْبِرْ کَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ».

(الاحقاف/ ۳۵)

للمفسرین کلام طویل عن هویّة اولی العزم من الأنبیاء وهناک احتمالات وتفاسیر متعدّدة حول هذا الموضوع یفتقر معظمها إلى الدلیل.

ومن جملتها:

۱- الأنبیاء کلّهم اولوالعزم لتمتّعهم بعزم راسخ وإرادة قویّة! لکن هذا التفسیر إنّما یصحّ حینما تکون «مِنْ» فی جملة «من الرسل» بمعنى البیان فی حین أنّ ظاهر الآیة یدلّ على کونها تبعیضیة، وقد نقل المرحوم الطبرسی فی مجمع البیان هذا الکلام عن أکثر المفسّرین «۱».

۲- الأنبیاء اولوا العزم ۳۱۳ نبیّاً، کما جاء فی الدرّ المنثور عن جابر بن حیّان (مرسلًا) أنّه قال: «بلغنی أنّ اولی العزم من الرسل کانوا ثلاث مائة وثلاثة عشر».

۳- ویقول البعض بأنّهم اولئک الثمانیة عشر نبیّاً المذکورة أسماؤهم فی الآیات ۸۳- ۸۶ فی سورة الأنعام «۲».

۴- أنّهم اولئک الأنبیاء الذین تحمّلوا مزیداً من الصبر أمام أذى أقوامهم، وواجهوا کثیراً من الشدائد والمشاکل، وهم تسعة: نوح، إبراهیم، إسماعیل، یعقوب، یوسف، أیّوب، موسى، داود، عیسى علیهم السلام «۳».

لکن من الواضح أنّ الأنبیاء الذین صمدوا أمام المشاکل والمصاعب لم ینحصروا بهؤلاء، إذ الکثیر منهم ذاق مشاکل ومصاعب أقسى وأمرّ، فضلًا عن عدم کون الإبتلاء بالمشاکل دلیلًا على کونهم من اولی العزم.

۵- أنّهم کانوا أنبیاءَ صبروا أمام أذى الأعداء، وهم ستّة: نوح وإبراهیم وإسحاق (إسماعیل) ویعقوب ویوسف وأیّوب.

---

(۱) تفسیر مجمع البیان، ج ۹ و ۱۰، ص ۹۴.

(۲) تفسیر روح البیان نقل هذا التفسیر عن الحسن بن الفضل، ج ۲۶، ص ۳۱.

(۳) المصدر السابق.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۳۰۳

لکن وکما قلنا فالأنبیاء الصابرون لا ینحصرون بهؤلاء، بل إنّ أنبیاء مثل لوط ویحیى وجرجیس وأمثالهم تحمّلوا ضغوطاً وأذىً کثیراً.

۶- أنّهم کانوا أنبیاء مأمورین بالجهاد ومحاربة الأعداء إعلاءً لدین اللّه، وکانوا ستّة: نوح وهود وصالح وموسى وداود وسلیمان.

سقم هذا التفسیر واضح أیضاً إذ لم یقاتل الأعداء کلّ هؤلاء الستّة کما لم یتخلّ عن القتال غیرهم مطلقاً «۱»!

۷- أفضل تفسیر ورد حول اولی العزم فی القرآن المجید هو أنّهم أنبیاء جاءوا بشریعة جدیدة، وکانوا أربعة من السابقین (نوح وإبراهیم وموسى وعیسى) حیث یکتملون بنبی الإسلام صلى الله علیه و آله خمسة، والتعبیر ب (اولو العزم) إنّما هو لأجل أنّ الأنبیاء أصحاب الشریعة الجدیدة تقع على عاتقهم مسؤولیة خطیرة، وبالتالی یحتاجون إلى العزم والإرادة لأدائها، هذا المعنى نقل من حدیث عن «الإمامین الباقر والصادق» علیهما السلام.

المرحوم الطبرسی نقل هذا القول فی مجمع البیان عن ابن عبّاس، کما جاء هذا التفسیر فی «روح المعانی» عن الإمامین العظیمین الباقر والصادق علیهما السلام، وکذا عن ابن عبّاس، کما ینقل عن المفسّر المعروف السیوطی أنّ هذا من أصحّ الأقوال، وینقل عن بعض العظام من العلماء أنّ الأسماء المقدّسة لهؤلاء الأنبیاء الخمسة قد ذکرت ضمن هذا البیت الشعری:

اولوالعزم نوحٌ والخليل الممجَّدُوموسى وعيسى والحبيب محمّد صلى الله عليه و آله «۲»

۳- الكتب السماوية للأنبياء

بديهى أنّ لكلّ واحد من الأنبياء اولى العزم (طبقاً للتفسير الأخير الذى ذكرناه) كتاباً سماوياً حيث إنّ اسم البعض منها معروف بالكامل، فالقرآن المجيد هو الكتاب السماوى

---

(۱) هذه الأقوال والتفاسير نقلت بشكل رئيسى من تفاسير مجمع البيان؛ وروح المعانى؛ والدرّ المنثور ذيل الآية ۳۵ من سورة الأحقاف.

(۲) تفسير روح المعانى، ج ۲۶، ص ۳۲. نفحات القرآن، ج۷، ص: ۳۰۴

لنبى الإسلام صلى الله عليه و آله والإنجيل كتاب المسيح عليه السلام والتوراة كتاب موسى عليه السلام.

لكن ما هو اسم الكتاب السماوى لنوح وإبراهيم؟ بالإمكان الإستنتاج من الآية ۱۹ من سورة الأعلى (صحف إبراهيم وموسى) أنّ اسم كتاب إبراهيم هو ال «صحف»، بالضبط كما ذكروا اسم ال «صحف» لكتاب نوح أيضاً.

كما ورد اسم البعض من الكتب الاخرى فى القرآن من جملتها ال «زبور» الذى أنزله اللَّه على داود «وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً». (النساء/ ۱۶۳) و الظاهر أنّ الإسم الآخر للزبور هو المزامير (جمع مزمور أى الأشعار الروحية بالصوت الجذاب).

«الزبُور»: لم يكن كتاباً سماوياً حاوياً على الأحكام والشريعة الجديدة.

وبعبارة اخرى فالكتب السماوية النازلة على الأنبياء على ضربين:

۱- الكتب السماوية الحاوية على الأحكام التشريعية الجديدة، والتى تعلن عن دين جديد كالكتب الخمسة النازلة على الأنبياء الخمسة اولى العزم.

۲- الكتب الخالية من الأحكام الجديدة، المشتملة على النصائح والمواعظ والوصايا والأدعية والمناجاة، كتاب «الزبور» أو الكتاب المنسوب ل «إدريس» عليه السلام هو من هذا القبيل.

نختم هذا البحث برواية عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله:

يقول أبو ذرّ: قلت يارسول اللَّه كم الأنبياء؟ فقال: «مائة الف نبى وأربعة وعشرون الفاً.

قلت كم المرسلون منهم؟ قال: ثلاثمائة وثلاثة عشر».

ثمّ يضيف قائلًا: فسألته: كم أنزل اللَّه من الكتب السماوية؟ قال: «۱۰۴ كتب، ۱۰ كتب على آدم و ۵۰ كتاباً على شيث و ۳۰ كتاباً على إدريس و ۱۰ كتب على إبراهيم (التى يبلغ مجموعها مائة كتاب) والتوراة والإنجيل والزبور والفرقان» «۱».

---

(۱) تفسير مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۴۷۶.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۳۰۵

۴- الفرق بين الرسول والنبى

«نبى» من مادّة «نبأ» بمعنى «الرسالة» أو «الرسالة المهمّة»، وإنّما يطلق «النبى» على الأنبياء الإلهيين، نظراً لإيصالهم رسالة اللَّه إلى الخلق، وقيل أحياناً إنّ هذه المفردة مأخوذة من مادّة «نَبْوَة» (على وزن حمزة) بمعنى الرفعة والسمو، وإطلاق هذه المفردة على الأنبياء إنّما هو لعلو مقامهم ومرتبتهم.

«رسول» هی فی الأصل من مادّة «رِسْل» (علی وزن فِعْل) التی أصلها الحرکة بتؤدة وسکینة علی حدّ قول الراغب فی المفردات، وحیث إنّ المبعوثین من قبل اللّه مأمورون بمعاملة الناس بهدوء وسکینة فقد اطلقت لفظة «رسول» علیهم، لکن لکلمة «الرسول» معنیً واسعاً شاملًا لکلّ من الملائکة وکذلک الأنبیاء الإلهیین، وقد استعمل کلا المعنیین فی القرآن بشکل مکثّف.

علی أیّة حال فاستعمال کلّ من لفظتی «نبی» و «رسول» ومشتقّاتهما کثیر جدّاً فی القرآن، وحول الفرق بینهما أی من الذی یسمّی نبیّاً ومن یسمّی رسولًا؟ فالحدیث طویل.

جاء فی روایات متعدّدة منقولة عن أهل البیت علیهم السلام أنّهم قالوا فی معرض الإجابة عن السؤال عن الفرق بینهما: «النبیُ الذی یری فی منامه (ویستلم الوحی الإلهی عن هذا الطریق) ویسمع الصوت (صوت الملک) ولا- یعاین الملک، والرسول الذی یسمع الصوت، ویری فی المنام، ویعاین الملک» «۱».

کما یعتقد البعض أنّ «النبی» هو الذی یستلم الوحی، سواء کان مکلّفاً بإبلاغه أم لا، لکن لو سألوه فسیجیب حتماً، أمّا الرسول فهو صاحب شریعة، ومأمور بإبلاغها دون انتظار للسؤال أو الطلب.

وبعبارة اخری ف «النبی» هو کالطبیب الماهر الذی یقابل المرضی فی عیادته، فهو لا

---

(۱) هذا هو الحدیث الذی نقله المرحوم الکلینی عن زرارة عن الإمام الباقر علیه السلام اصول الکافی، ج ۱ ص ۱۷۶ کما نقل نفس هذا المضمون فی روایة اخری عن الإمام علی بن موسی الرضا علیه السلام (بتغییر بسیط)، وورد نفس هذا المضمون فی روایتین اخریین إحداهما عن الإمام الباقر والاخری عن کلا الإمامین (الباقر والصّادق علیهما السلام) فی اصول الکافی بتفاوت بسیط، المصدر السابق، ص ۱۷۶ و ۱۷۷.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۳۰۶

یذهب وراء المرضی، امّا لو راجعه أحدهم فلن یقصِّر فی علاجه، امّا الرسول فهو کالطبیب السیّار الذی یطوی المدن والقری والجبال والسهول والصحاری ویتوجّه إلی کلّ مکان لیتعرّف علی المرضی ویشرع فی علاجهم، إذ هو فی الحقیقة عین نابعة یسعی معینها وراء العطاشی، ولیس کمخزن الماء الذی یبحث عنه الظمئان!

الجمع بین هذا المعنی والذی سبقه هو فی غایة السهولة، إذ کلّما کانت المسؤولیة أکبر کلّما کان استلام الوحی أوضح- وبعبارة اخری فهناک تناسب طردی بین حجم المسؤولیة وبین وضوح استلام الوحی- فالنبی یری فی المنام فقط أو یسمع صوت المَلَک، أمّا الرسول فیعاین المَلَک فی الیقظة أیضاً.

کما اعتبر البعض الرسل أصحاب شریعة جدیدة امّا الأنبیاء فلیس من الضروری أن تکون لهم شریعة.

التأمّل فی آیات القرآن یبیّن أنّ مقامی «النبوّة» و «الرسالة» قد جمعا فی کثیر من الموارد فی شخص واحد، مثل نبی الإسلام صلی الله علیه و آله الذی اعطی له کلّ من عنوانی النبی وکذلک الرسول فی الآیات القرآنیة «۱».

وکذلک الکثیر من الأنبیاء الإلهیین الآخرین کانوا یتمتّعون بمقامی النبوّة والرسالة، (وبناءً علی هذا فالذین یقولون بوجود نسبة العموم والخصوص المطلق بینهما، إنّما ینطلقون من هذه الآیات).

لکنّهما ظهرا فی بعض الآیات کمعنیین متقابلین وکأنّهما مفهومان متغایران، کما جاء ذلک فی قوله تعالی: «مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِکَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِیٍّ ...». (الحجّ/ ۵۲)

إذ یجب أن یکون الرسول والحالة هذه مکلّفاً بالسعی لإبلاغ الرسالة الإلهیّة إلی الخلق

---

(۱) نقرأ فی سورة (الأعراف/ ۱۵۷) حول نبی الإسلام: «الَّذِینَ یَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِیَّ الْأُمِّیَّ»، وجاء فی سورة (الأحزاب/ ۴۵): «یَا أَیُّهَا

النَّبِیُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاکَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِیراً»، ونقرأ فی سورة (مریم/ ۵۱) حول موسی: «وَاذْکُرْ فِی الْکِتَابِ مُوسی إِنَّهُ کَانَ مُخلَصاً وَکَانَ رَسُولًا نَبِیّاً» وفی نفس السورة الآیة ۵۴ حول إسماعیل: «وَاذْکُرْ فِی الْکِتَابِ إِسْمَاعِیلَ إِنَّهُ کَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَکَانَ رَسُولًا نَبِیّاً ...»، إذ یبدو من هذه الآیات أنّ کلا هذین المفهومین قد جمعا فی شخص واحد.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۳۰۷

والإنذار والبشارة دون «النبی».

نستنتج من هذا البیان أنّ لکلّ من هاتین المفردتین معنیین إثنین، تجتمعان فی أحدهما وتتقابلان فی الآخر.

۵- لماذا ظهر الأنبیاء الکبار من منطقة خاصّة؟

یثار أحیاناً السؤال عن ظهور الأنبیاء اولی العزم أصحاب الشریعة والکتاب السماوی من الشرق الأوسط طبقاً لصریح تواریخهم، فقد ظهر نوح علیه السلام فی أرض العراق «۱»، وکان مرکز دعوة إبراهیم علیه السلام العراق والشام کما سافر إلی مصر والحجاز.

وظهر موسی علیه السلام فی مصر ثمّ جاء إلی فلسطین، وکان مرکز ولادة وظهور ودعوة المسیح علیه السلام الشام وفلسطین، وظهر نبی الإسلام صلی الله علیه و آله فی الحجاز.

کما عاش الأنبیاء الآخرون غالباً فی هذه المناطق وبشکلٍ بحیث یمکن القول: إنّ منطقة الشرق الأوسط کانت مرکزاً لظهور الأنبیاء فی العالم!

فما هو السبب وراء ظهور کلّ اولئک الأنبیاء من هذه المنطقة من العالم بالذات؟ وهل یاتری کانت المناطق الاخری فی غنیً عن بعثة الأنبیاء أو قبولهم؟

الجواب:

لدی التأمّل فی کیفیة نشوء المجتمعات البشریة وظهور حضارتها لا یبقی هناک إبهام فی هذه المسألة یبعث علی التساؤل والاستفهام، إذ إنّ أقطاب مؤرّخی العالم یصرّحون بأنّ الشرق (خصوصاً الشرق الأوسط) کان مهداً للحضارة الإنسانیة، وأنّ المنطقة التی یطلق

---

(۱) نقرأ فی حدیث عن الإمام الصّادق علیه السلام أنّه قال: «کانت الکوفة ومسجدها فی زمن نوح علیه السلام وکان منزل نوحوقومه فی قریة علی متن الفرات ممّا یلی غربی الکوفة» (تفسیر العیاشی، تفسیر سورة هود، ح ۱۹).

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۳۰۸

علیها اسم الهلال الخصیب (الهلال الخصیب إشارة إلی المنطقة التی تبدأ من وادی النیل وتمتدّ إلی مصبّ دجلة والفرات وشطّ العرب، وتظهر فی الخارطة علی شکل هلال کبیر) هی مهد الحضارات العظیمة فی العالم.

حضارة مصر القدیمة التی تعدّ أقدم حضارة عرفتها البشریة، وحضارة بابل فی العراق وحضارة الیمن فی جنوب الحجاز، وکذلک حضارة ایران والشامات، کلّها نماذج للحضارات البشریة المعروفة.

والآثار التاریخیة الباقیة فی هذه المناطق والکتابات الحجریة، کلّها شواهد حیّة علی هذا المدّعی.

إنّ عودة الحضارة الإنسانیة فی هذه المناطق إلی سبعة آلاف سنة أو أکثر من جهة، والملازمة الشدیدة بین الحضارة البشریة وبین ظهور الأنبیاء الکبار، نظراً للحاجة الماسّة للناس المتحضّرین إلی الأدیان الإلهیّة أکثر من غیرهم، ضماناً للقوانین الحقوقیة والاجتماعیة، وتفجیراً لطاقات فطرتهم الإلهیّة، مع الحدّ من الإعتداءات والمفاسد من جهة اخری، دفعتنا للقول بأنّ حاجة إنسان الیوم إلی الدین خصوصاً فی الدول الصناعیة المتطوّرة هی أکبر من أی زمان آخر.

الأقوام المتوحشّة أو البعیدة عن ألوان المدنیة لیس لها ذلک الإستعداد لتقبّل الأدیان، بل لیس لها القدرة علی نشرها علی فرض تقبّلها

لها.

لكن حينما يظهر الدين فى المراكز المتحضّرة لا يلبث أن يمدّ بجذوره ليشمل باقى النقاط، وذلك لاستمرارية تردّد الآخرين على مثل هذه المناطق، أملًا فى حلّ مشاكلهم فضلًا عن تمركز وسائل الدعاية والإعلام فيها أكثر من غيرها.

يمكن أن يقال: إذن فلماذا ظهر الإسلام الذى هو أكبر الأديان السماوية فى منطقة متأخّرة حضارياً؟

وللاجابة عن هذا السؤال نقول: لو دقّقنا النظر فى الخارطة الجغرافية لرأينا أنّ هذه المنطقة المتأخّرة أى «مكّة» كانت فى الواقع همزة وصل بين آثار خمس حضارات كبيرة

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۳۰۹

وعريقة، بل هى بمثابة مركز الدائرة بالنسبة لتلك الحضارات.

ففى الشمال حضارة الروم الشرقية والشامات، وفى الشمال الشرقى حضارة ايران والكلدانيين والآشوريين، وفى الجنوب حضارة اليمن، وفى الغرب حضارة مصر القديمة.

ولنفس هذا السبب بالضبط وضع الإسلام وضمن مرحلة انتشاره واتّساعه كلّ امتدادات هذه الحضارات الخمس تحت سيطرته وصهرها فى بودقته حيث أخذ إيجابياتها وألغى سلبيّاتها، كما أضاف إليها مسائل عقائدية وعملية مهمّة حتّى أشرقت شمس الحضارة الإسلامية على كلّ هذه المناطق من أقصاها إلى أقصاها.

الخلاصة هى أنّه ومع الأخذ بنظر الإعتبار لما ذكرناه سابقاً يتّضح السبب وراء بعث اللَّه الحكيم لأنبيائه العظام من منطقة الشرق الأوسط، ولماذا كان مشرق الأرض قاعدة لانطلاق الأديان الإلهيّة الكبيرة؟

۶- تكامل الأديان

مقدمة: تاريخ الانبياء جزء من تاريخ الاديان

تعرّض القرآن وفى آيات عديدة لبيان تاريخ الأنبياء ومن هنا سمّيت الكثير من سور القرآن بأسماء الأنبياء العظام أو أسماء اممهم، حتّى أنّ تاريخ نبى عظيم مثل موسى بن عمران عليه السلام تمّ التعرّض له فى عدّة سور ومن مختلف الأبعاد.

بديهى أنّ ذكر هذه التواريخ وبهذه الكثافة ليس لقضاء الوقت أبداً، بل لأجل أنّ الكثير من مميّزات الأديان السماوية والأفكار والأخلاق الدينية والمعارف الإلهيّة، يمكنها أن تتجسّد بشكل حى بين ثنايا هذه التواريخ وأن تنعكس أمثلتها الحيّة من خلالها.

من هنا يمكن القول ومن أجل التعرّف على مسألة النبوّة، والحقائق المتعلّقة بأنبياء اللَّه و رسله، ينبغى التحقيق فى تواريخهم بدقّة، أو بعبارة اخرى فانّ التحقيق فى تاريخ الأنبياء يعدّ قسماً من تاريخ الأديان والمسائل المتعلّقة بالنبوّة.

و لا شكّ فى أنّ هذا التحقيق يمكنه أن يكمل ما ورد فى مختلف فصول هذا الكتاب، بل

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۳۱۰

وأن يجسّد المسائل العلمية المعقّدة أمام الأنظار.

لكن نظراً لسعة الأبحاث المتعلّقة بتاريخ الأنبياء فى القرآن المجيد، بحيث تتطلب تخصيص العديد من المجلّدات لذلك، فسنتجنّب الخوض فيها فعلًا، وسنعرض إلى «تاريخ الأنبياء فى القرآن المجيد بشكل موضوعى» عند إتاحة الفرصة إن شاء اللَّه، وهو بحث مفيد وجذّاب.

كما قيل فى الأبحاث المتقدّمة، فاصول الأديان السماوية إنّما وجدت واحدة، والتفاوت إنّما يكمن فى الفروع والجزئيات فقط.

نفس هـذا الأمر يثير الاسـتفسارات التاليـة: لماذا ظهر الأنبياء اولوالعزم واحداً بعد الآخر بين المجتمعات البشـرية بكتب وأديان جديدة؟ وما الحاجـة إلى الأديان الجديـدة مع وجود الأديان السابقـة، حينما تكون الاصول واحـدة؟! ولماذا يعلن أخيراً عن الخاتميـة بحيث إنّ البشريـة لا تحتاج بعد ذلك إلى نبى جديد أو دين جديد؟!

الإجابـة عن هـذا الاسـتفسارات تتّضح من خلال التمعّن فى مضـمون الأديان الإلهيّة، صـحيح أنّهم جميعاً قد جعلوا من التوحيد أساسـاً للدين، لكن من البديهى أنّ إدراك الأقوام البدائية لهذه المسألة لم يكن كإدراك الذين واجهوا المسألة بعدهم بآلاف السنين.

أو بعبارة اخرى فالجزئيات المتعلّقـة بالتوحيـد فى الذات والأفعال وفى العبادة والخالقية والحاكمية ليست بذلك الشـىء الذى يتناسـب والمسـتوى الفكرى للأقوام الاولى، إذ كانوا يقتنعون بمفاهيم بسـيطة وإجمالية عن مسألة التوحيد، ولم يخوضوا أبداً فى هذه الجزئيات المعقّدة.

وهـذا الشـىء نفسه يمكن أن يقـال بالنسبة للمسائـل الاـخرى المتعلّقـة ب «المعـاد» و «منزلـة الأنبيـاء» وأوصافهم، وكـذلك الجزئيات المتعلّقـة ب «العبـادات»، إذ كلّمـا زادت معرفـة أهـل الأـرض بهـذه المسائـل، ونَمَتْ القابليـات جيلًا بعـد جيل تمّ تعليمهم المزيـد من الجزئيات.

فضلًا عن أنّ التطوّر الحضارى كان قد عقّد الحياة البشرية يوماً بعد آخر، وهذا التعقيد

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۳۱۱

استلزم بـدوره سنّ قوانين جديـدة لحلّ المشاكل الناتجـة عن ذلك، ولـذا ظهر الأنبياء للوجود واحـداً بعـد الآخر من أجل إنقاذ الناس وحل مشاكلهم.

هـذه المسألـة يمكن بيانها بشـكل أفضل من خلال هـذا المثال: خـذ بنظر الإعتبار المراحل الدراسـية للأطفال والفتيان والشباب، بـدءاً بالمرحلـة الإبتدائيـة والمتوسـطة وانتهاءً بالمرحلـة الجامعيـة، ومرحلـة التخصُّص، إذ العلوم المختلفـة التى تدرّس فى هذه المراحل ثابتة تقريبـاً، لكنّهـا مختلفـة بحسـب المسـتويات، فالطلبـة كلّهـم يـدرسون الرياضـيات مثلًـا، ابتـداءً بطلبـة المـدارس الإبتدائيـة ومروراً بطلبة الإعـداديات وانتهاءً برسالـة الـدكتوراه فى الرياضـيات، فى حين أنّ مسـتوياتها متفاوتـة كثيراً، إذ كلّما زاد اسـتعداد الطالب كلّما ارتفع مستوى الدروس أكثر، ومن هنا تأتى المراحل الدراسية الخمس (الإبتدائية والمتوسطة والإعدادية والجامعية والدكتوراه).

والأديان الخمسـة التى بعثها اللّه للبشـرية شبيهـة بعض الشـىء بهذه المراحل، نوح عليه السـلام كان مسؤولًا عن تربية وتعليم الناس فى أوّل مرحلـة، إبراهيم عليه السـلام فى المرحلـة الاـخرى وكـذلك موسـى وعيسـى كـان كـلّ واحـد منهم معلّماً واسـتاذاً لإحـدى هـذه المراحل، لتصل النوبة إلى آخر مرحلة، ويتكفّل خاتم الأنبياء محمّد صلى الله عليه و آله بالتعليم فيها.

ومن هنـا يتّضـح الجـواب عن السـؤال الثـانى الـذى كـان يـدور حول كيفيـة إمكـان تكامـل الأديـان فى منطقـة واحـدة والإعلاـن عن خاتميتها؟!

الـدليل واضـح، إذ كمـا أنّ الإنسان يصل فى مراحله الدراسـية إلى ما يطلق عليه ب «التخرّج»، أو بعبارة اخرى أنّه يصل إلى المسـتوى الـذى يكـون قـد اسـتلم فيـه الاـصول العامّـة والنهائيـة مـن معلّمـه، بحيث يتمكّـن لوحـدِهِ من حـلّ المسائـل المسـتحدثة فى ظـلّ تلك العموميّات.

فنبى الإسـلام صـلى الله عليه و آله أيضـاً قـد جـاء بتعـاليم واصول تُحـلّ عن طريقها كافّـة المشاكل المسـتقبلية، كما يمكن للمسـلمين مواصلـة طريق تكـاملهم فى ظـلّ تلك الاصول والتعاليم، والقرآن المجيـد ذلك الكتاب الـذى يكشف التمعّن فيه عن حقائق جديـدة متناسبة مع متطلّبات كلّ عصر.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۳۱۲

هـذا الكلام لا يعنى أنّ إنسان عصـرنا قـد بلغ مرتبـة تغنيه عن الأنبياء كما يتوهّمه بعض المغفّلين، بل على العكس فهو يعنى أنّ اصول

تعاليم خاتم الأنبياء صلى الله عليه و آله واسعة جامعة وبشكل بحيث يمكن من خلالها التغلّب على مشاكل العصر ومسائله.

ولابدّ انّك تسأل لماذا لم تعط هذه الاصول لنوح عليه السلام من البداية؟ نقول فى جواب هذا السؤال: وذلك لنفس السبب الذى لم تدرّس دروس مرحلة الدكتوراه فى المرحلة الإبتدائية وذلك لعدم وجود القابلية والاستعداد لتقبّلها.

وسيأتى إن شاء اللّه شرح أوفى لهذه المسألة فى بحث الخاتمية من مباحث النبوّة الخاصّة.

وهنا تصل المباحث الكليّة للنبوّة (النبوّة العامّة)، نهايتها شاكرين اللّه على هذا التوفيق.

ربّنا! اجعلنا من التابعين الحقيقيين الخُلَّص المخلصين لأنبيائك العظام.

إلهنا: أيقظ امم العالم الغافلة من سباتها

العميق لتجتاز بسلوكها طريق الأنبياء والأولياء

مشاكل الحياة الجمّة وتنال سعادة الدارين ولتيقّن

بأنّ طى هذا الطريق مرهون باتّباع الوحى والإيمان

باللّه والأنبياء.

الهنا: وفّقنا لنشر تعاليم الإسلام، وخاتم

الأنبياء التى تنبض بالنشاط والحيوية فى كلّ أرجاء

المعمورة بوسائل الإتّصال المتطوّرة لنروى ظمأ

العطاشى بزلال تعاليمهم

آمين ياربّ العالمين والحمد للّهأوّلًا وآخراً.

الحادى عشر من شهر صفر ۱۴۱۳

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فى سَبيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علیّ بْنُ موسَی الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... َيَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فى تلخيص بحار الأنوار، للعلاّمة فيض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُيونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّيخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائميّة" الثّقافیّ بأصبَهانَ – إيرانَ: الشّهيد آية الله "الشمس آباذی" – "رَحِمَهُ اللهُ – كان أحداً من جَهابذة هذه المدينة، الذی قدِ اشتهَرَ بشَغَفِهِ بأهل بَيت النبیّ (صلواتُ اللهِ علَيهِم) و لاسيَّما بحضرة الإمام علیّ بن موسَی الرِّضا (عليه السّلام) و بساحة صاحب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرجَهُ الشَّريفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درايته، فی سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجريّة الشمسيّة (=۱۳۸۰ الهجريّة القمريّة)، مؤسَّسةً و طريقةً لم يَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَى و أحسَنِ مَوقِفٍ كلَّ يوم.

مركز "القائميّة" للتحرّی الحاسوبیّ – بأصبَهانَ، إيرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجريّة القمريّة) تحتَ عناية سماحة آية الله الحاجّ السيّد حسن الإماميّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّيجی الحوزات العلميّة و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، فی مجالاتٍ شتّی: دينيّة، ثقافيّة و علميّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثَقافة الثَّقَلَين (كتاب الله و اهل البيت عليهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزيز دوافع الشَّباب و عموم الناس إلی التَّحَرّی الأدَقّ للمسائل الدّينيّة، تخليف المطالب النّافعة – مكانَ البلاتيثِ المبتذلة أو الرّديئة – فی المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوتريّة)، تمهيد أرضيّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافيّةٍ علی أساس معارف القرآن و أهل البيت

–علیهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققین و الطّلاّب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِج العلوم الإسلامیّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهیل رفع الإبهام و الشّبُهات المنتشرة فی الجامعة، و...

– مِنها العَدالة الاجتماعیّة: التی یُمکِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحدیثة متصاعدة، علی أنه یُمکِن تسریعُ إبراز المَرافِق و التسهیلاتِ– فی آکناف البلد – و نشرِ الثّقافهِ الاسلامیّة و الإیرانیّة – فی أنحاء العالَم – مِن جهةٍ اُخرَی.

– من الأنشطة الواسعة للمرکز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ کتبٍ، کتیبة، نشرة شهریّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقیقیّة و مکتبیة، قابلة للتشغیل فی الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثّلاثیّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّکة و... الأماکن الدینیّة، السیاحیّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتی "القائمیّة" www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضیّة، الخَطابات و... للعرض فی القنوات القمریّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمیّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعیّة، الاخلاقیّة و الاعتقادیّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسیم النظام التلقائیّ و الیدویّ للبلوتوث، ویب کشک، و الرّسائل القصیرة SMS

ح) التعاون الفخریّ مع عشراتِ مراکزَ طبیعیّة و اعتباریّة، منها بیوت الآیات العِظام، الحوزات العلمیّة، الجوامع، الأماکن الدینیّة کمسجد جَمکرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفیذ مشروع "ما قبلَ المدرسة" الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِکین فی الجلسة

ی) إقامة دورات تعلیمیّة عمومیّة و دورات تربیة المربّی (حضوراً و افتراضاً) طیلة السَّنَة

المکتب الرّئیسیّ: إیران/أصبهان/ شارع "مسجد سیّد/ "ما بینَ شارع "پنج رَمَضان "ومُفترَق "وفائی/ "بنایة "القائمیّة"

تاریخ التأسیس: ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریة القمریّة)

رقم التسجیل: ۲۳۷۳

الهویّة الوطنیّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البرید الالکترونی: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتی: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاکس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مکتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التّجاریّة و المَبیعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمین ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

المیزانیّة الحالیّة لهذا المرکز، شَعبیّة، تبرّعیّة، غیر حکومیّة، و غیر ربحیّة، اقتُنِیَت باهتمام جمع من الخیّرین؛ لکنَّها لا تُوافِی الحجم المتزاید و المتّسعَ للامور الدّینیّة و العلمیّة الحالیّة و مشاریع التوسعة الثّقافیّة؛ لهذا فقد ترجَّی هذا المرکزُ صاحِبَ هذا البیتِ (المُسمَّی بالقائمیّة) و مع ذلک، یرجو مِن جانب سماحة بقیّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرَجَهُ الشَّریفَ) أن یُوفّقَ الکلَّ توفیقاً متزائداً لِإعانتهم – فی حدّ التّمکّن لکلّ احدٍ منهم – إیّانا فی هذا الأمر العظیم؛ إن شاءَ اللهُ تعالی؛ و اللهُ ولیّ التوفیق.

مركز القائمية اصفهان للبحوث والتحريات الكمبيوترية
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹